

موسوعة الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء الثامن

دار المرتضى


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


موسوعة
الثورة الحسينية
٨

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٨٤٠٣٩٢ ٠٠٩٦١١
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail: mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة

الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

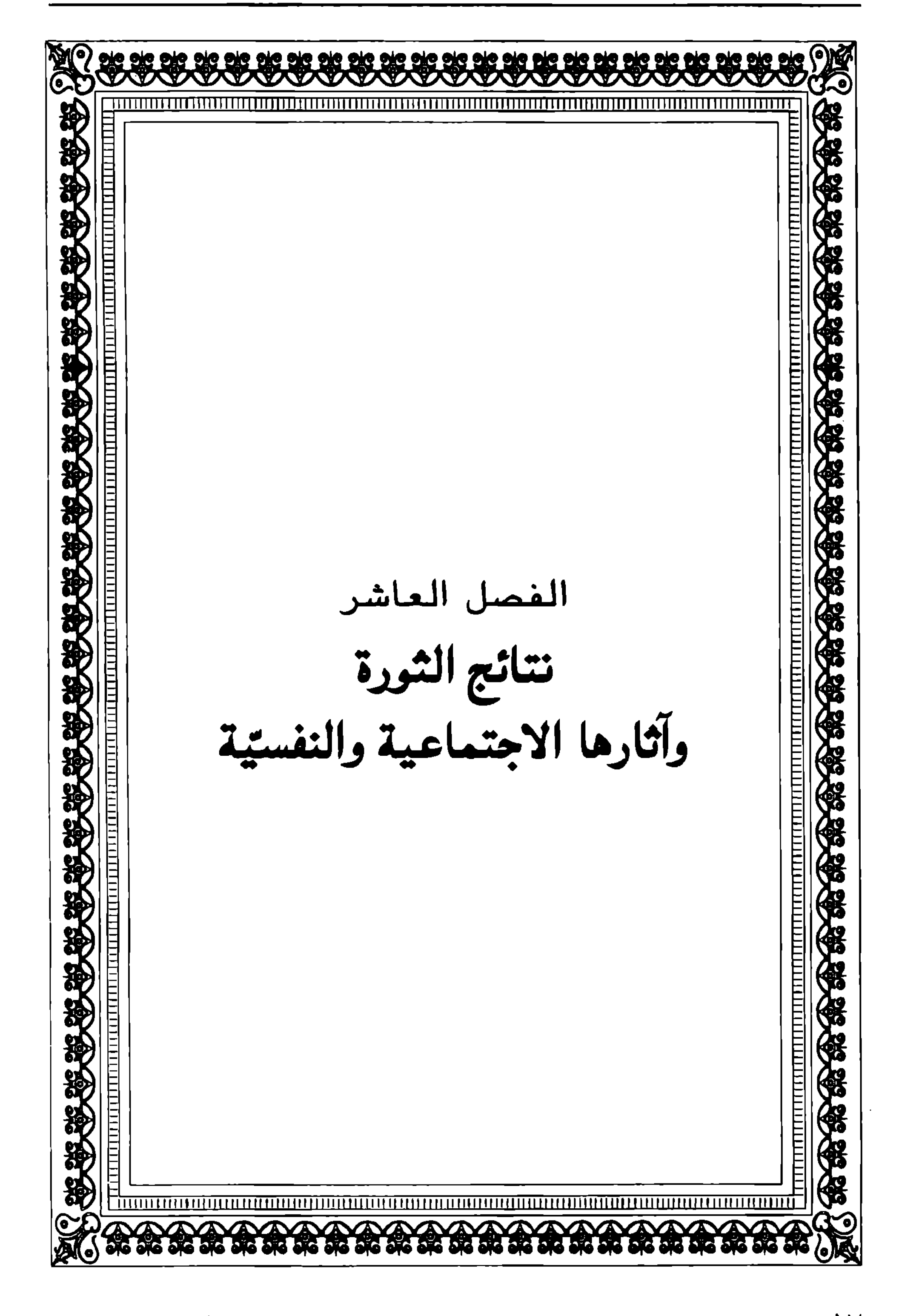
احاديث عن انصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الاسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

محمد نعمة السماوي

الجزء الثامن


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه



الفصل العاشر

نتائج الثورة
وآثارها الاجتماعية والنفسيّة

الفصل العاشر
نتائج الثورة وآثارها الاجتماعية والنفسية

تطابق النتائج مع الأهداف

قبل الخوض في هذا البحث، لا بد لنا من ملاحظة الأهداف التي توخاها الإمام الحسين عليه السلام من الثورة، ومدى تطابق النتائج المتحققة، مع هذه الأهداف، سواء تلك المتحققة بالفعل على المديين القصير، أي بعد حدوث الثورة، والطويل، أي على امتداد التاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا أو تلك التي يتوقع تحققها في المستقبل أيضاً . . .

لقد أوضح الحسين عليه السلام منذ مسيره من المدينة، وقدومه إلى مكة وخلال مسيره إلى كربلاء، وفيها أيضاً، أهداف ثورته الكبيرة ـ كما تحدثنا عن ذلك في الفصول السابقة ـ وحاول لفت الأنظار إليها، بتحرك واضح تطلعت إليه الأمة وقد أرادت أن تلاحظ رد فعل الدولة الأموية تجاهها، والذي توقعت أن يكون عنيفاً مدمراً، خصوصاً وأن موقف الحسين عليه السلام كان منذ البداية يسير باتجاه رافض للحاكم المفروض على الأمة التي بايعته مرغمة تحت وطأة الظروف التي مهد لها معاوية بعناية فائقة. . .

منازلة مكشوفة أمام الأمة

وكانت منازلة حاسمة مكشوفة جرت أمام سمع الجميع وبصرهم وكانت فصولها وأدوارها مسجلة بكل دقة ووضوح، أراد الحسين عليه السلام فيها أن يثبت لكل الأجيال أنه عند موقفه المبدئي السابق وأنه لن يستسلم أو يهادن السلطة الجائرة مهما كانت الظروف التي يتعرض لها، وحتى لو كانت النتيجة المباشرة لذلك هو الموت قتلًا والتعرض للأهوال والمصائب. . .

لقد شجب الحسين عليه السلام الشكل الجديد للدولة المعروض والمقدّم للأمة الإسلامية كبديل عن الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ أن هذه الدولة الجديدة لا علاقة لها بالإسلام بتاتاً ولا تحمل منه إلا اسمه وبعض ممارساته

المظهرية، لأنها لا تلزم رأسها الذي نصب خليفة بالإكراه، بالعقد الإلهي الذي يجعل خلافته شرعية قائمة على شروط الإسلام ومبادئه وأسسه، لا ملكاً مطلقاً غير مقيد بضوابط الإسلام وتشريعاته.

الأمويون: خلافة غير شرعية

فخلافة الإنسان على الأرض وقوامته عليها، وعلى أخيه الإنسان، وفق منظور القرآن الكريم، حددت بضوابط وتشريعات وتعليمات إسلامية واضحة الشكل والمعالم، لا لبس فيها ولا غموض. ومعلوم لكل فرد مسلم أن الإخلال بأي شرط أو جزء منها يعد خروجاً عليها جميعاً ونقضاً لكل بنودها، ويعني أن العقد الذي قبل الخليفة أن يكون ملزماً به عندما قبل هذا المنصب، مفسوخ، ولم تعد له قيمة شرعية أو قانونية بنظر الأمة أو نظر المستخلِف نفسه، وهو الله جل وعلا.

كما أن خروجه الفعلي على صيغة العقد الإلهي المقيد الملزم بضوابط وشروط ـ تحدثنا عنها في هذا الكتاب[1] ـ يلزم الأمة بمنعه من ذلك وإيقافه وأن لا تبيح له ذلك وتجعله حقاً من حقوقه، انسياقاً وراء الأمر الواقع وقد رأته أمامها متسلطاً قوياً متنفذاً.. وأن تقوم بعزله بكافة الطرق المناسبة.

إنَّ سلب المسلمين حقهم في أن يحكمهم الإسلام وينظم حياتهم بعيداً عن كل تصور جاهلي غريب، ووفق التصور الإسلامي الصحيح للخلافة، يعني إشعارهم بشكل معلن بعدم حاجتهم للإسلام نفسه وإمكانية استمرار حياتهم دونه، ما دام هذا الركن المهم من أركان الدولة الإسلامية قد تلوعب به وتعرض لهذا الخرق الشنيع من قبل أناس أظهروا أنفسهم للناس وكأنهم من أشد الناس حرصاً عليه، وذلك يعني إشعارها أيضاً بعدم ضرورة التقيد بالعقد الإلهي الخاص بالخلافة والالتزام به وإمكانية الرجوع إلى أية صيغة جاهلية للحكم بمقتضاها.

وإذا ما كان ذلك الأمر صادراً عن (الخليفة) الذي يدَّعي تمسكه بقوانين الإسلام

---

(١) كرسنا الفصل الأول من هذا الكتاب للحديث عن (الخلافة) من وجهة نظر الاسلام وتحدثنا باسهاب عن الصيغة الرباعية التي تنظم عقد الاستخلاف كما تناولها الشهيد الصدر في (المدرسة القرآنية)، وتحدثنا عن بعض الآراء في هذا الموضوع، والتي تشير بأجمعها الى عدم شرعية المتخلّفين الأمويين وعدم جدارتهم لقيادة المسلمين...

والذي لم يصل إلى السلطة إلا على أساس ذلك الادعاء، كان ذلك إشعاراً آخر بأن الصيغة الأولى للحكم القائمة على أساس عقد إلهي متين غير صالحة إطلاقاً لأنها لا تحقق الغاية المرجوة منها. . ومعنى ذلك أنَّ الإسلام ـ شأنه في ذلك شأن الأنظمة الوضعية التي تتحكم بها إرادة البشر ورغباتهم ـ قابل للطعن والنقض والتعديل والتبديل والإضافة ـ وفق تصورات الحاكمين ومصالحهم، وأنه بالتالي غير كامل وغير مؤهل لتغطية كل جوانب الحياة بقوانينه وتعليماته، وإن له جوانب محدودة يجب أن يقتصر عليها من يريد أن يدين به. . وهذه الجوانب لا تتعدى بطبيعة الحال المظاهر الطقوسية الظاهرية التي من شأنها إشعارهم بأنهم ينتمون للإسلام خاصة دون بقية الأديان.

أنماط متعددة من اللاشرعية

وهذا هو الذي وقع فعلًا، لتغيير هذه الصيغة الإسلامية بمبررات (إسلامية) مشوهة ومهلهلة، وقد أتاح ذلك الفرصة لسلاسل من الحكام الآخرين ابتداءً من الأمويين وحتى العصور اللاحقة وإلى يومنا هذا، لاختلاف المبررات التي من شأنها التلاعب بأشكال وأنماط الحكم والقوانين السائدة التي تحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية وصلاحيات الدولة والخطوط الحمراء، غير المسموح بتجاوزها من قبل الناس لاختراق الدولة والتصدي لها ومحاسبتها، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التي تستهدف احتكار السلطة وعدم السماح بخروجها من أيدي الذين يمسكون بها.

هل هو انحراف واحد فقط

وإذا ما تحدث متحدث عن انحراف واحد فقط، وقع في نظام الحكم وحسب، قام به الأمويون وإنهم لم يتجاوزوه إلى انحرافات خطيرة أخرى، يريد أن يهون ـ بذلك، من شأن المسألة، ويعتبر أن خطرها ثانوي، فإن عليه أن يتذكر هنا، إنه إنما يناقش قضية إسلامية، فلا بد أن ينطلق إلى ذلك من خلال التصوّر الإسلامي نفسه ويعالجها بأدوات إسلامية، ليتاح له التعرف بدقة على وجهة نظر الإسلام وموقفه من مختلف قضايا الحياة والمجتمع وفي مقدمتها قضية الحكم ليتوصل بعد ذلك إلى نتيجة واضحة: وهي إن الإسلام لم يجعل من التصرف أو التلاعب الكيفي بتشريعاته وقوانينه مسألة كيفية رهينة بمصالح الحكام ورغباتهم، وإنه لم يترك الحبل على

الغارب، وقد أكد أن هؤلاء الحكام، ما داموا ملتزمين بالإسلام وشروطه وأحكامه، فهم حكام شرعيون، أما إذا خرجوا عن أبسط هذه الشروط والأحكام، فهم بذلك يعتبرون أول الخارجين عن الإسلام، وعلى الأمة في هذه الحال، استبدالهم بالقوة، إن لم يستجيبوا لإرادتها بشكل طوعي ويبتعدوا عن سدة الحكم.

لم يكن التغيير الأموي في شكل الحاكم فقط، وإنما كان في شكل الحكم وأسلوبه وطريقته. .

لقد بدلوا الطريقة الصحيحة الأولى، وابتكروا طرقاً وصيغاً جديدة، وهذا ليس مجرد انحراف بسيط عن نمط الحكم الإسلامي الصحيح والتصور الإسلامي ـ على حد زعم بعض الكتاب ـ وإنما خروج متعمد عن الإسلام ورفض لأهم بنوده وقواعده.

خروج متعمد عن شرعية الصيغ الإسلامية في الحكم والحياة

وإذ أباح الأمويون لأنفسهم هذا الخروج المتعمد، فارضين إرادتهم على الأمة، فإنهم أعلنوا بذلك أن من حقهم أن يخرجوا عن أيِّ أمر، وإن أقره الإسلام وأراده، وهو ما فعلوه بالضبط بالعديد من الأمور، ما دامت مصالحهم قد استدعت ذلك وما داموا هم قد أرادوه، فلم تكن تصرفاتهم في مختلف المجالات الحياتية الأخرى تتقيد بالنمط الإسلامي للحياة والقواعد الإسلامية عموماً، وكان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة، حاولوا فيها إشعار كل فرد من الأمة أن بإمكانه أن (يتحلل) من هذه (القيود) الإسلاميَّة ويكسر طوقها ويخرج عنها إذا ما رأى أنها قد قيدت حريته الشخصية، ووقفت أمام طريق رغباته وراحته وسعادته، وأصبحت قيود الدولة وأوامرها وقوانينها بديلة عن القوانين الإسلامية المنزلة، كما أصبح نمط الحياة الذي تريده هو المفضل والسائد.

نمط مبتذل ــ يزيد مثالًا

لقد كان نمط الحياة الذي يعيشه يزيد مثلًا، وهو ثاني خليفة أموي مطلق، نموذجاً لنمط مطلوب، أخذ به في البداية ولاته وعماله، ثم انتشر بين عموم الناس. .

(وغلب على أصحاب يزيد عماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر اناس شرب الشراب)[1].

لقد أصبحت هذه الفئة الحاكمة مثلًا أعلى لفئات كبيرة من أبناء المجتمع، تحركت أمام دوافع استجابتها الغريزية وبعدها عن الإسلام ويأسها من عودته ثانية كما كان أيام رسول الله ﷺ واستسلام الأمة أمام معاوية ويزيد، وتصرُّفات يزيد وعماله المشين وشذوذهم الصارخ، لتسلك نفس سلوكهم متشبهة بهم، ولتقف موقفاً سلبياً من الإسلام كدين قيّد من حرياتهم وحاول كبح تصرفاتهم، كما أنه هو نفسه أصبح يلوح لهم كأثر من آثار الماضي، إذا ما أبدى البعض اعتزازاً حقيقياً به فإنهم لم يكونوا يتوقعون أن يعود إلى حياتهم كما كان، وقد عهد لهذا التصور معاوية بحملة من أطروحاته التي أفادت بأن لا أحد يستطيع السير على (سنة) الشيخين بل إنه هو نفسه لا يستطيع أن يسير في المسلمين حتى بمسيرة عثمان، كما أنه أفضل من غيره. . وهكذا يستمر العد التنازلي لمسيرة (الخلفاء) وهو تمهيد خطير يراد من ورائه إشعار الأمة بأن ما مضى كان حالة فريدة لن تعود ولن تتكرر ثانية.

الانحرافات أصبحت مبادىء

وكان السلوك الأموي أحد المبررات أو الذرائع التي استند إليها الآخرون للانفلات من تعاليم الإسلام الأخلاقية وغيرها، وقد تمادوا في ذلك إلى حد بعيد، بفعل تحسن أوضاع الأغنياء بفعل الفتوحات وما كان يغدقه عليهم (الخلفاء)، وتوسع هذه الطبقة الطفيلية القريبة من الحكم الذي كان يتصرف تصرفاً عبثياً كيفياً غير مسؤول بعد أن احتكر الحكم وتسلط على الناس بالقوة وكم أفواههم ومهّد لأشد ألوان الاستبداد السياسي قتامة ومقتاً. أصبحت تبدو أمام الأمة المظلومة في مختلف العصور وكأنها مُقرّةٌ من قبل الإسلام نفسه، بعد أن أحاط الحكام أنفسهم بطبقة طفيلية أخرى مطبلةً مزمرة من وعاظ السلاطين وفقهاء الدولة المأجورين.

(. . وإلى هنا يكون قد وقع من الحكم الأموي انحرافان في عالم السياسة، أياً كانت الأسباب التي استندوا إليها لتبريرها، الأول: هو تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة، وهو الخلافة واستبدال الملك

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٢.

العضوض به، والثاني: محاولة إسكات الناس بالقوة عن مراقبة أعمال الحاكم، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وصرفهم بالعنف عن أداء واجبهم الإسلامي في هذا الشأن الذي تعلموه في فترة الخلافة الراشدة، وهو أن قضية الحكم مهمة مشتركة بين الراعي والرعية، وليست أمراً يستقل به الراعي دون الرعية.

وتبدو جسامة الآثار التي ترتبت على هذين الانحرافين، حين نرى العهود التالية تأخذهما كأنهما مبادىء مقهرة، مما أدى إلى استقرار لون من الاستبداد السياسي في حياة المسلمين كأنه أصل من أصول الحياة الإسلامية، فيما عدا الفترات التي يأخذ العدل فيها مجراه بدافع ذاتي من الحاكم، لا بطلب من الأمة، ولا بسعي من جانبها.

وقد كان لهذا الأمر آثار خطيرة في حياة الأمة إن لم تظهر بوضوح في العهد الأموي، فقد كانت أوضح في العهد العباسي ثم العثماني...)[١].

لماذا الخوف من كشف الانحرافات

ومع ذلك يهوّن كاتبنا الإسلامي الكبير من شأن هذه الانحرافات (الحالية والسابقة) لأن ما حدث بعدها كان أشدّ منها، ويبدي تخوفه من النقد والكتابات المختلفة التي تبرر الأخطاء وتجسمها وتخفي حسنات الأمويين..! ويعيد نفس تخرصات الأمويين بشأن الأعداء الشيعة أو السبأيين الذين جعلوا همهم التشنيع عليهم.

(حين نعيد كتابة هذه الفترة، ينبغي أن تكون على بيّنة من عدة محاذير...

المحذور الأول: إن معظم ما نتداوله في مدارسنا وفي دراساتنا عن هذه الفترة مكتوب بأيد شيعية أو سبأية، همها الأول التشنيع على بني أمية وتجسيم أخطائها وإبرازها وإخفاء الحسنات أو تفسيرها تفسيراً ملتوياً، يذهب بما فيها من الخير، ويعرضها كأنها من السيئات، وعلاج هذا الأمر - كما أشرنا في (الفصل السابق - هو اتباع منهج المحدّثين لتمحيص الروايات المدسوسة والضعيفة والملتوية للوصول إلى الحقائق الصائبة، بقدر ما يتاح للمؤرخ المسلم الملتزم بالحيدة العلمية التي هي أصل من أصول هذا الدين.. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٢].

---

(١) محمد قطب/كيف نكتب التاريخ الاسلامي ص ١١٢.

(٢) الإسراء ٣٦.

هل نمسح المسألة بهذه البساطة ونتناسى كل ما قيل عن الأمويين، وما يعترف به الكاتب الإسلامي الكبير نفسه..؟

ألم يؤدي اتباع منهج المحدثين لتمحيص الروايات إلى تأكيد الحقائق بشأن انحراف الأمويين، مع أن روايات عديدة انسابت من أيدي هؤلاء وأخذت مواقعها كروايات موثوقة في ظل الظروف والأوضاع الأموية نفسها وإن العديدين من هؤلاء الرواة (الثقاة) عاشوا في بحبوحة الترف الأموي واغترفوا من الأموال الأموية...؟

إن كاتبنا الكبير واثق في قرارة نفسه من انحراف الأمويين عن الإسلام، غير أنه يشعر أنه إذا ما أقر بذلك علانية وبوضوح فإنه يتيح مجالاً آخر للشيعة (والسبأية) للتشنيع مجدداً على الأمويين، ويثير بذلك عداوة كل نمط مشابه للخط الأموي القديم ولنستمع إليه ثانية، ونلتفت إلى الحقائق التي يقرها هو، ثم لنتساءل كيف يوفق بين ما يقوله هنا وما سبق أن قاله قبل قليل[1].

بسبب الأمويين اتهم الإسلام بأن مثله الرفيعة غير قابلة للتطبيق

(..والمحذور الثاني في المقابل هو محاولة الدفاع عن بني أمية بنفي كل التهم الموجهة إليهم على أساس أنها موجهة من الخصوم السياسيين، فهي باطلة لأوّل وهلة، ولا بدّ من الاجتهاد في دحضها وإثبات عكسها، والمحذور في هذا المسلك أنه أولًا ـ مخالف للمنهج الرباني الذي سبقت الإشارة إليه﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2].

ثم هو ثانياً يوشك أن يوقعنا في محذور أشد، هو اتهام الإسلام بأن مثله الرفيعة غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع، وإننا لا بد أن نحيد عنها لمواجهة الواقع العملي، وهي دعوى ما أيسر أن يتخذها الطغاة سنداً لإيقاع المظالم بالناس والتنكيل بالمعارضين الذين يقفون في وجه استبدادهم وظلمهم، وستجد حين نلتزم بتلك الضوابط جميعاً أننا نستطيع أن نفسر ونبرر كثيراً من أعمال معاوية التي قام الشيعة والسبئيون بتشويهها لهوى في أنفسهم، ولكننا لا نستطيع أن نبرر كل ما يفعله معاوية دون أن نجني على قيم إسلامية أصيلة...

(١) محمد قطب/ كيف نكتب التاريخ الاسلامي ص ١١٣.
(٢) النساء ١٣٥.

وليست القضية شهوة في تجريح معاوية، ولا شهوة في الدفاع عنه وتبرئته، فكلتاهما حيد عن الطريق، إنما القضية هي الأمانة الواجبة لهذا الدين وقيمه ومعاييره، والرسالة التي نزل ليؤديها في حياة الناس. . .)[1].

هل نغلق الملف ونبدأ تاريخاً مقطوع الجذور!

ماذا سنفعل إذاً؟ هل نغلق الملف بأكمله ونوقف استعراض الشخصيات التي كان لها في تاريخنا الإسلامي أكبر الأدوار والآثار، ثم نبدأ تاريخاً مقطوع الجذور لا علاقة له بتاريخنا الأول؟ أم أننا سنجد في تلك الحال أن كتابة التاريخ مستحيلة وأننا في عملية تقويم أنفسنا وأوضاعنا سنحتاج لعملية تقويم شاملة تبدأ منذ ظهور الإسلام نفسه؟

لسنا بحاجة لاستعراض تاريخ معاوية لو لم يكن معاوية قد لعب دوراً كبيراً في تاريخنا لن يضير معاوية التجريح لو كان بريئاً ولن ينفعه الدفاع لو كان ظالماً، فالحساب في النهاية سيكون أمام العليم الخبير، ولسنا بحاجة لذلك لو لم يتكرر نمط معاوية دائماً.

لقد جرت محاولات أموية دؤوبة لجعل المجتمع الإسلامي يهبط من القمة التي أوصله إليها رسول الله ﷺ، حينما لم يكن ير أمامه إلا القيم الإلهية التي آمن بها بشكل مطلق وجعلها السبيل لتنظيم كل شؤون حياته، وإلّا رسول الله ﷺ الذي قاده إلى بر الأمان عبر كل الزوابع والأعاصير التي أثيرت لعرقلة مركبه عن الوصول إليه إلى وهدة منخفضة تتصارع فيها آلهة الغرائز والحس والنزوات والمصالح ليكون هو الهدف المباشر لهذه الآلهة التي تجبرت وطغت وجعلت منه أداة لتنفيذ كل أعمالها غير المشروعة، وجعلته طوع إرادتها هي، بعد أن جعلته يرى أن الإسلام مجرد نور أشرق مرة واحدة وقد استهلكت الطاقة التي أمدته بهذا النور، وإنه مجرد أمل يراود النفوس التي شهدت إشراقته الأولى وأنه غير ممكن التطبيق إلا في الفترة التي شهدت فيها رسول الله ﷺ نفسه. . ولم تمتد كل تلك المدة إلا لأنه ﷺ كان لا يزال بعد في ذاكرة الأمة، وقد جعلها الأمويون بعد ذلك تنسى حتى الصورة الصحيحة لرسول الله ﷺ بعد أن عملوا على تشويهها وتزويرها وتشويه الإسلام وتزويره؛ لأن

---

(١) كيف نكتب التاريخ الاسلامي ص ١١٤ ـ ١١٥.

من شأن الصور الصحيحة أن تظهر بطلان كل المزاعم التي استندوا إليها للالتفاف حول مكاسب المسلمين وسرقتها والاستئثار بها.

تشريعات (أموية).. لا تشريعات إسلامية

وقد كانت (التشريعات) الأموية الخارجة عن الإسلام، وجهاً آخر لوجوه الانحراف الأموي، وكانت إعلاناً واضحاً لرفضه الإسلام واستبعاده عن الحياة بصورة عملية، وعندما تم إخضاع الأمة لتقبّل تلك التشريعات الغريبة، كان ذلك إيذاناً بافتتاح عهد جديد لسلاسل فراعنة وطغاة الأمة الذين لم يقيموا وزناً للإسلام ولم يقبلوا منه إلا بعض الاداءات الطقوسية التي من شأنها أن تحسن صورهم أمام الأمة وقد زوروه وذهبوا به إلى الحد الذي بدا فيه وكأنه جاء لتكريس حكمهم وسلطانهم وإنه لم ينزل إلا لهذه الغاية فقط.

لقد أراد معاوية منذ البداية التمهيد لكي يحكم يزيد وسلالته من بعده حكماً مستبداً غير مقيد بقوانين الإسلام وشريعته وقطع الطريق على كل الحجج التي قد ترفع لتبرير الثورة على هذا الحكم فيما بعد، وقد صور الأمويون معركة الطف وثورة الحسين عليه السلام بعد ذلك، وعرضوها على أنها معركة (السلطة الشرعية) مع فئة خارجة عن القانون والشرع..! وإن هؤلاء الخارجين على سلطة الدولة الشرعية هذه كانوا جديرين بما ما فعلته هذه الدولة معهم من قتل وإبادة وقطع للرؤوس وتمثيل بالجثث، وكان قمعهم وقتلهم بالأسلوب الذي تم فيه ذلك، إنما هو تدبير محكم لمنع مثل هذه البوادر الخطيرة وعدم السماح بظهور بوادر مشابهة لها في المستقبل، مما سيحدث شرخاً كبيراً في جدار وحدة الأمة وتآلفها واجتماعها حول قادتها (الشرعيين) ويفسح المجال لمزيد من (الفتن) و(العصيان) والفرقة بين المسلمين، وإن هذا الأسلوب (التأديبي) ستلجأ إليه الدولة مع كل من يريد أن يقوم بما قام به الحسين وأصحابه، وقد أخذوا يلومون بذلك أمام كل من كانوا يحسبونهم أعداء لدولتهم يريدون القضاء عليها.

وهكذا قال يزيد لجلسائه عندما جيء برأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه ووضع أمامه: (أتدرون من أين أتي هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وأمي فاطمة خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر منه.

فأما قوله: «أبوه خير من أبي»، فقد حاجَّ أبي أباه وعلم الناس أيهما حكم له، وأما قوله: «أمي خير من أمه»، فلعمري فاطمة ابنة رسول الله خير من أمي..

وأما قوله: «جدي خير من جده» فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فيناً عدلًا ولا نِدّاً، ولكنه إنما أتي من قبل فقهه ولم يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

لماذا اختصهم الله بالملك؟ ألمؤهلاتهم النادرة؟

وقال للإمام زين العابدين: (يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت..)[2].

كان يزيد يرى ان الله قد اختصه هو بالملك، ما دام آتاه ذلك الملك دون غيره من الناس، وقد أصبح ذلك أمراً واقعاً، وها هو ذا يتمتع بملكه وسلطانه.

أما كيف تم ذلك الأمر؟ هل تم بتكليف أو وصية إلهية خاصة، أم بوصية خاصة من الرسول ﷺ.. أم أنه تم بالقهر والإكراه بالشكل الذي أطلعنا عليه في هذا الكتاب؟ فذلك لا يهم ـ بنظره ـ ما دام قد أصبح حقيقة واقعة.

كانت أطروحات معاوية تؤكد على ذلك الأمر وتعدّ الناس لتقبله كقدر مقدور من الله عز وجل ـ وليس عبثاً أن يقوم معاوية بتأييد أفكار القدريين والمرجئة، بل لعله كان هو مصدر تلك الأفكار.

أطروحات فرعونية بمواجهة الشرعية

وكان من شأن تلك الأُطروحات أن تكبح إلى الأبد كل تطلع شرعي لإقامة الحكم الإسلامي على الأسس التي أرساها ووضعها رسول الله ﷺ... لو لم يقم ابن رسول الله ﷺ نفسه، الإمام الحسين عليه السلام بالتصدي لها ومواجهتها بدمه ودماء أهل بيته وأصحابه، في محالة جريئة واضحة لإبطال كل المزاعم الأموية التي تمهد

(١) آل عمران: ٢٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٣٩.

لجعل كل شيء رهن أيدي معاوية ويزيد وسلالتهما، ثم رهن أيدي سلاسل الطغاة والمتجبرين فيما بعد.

كان يزيد يرى أنَّ الأمر أمر منافسة على السلطان والملك، ويرى أن عليه التصدي بكل وسائل العنف اللازمة لكل من لا يرى له الحق في أن يكون خليفة لأبيه، ولكل منافس يظهر على الساحة، حتى ولو كان هو الحسين بن رسول الله ﷺ نفسه، بل إن الحسين نفسه كان موضع استهداف خاص من قبل يزيد لما كان يضمره هذا الأخير من كره موروث أصبح يمثل (حقداً مقدساً) في نفوس الأمويين على رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وأبنائهما، وهكذا عبر بكلماته تلك التي وجهها للإمام زين العابدين عليه السلام بعد أن أخذ أسيراً إلى الشام.

كانت كلماته تتخذ نفس النمط والأسلوب الذي اتخذته كلمات عبيد الله بن زياد التي وجهها لزينب في الكوفة كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك..؟)[1] يكررها يزيد بصيغة أخرى فيقول: (فصنع الله به ما قد رأيت..).

مفاهيم جديدة

كان النظام الأموي يسعى لترسيخ مفهوم جديد لشرعية وجوده واستلامه الحكم، ويبيّن أن ما حدث لأعدائه إنما كان بتدبير إلهي ومشيئة إلهية اقتضت أن يُقتل أولئك الأعداء، فكأن الذي قام بعملية القتل والقمع جنود من السماء، لا أعوان الدولة ومرتزقتها.

وكأن المؤهل المطلوب من الحاكم هو حسن السياسة والتدبير، ولا يهم بعد ذلك أن يكون عاطلًا من أي مؤهل آخر، أو أن يحكم بما لم ينزل الله به من سلطان أو حكم أو قانون، قانون الحاكم سياسته وحسن تدبيره للإمساك بزمام الأمور وضبطها لصالحه، وعلى هذا الأمر وحده أكّد معاوية عندما اختار يزيد ولياً للعهد، وقد اقتنع به يزيد مع أنه لم يكن حسن السياسة والتدبير كما كان يتبجح بذلك والده ـ وكان يبدي تعجبه من إقدام الحسين عليه السلام على التصدي له ورفض حكمه، كما جاءت فئة كبيرة

(١) الطبري ٣/ ٣٣٧.
وقال لمحمد بن الحنفة بعد ذلك (... كان قد ظلمني وقطع رحمي ونازعني حقي) بحار الأنوار ٤٥/ ٣٢٦.

من المسلمين بعد ذلك، وإلى يومنا هذا، تبدي تعجّبها، بل واستنكارها لما قام به الحسين عليه السلام وتجد أنه بثورته بوجه يزيد كان ظالماً له، وقد تطرقنا إلى الأطروحات التي كانت ترى وجوب إطاعة الحاكم الجائر أو الفاسق وعدم الخروج عليه لأي سبب من الأسباب لما في ذلك ـ كما تؤكد تلك الأطروحات ـ من احتمال كبير للتعرض للفساد والفرقة والهرج والفوضى، كأن تلك الأطروحات تقول: إن ما يراد من الناس هو أن يكونوا منضبطين وفق قانون قوي، ولا يهم أن لا يكون ذلك القانون قانون الإسلام نفسه، وهذه الأطروحة هي السيف الذي لا يزال يسلط فوق رقاب المسلمين، ما داموا قد أقروها في زمن ما واعتمدتها سلاسل للحكم طويلة على أنها هي الشيء الصحيح ووضعوا لتبريرها (أحاديث) قالوا إن النبي صلى الله عليه وآله نفسه قد قالها وأوصى بتطبيقها، مع أن بعض تلك السلاسل كانت معاوية للنظام الأموي إلا أنها تساهلت بشأن أطروحاته حول الحكم والحاكم.

لماذا يريدون إزالة ملكنا؟ حيرة يزيد!

ربما كان يزيد يعجب من إقدام الحسين على ثورته بوجهه ويراه منافساً جديراً بالقمع والاستئصال ما دام يريد زوال هذا الملك الذي آتاه الله إياه دون بقية البشر واختصه به، وربما يعجب أي فرعون أو كسرى أو قيصر إذا ما رأى من يريد إزاحته عن العرش، فهو ملك لا يرى إلا نفسه، ويرى الناس حوله راكعين مطيعين لا يجرءون على رفع أبصارهم إليه وعصيان أوامره وإهمال رغباته، فهم عبيده وخدمه وحراسه.

لقد كان تصوره لذلك السطو الكبير على الخلافة من قبل أبيه ـ الذي كان مقتنعاً به قناعة شديدة ـ والذي بدت أفعاله ورغباته تسير باتجاه تكريس الحكم له ولأبنائه من بعده، بجعله يعتقد أنه إنما ينال حقاً خاصاً به وملكاً آتاه الله إياه، فليس لأحد، حتى ولو كان هو الممثل الشرعي للأمة الإسلامية ـ ولنلاحظ أنه لم يكن يعتقد بممثل لها سواه ـ من حقه أن يتصدى له ويرفض حكمه، ولو كان ابن الرسول صلى الله عليه وآله نفسه الذي يحمل له المسلمون في قرارة أنفسهم حباً كبيراً ووداً خاصاً، وفي تلك الظروف التي رأى فيها أن كل شيء طوع أمره وإرادته كان يزيد على استعداد لمنازلة أي (منافس) أو عدو حتى ولو كان هو رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، ولفعل به ما فعل بالحسين تماماً.

ربما كان يزيد لا يفهم، وربما كانت حاشيته مثله لا تفهم، لماذا يقف الحسين

منه ذلك الموقف ولماذا يريد استبداله بقيادة شرعية مؤهلة، وقد تعود أن يسمع من الجميع، وفي مقدمتهم والده أن الملك في النهاية له يتلاعب ويتصرَّف به وفق مشيئته وهواه، كما تعود أن يسمع كلمات الإعجاب والثناء على سلوكه وسياسته وفطنته وحسن تصرفه.

وربما كانت عقلية يزيد نسخة مكرورة معادة من عقليات كل الطغاة الذين سبقوه على مر التاريخ والذين كانوا يرون الجميع ينحنون أمامهم ويدينون لهم بالطاعة ويجعلون منهم أرباباً من دون الله، وقد كانوا يريدون لقانونهم وحده أن يسود ويحكم، ويرون في كل قانون أو دين أو نظام آخر يشجب تصرفاتهم ويحد منها، عدواً يجب محاربته واستئصاله.

وهكذا، فلا غرابة أن يرى يزيد في الإسلام عدوه اللدود، لأنه يقف عائقاً أمام اندفاعاته وتصرفاته غير المسؤولة وغير المنضبطة، وقد نستطيع أيضاً تفسير تلك التصرفات إذا ما فهمنا تصوراته كطاغية مطلق اليد، وجد الأمر ممهداً له منذ البداية ووجد الطريق مفروشاً بالورود، وقد أصبح زعيماً للأمة وملكاً مطلقاً عليها رغم علمها المسبق بحقيقته وحقيقة تصرفاته التي لم تكن تخفى عليها، ولم يكن يخفى عليه علمها بها.

ومن هذه الزاوية قد نستطيع الاقتراب من تصور كل طاغية وجد الأمور ممهدة له منذ البداية، ووجد نفسه متسلطاً على رقاب الناس وحاكماً غير مقيد.

لا بد من كشف الباطل حتى يستبين الحق

كان عمل الحسين عليه السلام يهدف إلى تبيان طبيعة الانحراف الكبير الذي كانت تتعرض له الأمة على يد المؤسسة الحاكمة منذ أن جلس معاوية على العرش وأخذ يمهد لمجيء يزيد خليفة له ومتصرفاً مطلقاً بها وبمقدراتها، رغم علمها بحقيقته وبعده الكبير عن الإسلام. وكان سكوتها دليلًا على أنها بدأت تتقبل ذلك الانحراف وتراه أمراً طبيعياً، وكانت حالة اللامبالاة والاستسلام والمساومة تبرز كرد فعل على حالة اليأس التي بدأت تنتاب أبناءها نتيجة تداعي الأوضاع ووقوع الجميع في القبضة الأموية المحكمة التي بدت لها أنّها لن تفرط فيما حصلت عليه، وإنها لن تتنازل أمام أية جهة تريد إعادة الأمور إلى نصابها.

وكان الصراع الذي تفجر بمعركة الطف، صراعاً حقيقياً بين الإسلام ومنهجه

المتكامل في الحياة وبين سلسلة الطواغيت التي بدأت تعلن عن نواياها الحقيقية ومناهجها هي في الحياة، والتي بدأت تعتقد أن كل من يريد تصحيح مسيرتهم والعودة إلى المنهج الإسلامي الصحيح إنما هو معتد على حقوقهم ومعتد عليهم شخصياً، وإنهم بتصرفهم القمعي تجاه أعدائهم، وفي مقدمتهم الإمام الحسين عليه السلام، كانوا يدافعون عن امتيازاتهم ويصونون ممتلكاتهم الشخصية التي انتزعوها بالقوة من أعدائهم القدامى وفي مقدمتهم الرسول وآله صلى الله عليه وآله، والتي استطاعوا الحفاظ عليها بجدهم ومثابرتهم وحسن تدبيرهم وسياستهم.

وربما كان ذلك الذي حاولوا أن يوحوا به للأمة بأنهم نالوا ما نالوه بالجد والمثابرة وحسن التصرف والسياسة، وقد اقتنعوا به قبل غيرهم، لأن من مصلحتهم أن يقتنعوا به قناعة مطلقة تظهر آثارها على سلوكهم وتصرفاتهم. وقد أوحوا للأمة أنهم لن يتخلوا عن مكاسبهم وإنهم سيحتفظون بها ويعضون عليها بأنياب من حديد، فما أخذوه بالقوة لن يتخلوا عنه إلا بالقوة، وما أخذوه بالحيلة والسياسة و(حسن التدبير) فإنهم على استعداد لمواجهة كل من يريد منازلتهم، واستخدام المزيد من الحيلة للحيلولة دون خروج الأمر من أيديهم.

وكان الأمر يبدو مستحيلًا أن يقدموا على التنازل، أو أن يقدم رأس الدولة على ذلك، لأن من يسند دولته وهم أقرباؤه وحاشيته وكل الموالين لدولته لن يقبلوا بذلك، بعد أن جعلوا الأمر أمر عصبية. اعتقدوا معه أنهم أصحاب الشأن والسلطان الذين ينبغي أن تدين الأمة كلها لهم بالطاعة والولاء.

نصر أم هزيمة.. نمطان من التفكير والتصور

وكانت نتيجة المعركة التي خاضها الحسين عليه السلام ضد يزيد، تمثل في أذهان الذين لا يملكون وعياً إسلامياً وتصوراً إسلامياً صحيحاً عن الجهاد والنصر والهزيمة، هزيمة منهكة للحسين عليه السلام أمام القوة الأموية الهائلة، إلا أنها في أذهان الذين يملكون فهماً إسلامياً صحيحاً وشمولياً، تمثل هزيمة مطلقة ونهائية ليزيد ولكل الطواغيت من بعده.. فقد استطاع الحسين عليه السلام كشف زيف الادعاءات التي قامت على أساسها دولة الظلم الأموية وزيف المزاعم التي أطلقتها لتبرير وجودها وبقائها واحتواء كل تحرك محتمل أو واقع ضدها.

إن تعمد تجنب معالجة المسألة على أساس إسلامي صحيح هو السبب وراء

أخطاء العديد من المفكرين والكتاب، ووقوفهم إلى جانب النظام الأموي وتبني أطروحاته الغريبة عن الإسلام، فهم يناقشون المسألة ويعرضونها وكأنها مسألة صراع بين جماعتين متنافستين تقفان على نفس أرضية المواجهة بعيداً عن الإسلام برمته، كما يناقشونها وكأنها مسألة صراع بين جماعة ثورية عاتية ذات انتماء غريب ضد دولة أثبتت وجودها وقدرتها على سياسة الناس وحكمهم، وكأن الإمام الحسين استفزهم هم أنفسهم شخصياً حينما رفض قبول الأمر الواقع المتردي في ظل تلك الدولة، وكانوا يأملون أن تحسّن تلك الدولة سلوكها وأن تعمد إلى اتخاذ جانب العدالة التي يريدها الإسلام. لو لم (يعكّر) الحسين عليه السلام صفو هدوئها وأمنها واستقرارها، ولم نلمس من العديدين رغبة بإدانة يزيد وأركان حكمه على الكثير من الجرائم التي ارتكبها ضد المسلمين، وذهبوا إلى حد تحميل المسلمين الذين ثاروا عليه مسؤولية شق صفوف الأمة ووحدتها وتعكير أمنها وهدوئها.

فهم الثورة الحسينية يقتضي فهم الإسلام كله

إن فهم ثورة الحسين عليه السلام تقتضي فهماً واعياً للإسلام كله، ولكل تاريخه منذ بدئه، لا فهم جانب واحد منه أو حدث مقطوع مجزأ عن جوانبه الأخرى، فهماً مبنياً على توضيح الحقائق وكشف الأباطيل التي ألحقت بالإسلام ودسّت به على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وكشف التأويلات والتفسيرات المضللة للقرآن الكريم، وحينذاك سندرك حقيقة النصر الذي تحدث عنه الحسين عليه السلام وحققه، ولا نزال نلمح آثاره ونتائجه واضحة ملموسة إلى يومنا هذا إذ أثبت حقيقة انتمائه للإسلام عندما قدم دمه في سبيله وفي سبيله وحده.

حينئذ سنفهم مغزى هذه الثورة العظيمة، وندرك أبعادها الكبيرة، وإنها كانت امتداداً لوقائع المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله وفي مقدمتها واقعة بدر التي نصر الله فيها المسلمين على مشركي قريش وكفارها وعتاتها وطغاتها، بقوتهم وبقوى غير منظورة من الملائكة.

إن الذين شاركوا بمعركة بدر وعدوا بنصر مادي ملموس وسريع على العدو أما الذين شاركوا بمعركة الطف فقد وعدوا بشهادة سريعة على يد العدو وكانوا يبشرون بمستقبل عظيم لا يقل عن مستقبل أولئك الذين استشهدوا في بدر... ومن هنا، وإذ أنهم أدركوا حقيقة المعركة التي كانوا يخوضونها إلى جانب الحسين عليه السلام وإن مصير

الإسلام نفسه كان متعلقاً ومتوقفاً على موقفهم فيها، وإنهم تيقنوا أنهم سيقدمون دماءهم فيها كما أنبأهم الحسين عليه السلام نفسه فإن إقدامهم على خوضها دون تردد أو خوف جعل منهم صفوة تتفوق حتى على تلك الصفوة البدرية الأولى. . إذ أن النصر في المعركة الأولى كان واضحاً وكان الرسول ﷺ يبشر أصحابه بأنهم سيتغلبون على أعدائهم ومن سيستشهد منهم سيدخل الجنة دون حساب. . أما في هذه المعركة فكان النصر يتوقف على تقديم دمائهم كلها، ولا بد من ذلك لكي يتحقق بشكل تام وعندها ستدرك الأمة أن في هذا الدين ما يستحق أن يستشهد الإنسان من أجله، وأن عليها في نهاية المطاف أن تلحق بذلك الركب القليل الذي ضمته قافلة الحسين عليه السلام.

ربما كان المنتصر الحقيقي في نهاية المطاف هو الشهيد في المعركة وربما كان هو المغلوب والمظلوم والسجين والمضطهد والمبعد والهارب، ما دام يسجل موقفاً رافضاً غير مستجيب ولا مستسلم لدولة الظلم والانحراف، إذ أنه ما كان ليصير كذلك شهيداً ومظلوماً وسجيناً ومضطهداً ومبعداً وهارباً لو أنه استجاب للظالمين وواكب مسيرتهم وعزز مواقع ظلمهم وعمل على تقويتها.

إن إعلان موقف الرفض والثورة وتحمل ما تحمله الإمام الحسين وأصحابه عليه السلام في سبيل ذلك، يسجل أثراً قوياً في أذهان الكثيرين من أبناء الأمة، ممن يستعيدون هذه الواقعة الكبيرة أو يدرسونها أو يقرأون عنها، فيردون أنها لم تكن بغير سبب، وإن السبب الرئيسي، بل الوحيد لها، هو الحرص على الإسلام والحفاظ عليه من العبث أو الضياع والاندثار، ورفض أي قوة تحاول أن تكون بديلة له أو شريكة للقوة الإلهية المقتدرة، مهما كان الشكل الذي تحاول أن تتخذه.

لقد عززت ثورة الحسين بوجه الانحراف الأموي، الرصيد الضخم للإسلام الذي كاد أن يضيع ويسلب وينتهب من قبل الأمويين بشكل سافر مكشوف بعد أن كان يتم بشكل مبطن مستور، وكان وقوف الحسين عليه السلام إلى جانب الإسلام تلك الوقفة الثابتة غير المساومة أو المترددة، حجر عثرة في طريق العجلة الأموية التي بدت في ذلك الحين قوية وكاسحة، وقد حفّز الكثيرين ممن جاءوا بعد ذلك لينظروا إلى الإسلام ويفهموه بالمنظار الذي أراد رسول الله ﷺ أن ينظروا به إليه، وكان الإسفين الذي دق في النعش الأموي الذي بدأ منذ ذلك الحين يُعدّ لاستقبال الحبة الميتة لدولة الظلم الساقطة عملياً وواقعياً وإن بدت مزدهرة قوية في الظاهر لأكثر من نصف قرن بعد تلك المأساة الأليمة.

الإسلام: حل جميع التناقضات

لقد عمل الإسلام ـ خلال مسيرته لتنظيم الحياة وفق منظوره وأسسه ـ أن يحل كل التناقضات الطبقية والاجتماعية وتلك القائمة على سوء توزيع الثروة واحتكارها من قبل فئة محدودة من أبناء المجتمع، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد في عهد رسول الله ﷺ، وأرسى قواعد جديدة لتنظيم أمور الدولة المالية بشكل تفصيلي دقيق، مما كان سيعمل بالتالي إلى محو الفروق الاجتماعية والاقتصادية بالقدر الذي يبرز فيه الفرد كطاقة متميزة مبدعة تحتل مكانة خاصة بجهودها ومثابرتها وقابلياتها.

جرثومة الترف أفسدت كل شيء

وكانت قيم العمل هي القيم التي حاول الإسلام أن تكون سائدة ومتعارفة ومألوفة ومتقبلة، حتى من أولئك الذين يحتلون مركزاً مرموقاً بين المسلمين، وحتى الذين يحتلون مراكز القيادة الإسلامية أنفسهم.

وقد كانت المسيرة الذاتية لرسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والعديد من الصحابة في صدد الإسلام تؤكد هذا الاتجاه الذي رعاه الإسلام وأراد أن يجعل منه أسلوباً عاماً متعارفاً لا يأنف منه أي فرد مهما علت مكانته الاجتماعية.

غير أن الانحرافات التي وقعت، واتسعت في عهد عثمان، ثم تجاوزت الاتجاه الإسلامي نفسه بشكل حاد ومعلن في عهد معاوية مهد لظهور صراع وتناقض اجتماعي وطبقي جديد، كان سيتسع حتماً فيما بعد وفي ظل الميوعة واللامبالاة التي تميز بها يزيد، وكان سيمهد لوجود طبقة ثرية مترفة واسعة الامتيازات ـ وهي قد ظهرت فعلًا، وكان من شأن ذلك أن يمهد لوجود صراعات وتناقضات اجتماعية أوسع في ظل وجود الثروة والسلطة بيد فئة قليلة مترفة مقربة من رأس الدولة.

ولم تكن الأموال الطائلة التي جاءت أغلبها نتيجة الفتوحات الواسعة ـ التي لم تكن دوافعها هي نفس الدوافع الأولى من قبل ـ تستخدم على الأغلب، إلا لتوطيد وتقوية سلطان الدولة، وهو سلطان شخصي بحت تستأثر به عائلة واحدة أرادت أن يكون ذلك إلى الأبد وليس إلى أجل محدد، وفيما يموت الخليفة الحالي ويختار المسلمون أحدهم للخلافة بطريقة ما حتى وإن كانت إحدى الطرق المتعارفة قبل مجيء معاوية.

كان على عموم المسلمين أن يعملوا ويكدوا ويحاربوا ويموتوا ويفتحوا

البلدان، لكي يكون حاصل ذلك في جيب (الخليفة) وجيوب الفئة المقرَّبة منه وفي جيوب حاشيته ومن تريد الدولة شراءهم وشراء ولائهم ونفوذهم وأبناء قبائلهم.

وكان من شأن تسرب المكاسب التي حصل عليها المسلمون والتي توقعوا أن يحصلوا عليها في ظل حكم إسلامي عادل ونظيف، أن يفقد عموم الناس ثقتهم حتى بدينهم وقدرته على تحقيق المساواة والعدالة، وهم يرونه يدار ويفسر ويعد إعداداً خاصة ليبدو وكأنه يكرس لمصلحة الفئة الحاكمة المتسلطة وأعوانها لا غير، والتي يعلمون أنها متسلطة وغير شرعية، وإنهم استسلموا لها بفعل الظروف والحوادث التي ذكرناها.

كانوا يرون أن المكتسبات التي نالوها في عهد الرسول صلى الله عليه وآله قد أوشكت أن تفلت من بين أيديهم، بل هي قد أفلتت فعلًا، ولم تكن تلك المكتسبات اجتماعية تتعلق بمسائل الحرية والعبادة وغيرها، وإنما هي مكتسبات مادية أوشكت الأمة كلها أن تحصل عليها، فلا تستأثر بها فئة معينة فقط دون عموم أبنائها، والذي شاهدته الأمة ولمسته غير ما طمحت إليه وتمنته وأوشكت أن تناله في ظروف صحيحة وعدل قائم على أساس القرآن في ظل رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

الطبقة الثرية: استعداد منذ البداية لمواجهة عدالة أمير المؤمنين عليه السلام

وقد قلنا في أحد المباحث إن الشدة والعدالة التي آلى أمير المؤمنين عليه السلام أن يأخذ بها نفسه، جعلنا من الطبقة الطفيلية الثرية والمتكونة حديثاً، تقاد إلى أقصى حد وتقف بشراسة للدفاع عن مصالحها، وقد آثرت الانضمام إلى جبهة معاوية الذي بدا لها بوضوح أنه هو الذي سيشبع رغباتها ونهمها للمال والثروة، وقد فعل معاوية ذلك فعلًا، وأشبع رغباتها وطموحها إلى الجاه والمال والسلطة، وسارت خلفه فعلًا ودعمت مواقفه ضد أمير المؤمنين عليه السلام وتغاضت عن كل خروقاته وخروجه المتعمد عن العديد من أحكام الإسلام، فقد رأت أنها إذا ما انضمت إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام فإنها لن تكون ثرية ومنعمة بل إنها ستفتقر وتساوي الآخرين من أبناء الأمة وسيلحقها الهوان والمذلة في ظل عدله واستقامته، لأن تطلعها غير المشروع للمال يزين لها أنه هو الطريق الوحيد للسعادة والعز والرفعة.

كانت الجبهة التي أعلنت الحرب على الإمام عليه السلام هي جبهة معاوية، وقد قامت بذلك تحت ذرائع وحجج مختلفة، وقد حاولت أن تضفي على حججها تلك

وذرائعها طابعاً شرعياً مستمداً من الإسلام ذاته؛ لأن ذلك هو وحده الكفيل للتأثير على الأمة المظلومة وتضليلها، فكان كل من يريد الخروج على أمير المؤمنين عليه السلام من الأحزاب والقوى والأفراد، يلجأ إلى الجبهة الأموية التي أعلنت عداءها المكشوف ضده وشنت عليه الحرب منذ اليوم الأول لاستلامه القيادة الفعلية للدولة، وأخذت تكيد له حتى تمكنت بالتالي من اغتياله واختراق سياج الجبهة المضادة لها بعد اختفائه من الساحة...

قائد الأمة الحقيقي موجود دائماً

غير أن اختفاء أمير المؤمنين عليه السلام من الساحة، لم يكن من شأنه أن يخلي الأمة من مسؤولياتها، وكذلك اختفاء الإمام الحسن عليه السلام بعد ذلك؛ كان عليها أن تسير خلف قادتها الحقيقيين، بعد أن تعرفت على مواصفاتهم ولياقتهم الفريدة لهذه المهمة.

وإذ أنها قد فعلت العكس، وسارت خلف أعداء هؤلاء القادة الحقيقيين، فإنها تكون قد اشتركت بأكبر مؤامرة حيكت ضد الإسلام.

لقد كانت المحنة الحقيقية التي مرت بها الأمة، تتمثل لا بمجرد استسلامها ليزيد، وإنما مشاركتها بالجريمة التي اقترفها، وكانت هي الأداة المباشرة للجريمة.

وقد يبدو الأمر مربكاً للبعض ممن يتناولون حوادث التاريخ بعيداً عن مسبباتها وخلفياتها، وقد يبدو لهم أن الأمة كلها كانت تتعرض لحالة عبث غير مسؤولة من قيادة يفترض أنها مسؤولة وملتزمة، فإن هذا الإمام الذي سار لينقذ الأمة من أخطاء وانحرافات سابقة وحالية، قد تعرض لعدوان هذه الأمة نفسها، فقد ارتكبت في حقه خطأً لا يغتفر، حينما حملت عليه وقتلته تلك القتلة الشنيعة ووقفت منه ذلك الموقف المشين، ومن لم يشترك من أبنائها في قتله، وقف موقف المتفرج الذي يراقب الأحداث من خارج حلبة الصراع وكأن الأمر لا يعنيه، وكأنه خارج الحلبة فعلاً، بعيداً عن الصراع، وكأن الأمر برمته بدا وكأنه لا يعني هذه الأمة كلها مباشرة، وكأن الإمام الحسين عليه السلام كان هو المعنيّ الوحيد والمستهدف الوحيد بالظلم والأذى، مع أن إشارة بسيطة منه بالموافقة على مبايعة يزيد، كانت تكفيه لكي يحصل على مكاسب كبيرة وهائلة، قد تكون ولاية عهد يزيد نفسه وقد تكون مقاسمته ملكه وقد تكون ملكاً أو ولاية كبيرة أخرى. وكان يزيد سيطير من الفرح لو فعل الحسين عليه السلام ذلك وكان

سيعطيه كل ما يريد. فإقرار الحسين حكم يزيد ومشاركته إياه فيه سيعطي المبرر الشرعي لوجود الدولة الأموية وسيسقط آخر الحصون لكل جهة رافضة أخرى لا تريد هذه الدولة وتعاديها، وسيصرخ كل فرد من أعوانها: ما شأن من يعادينا؟ ماذا يريد منا؟ ألسنا حكومة شرعية أقرها وباركها وسار في ركابها الحسين نفسه؟

ما كان سيحدث لو أن الحسين بايع يزيداً؟

كان ذلك يعني أن الحسين عليه السلام إذا ما فعل ذلك فإنه سيجعل نفسه في صف الطبقة المستغلة التي تقود دولة الظلم الأموية وتستأثر بكل الخيرات دون عموم أبناء الأمة المظلومة المضطهدة المقهورة، وكان سيعطيها الشرعية التي تطلبها لتعزيز مكانتها وتثبيت وجودها وهو أمر لم يكن الحسين يفكر به إطلاقاً بحكم موقعه ومركزه ومسؤوليته، وما نحسب أن أحداً من المسلمين يعتقد أن الحسين يمكن أن يفكر بذلك، فكيف يمكن أن يقدم عليه..

لقد آثر أن يقوم بما لم يقم به أحد غيره، لأنه لم يكن مثل الآخرين، وكان وعيه وشعوره بالمسؤولية استثنائياً، لم يكن يقل عن وعي وشعور من سبقوه ممن حملوا لواء الإمامة مكملين دور الرسول القائد صلى الله عليه وآله بين أبناء الأمة. كانت معرفته بالإسلام ويقينه به أكبر من أي شيء آخر يمكن أن يجعله يستجيب لدعوة يزيد لمبايعته ووضع يده في يده.

لم يكن أحد يتصور أو يحتمل أن يقر الحسين عليه السلام الانحراف أو يهادن الدولة الأموية المنحرفة، وكان أبناؤها كلهم ينظرون إليه كرافض وعدو لهذه الدولة وكشخص غير قابل للمساومة والشراء.

وقد حاولت فئات كبيرة منها في فترات سابقة ـ أيام معاوية ـ أن تسير خلف قيادته لانتشالها من وهدة الحكم الأموي الجائر، غير أنه لم يوافق على ذلك لعدم وجود الظروف الموضوعية المناسبة التي تمكنه من القيام بهذه الثورة وضمان نجاحها وتأثيرها في ذلك الوقت الذي كان معاوية يحاول أن يظهر فيه بالشكل الذي ظهر به من سبقوه وكان يحاول التمسك ببعض المظاهر الخارجية التي تبديه وكأنه أحد المنتمين للإسلام حقاً وأحد المتمسكين بتعاليمه وتشريعاته، ما دام ذلك الشكل هو المحبب والمرغوب من قبل أبناء الأمة.

أما بعد هلاك معاوية، فقد رأينا أن الحسين عليه السلام لم يكن أمامه سوى سبيل

واحد، وقد رفض يزيد أيام أبيه، وهو رفضه وقد تسلم القيادة الفعلية للمسلمين وأصبح متخلفاً عليهم، وهو أمر حسب له معاوية ألف حساب وأعد يزيد لمواجهته، وقد كان يقض مضاجع أركان الحكم الأموي ويجعلهم قلقين، فربما اتسع الفتق الذي بدأ يلوح لهم وربما يجعلهم أمام مشاكل حقيقية لا يقوون على مواجهتها وحلها، فيزيد ليس كمعاوية في (دهائه) وسياسته ومهارته وأركان حكمه ليسوا كعمرو بن العاص والمغيرة وزياد وأضرابهم.

كانت مبايعة الحسين ليزيد تعني تحمله مسؤولية استسلام كل فرد من أفراد هذه الأمة المشلولة الخائفة المنهزمة، ومن هنا جاء شعور أنصاره الذين علموا صدق التوجه الحقيقي وراء رفضه الحكم الأموي وثورته عليه، معبرين عن الوفاء العميق بل الود الشخصي والولاء الخاص له عليه السلام، مؤكدين لكل فرد من أبناء هذه الأمة ما ينبغي عليه الشعور تجاهه، فكل فرد ينبغي أن يعبر عن إحساسه الشخصي الخاص ولمسته الشخصية الخاصة تجاه الحسين عليه السلام الذي بدا أنه كان يفدي بحياته وراحته وأمن عائلته جميع أبناء هذه الأمة على امتداد العصور.

إن كل من يعرف الدوافع الحقيقية لهذه الثورة يشعر بالامتنان تجاه الحسين، وإن في عنقه ديناً شخصياً له.

لماذا الشعور بالحزن والأسف؟

ومن هنا كان الحزن والمشاعر العاطفية الجياشة من العديدين من أبناء الأمة لذلك المصاب المحزن في مذبحة كربلاء، عاملًا من عوامل التعبير عن الشعور الحقيقي والفهم الواعي لما قدمه الحسين عليه السلام، مما يمكن أن يوظف ويستثمر لا لمجرد نقله إلى الآخرين هكذا دون سبب ولمجرد الرغبة في ذلك، وإنما لتوضيح الموقف الذي وقفه والأذى الذي تعرض له رغم موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين، لكي يفكر الجميع في المغزى الحقيقي وراء وقوفه ذلك الموقف الثابت، ولجعل الآخرين يعيدون النظر في مواقفهم تجاه الإسلام على ضوء ما فعله الحسين عليه السلام وأصحابه عليهم السلام.

إن موقف الحسين عليه السلام في عاشوراء فرصة مناسبة لكل فرد من أبناء الأمة الإسلامية دون استثناء، لكي يستعرض على ضوئه مواقفه هو تجاه ما يعيشه ويشهده ويرى مدى ابتعادها أو تطابقها مع الخط الإسلامي السليم حتى وإن كان يعيش في ظل

دولة ظلم جديدة، ليرى هل أنه قادر على الاقتراب من ذلك الموقف والتفاعل معه للحد الذي يكون فيه مستعداً للوقوف مع الحسين كأحد أصحابه، وإن طال المدى وتباعدت الأيام.

ولا يكفي الشعور المجرد بالتقصير لجعل الأمة تغير مواقفها الخاطئة، أو يقدم أي فرد منها على تغيير موقفه الخاطىء، ما لم يستتبع هذا الشعور تصميم مخلص وإرادة حازمة للتغيير. ثار الحسين من أجل الأمة كلها ومن أجل أن يطبق الإسلام كله.

ولم ينهض ثأراً لمن قتل من أهله وآبائه، أو لمن جعلوا من أنفسهم شيعة لجده ﷺ وأبيه وله هو خاصة، بل ثار من أجل خلاص كل المسلمين من جعل الانحراف الذي أوشك أن يلتف حول رقابهم، وحتى لأجل أولئك الذين دفعوا للاشتراك بقتله.

فأي شعور بالحزن والأسى كان ينتابه، وهو يرى هذه الأمة تسلخ عن دينها وتبعد عنه بفعل تدبير منظم دؤوب تقوم عليه المؤسسة الحاكمة لدولة الظلم التي تدعي الانتساب للإسلام والقيمومة على المسلمين.

كيف تبرر الأمة إقدامها على قتل ابن نبيِّها!

كان أمراً غير مفهوم بنظر من لا ينتسب للإسلام، أن تقدم الأمة المسلمة على قتل ابن بنت نبيها والاعتداء عليه، فكيف حصل وإن أصبح ذلك أمراً مقبولاً من قبل أبناء هذه الأمة المسلمة نفسها، وتسكت عن تلك الجريمة التي وقعت بين ظهرانيها...؟ وكيف حصل أنها تعترف بكونها مدينةً لجسده ﷺ بإنقاذها من تخلفها وجاهليتها، ثم تقدم على قتل ابنه عليه السلام بحجج ملفقة من حاكم متسلط عليها تعرفه حق المعرفة، وتعرف أنه غير مؤهل حتى للحفاظ على قطيع صغير من الأنعام... ذكر (عن أبي لهيعة عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، قال: لقيني رأس الجالوت، فقال: والله، إن بيني وبين داوود لسبعين أباً، وإن اليهود تلقاني فتعظمني، وأنتم ليس بين ابن نبيكم وبينه إلا أب واحد قتلتم ولده..)[1].

---

(١) سير الأئمة عليهم السلام ـ السيد محسن الأمين ٣/ ١٥٣.

وقال راهب لمن حملوا رأس الحسين عليه السلام ليزيد: (تباً لكم، والله، لو كان لعيسى بن مريم ابن لحملناه على أحداقنا..)[1].

لقد حصل الذي ندمت عليه الأمة بعد ذلك، وتمنت لو أنها لم تشهده ولم تشترك به أو توافق عليه أو تسكت عنه، وتمنت لو أن الأيام دارت دورتها المعاكسة، وعادت إلى الزمن الذي سبق تلك الواقعة، إذاً لما كانت قد أقدمت على ما أقدمت عليه من فعل مشين ولكانت قد وقفت إلى جانب الحسين عليه السلام.

غلطة أم كارثة

إن هذه الغلطة الكبيرة التي ارتكبتها الأمة بمشاركتها وسكوتها عن الجريمة التي ارتكبت بحق إمامها وقائدها الحقيقي أتاحت لها فرصة التبصر والمراجعة قبل الإقدام على مواقف مماثلة، وأتاحت للعديدين من أبنائها فرصة التراجع عن مواقفهم الضعيفة المساومة وانتهاج خط الإمام الحسين المتصدي لدولة الظلم أينما كانت ومهما كانت قوتها، وجعلتهم متحفزين متربصين لكل الظواهر أو البوادر التي تسبق ظهور هذه الدولة وظهور طغاة جدد يتسلطون على مقدارات الأمة ومكاسبها.

ويمكن القول إن العديد من الثورات التي حدثت بعد ثورة الحسين وفي مقدمتها ثورة المدينة والتوابين في الكوفة، كانت تعبر عن تراجع الأمة عن موقفها الخاطىء وتقبلها للانحراف، واستعدادها لتصحيح المسيرة بمثل الأسلوب الذي لجأ إليه الإمام الحسين عليه السلام، حتى ولو اقتضى الأمر وكان الثمن هو دماء المزيد من المضحين، وقد دفعوه غير مبالين ولا خائفين.

وكان رد الفعل الأول على الثورة هو الاحتجاج على أسلوب قمعها أولاً، ثم الاحتجاج على الظواهر التي اعتادت الأمة رؤيتها من دولة الظلم الأموية.

وكانت محاولة التنصل من تهمة قتل الحسين عليه السلام وأصحابه من قبل يزيد وابن زياد وابن سعد وغيرهم، وقيام المشتركين ومنفذي الجريمة باتهام بعضهم البعض، يمثل استجابة لردود الفعل الغاضبة التي لمسوها من عموم أبناء الأمة، حتى من الناس المقربين منهم والمحسوبين عليهم منذ اللحظات الأولى لارتكاب جريمتهم المنكرة.

---

(١) البحار ٤٥/ ١٨٥.

لا بد من الجد والموضوعية

إن أمراً مهماً ـ بخصوص هذه الثورة ـ ينبغي على جميع المسلمين القيام به على اختلاف مذاهبهم ومواقفهم المتباينة منها الآن والمبنية دون شك على طبيعة فهمهم لها والمصادر التي تلقوا عنها معلوماتهم، وهو ضرورة تناولها تناولًا جاداً ودراستها دراسة موضوعية غير متميزة مبنية على فهم واضح لظروفها وأهدافها وأطراف الصراع فيها وطبيعتهم.

إن الفترة الزمنية الطويلة التي مرت على ذلك الحدث الجلل، ينبغي أن تجعلنا هادئين بشكل كاف لنتناوله من الزوايا المناسبة الصحيحة التي تتيح لنا فهمه بشكل واضح ندرك معه أن الحسين عليه السلام كان يقف مع عموم جماهير الأمة، حتى مع أولئك حسبوا أنهم سيستفيدون من قتله ويجنون أكبر الأرباح، وأنهم يقومون بإطفاء نار فتنة متوهمة تفرق بين المسلمين. . . !!

كان الحسين عليه السلام يقف مع الأمة كلها على امتداد وجودها وبقائها على هذه الأرض، لا الأمة التي عاصرها وحسب، والتي لم تكن هي ـ من جانبها ـ تقف معه. . كان يدافع عن مكاسبها التي حققتها في ظل الإسلام وفي ظل القيادة الحقيقية لها، ويدافع عن المكاسب المحتملة التي يمكن أن تجنيها في ظل ظرف إسلامي صحيح آخر قد تمر به في وقت لاحق، وقد يعمل أعداؤها التقليديون المتطلعون للسلطة والثروة دائماً على تجريدها منها كما كانت تفعل زمن حدوث الثورة نفسها، كما كان يريد تجنيبها شر الوقوع بين براثن وأنياب هؤلاء الأعداء الذين لا يتورعون عن فعل شيء في سبيل مصالحهم ونزواتهم.

الإسلام طاقة دائمية

فلم يكن الإسلام طاقة مؤقتة قادرة على إنعاش روح الأمة وبث الدفء في جسمها لأمد محدود، وإنما هو طاقة متجددة متصاعدة تمتلك عناصر الديمومة والبقاء والنمو لأمد غير محدود إلى أن تنتهي الحياة، ويرث الله الأرض ومن عليها، كما لم يكن مرهوناً بطبقة أو فئة أو مذهب وإنما جاء بشمولية للناس كافة فقد أرادهم إليه أن يكونوا على طريقه المستقيم الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وآله بعيداً عن عبث العابثين والمزورين والمحرفين.

وكما كان رسول الله صلى الله عليه وآله معنياً بأن يقوم الإسلام بدوره الكامل الواسع على

هذه الأرض دائماً، ويدعو المسلمين للبحث عن المناخ الصحيح الذي يستطيعون التعايش فيه مع الإسلام بشكل واقعي وسليم ليحكموه في حياتهم ويكون هو المصدر الأول لتنظيم هذه الحياة، ورفض التطلعات الأرضية المتدنية، فكذلك كان أوصياؤه عليهم السلام معنيين بنفس الدرجة وبالقدر العالي من المسؤولية نفسه، بسيادة الإسلام على هذه الأرض بعيداً عن عبث الطواغيت والطامعين.

أعداء الإسلام: إستعدوا منذ البداية

ولم يكن ظهور الأعداء الذين يكيدون لهذا الدين أمراً غير متوقع من قبل الرسول ﷺ؛ فهؤلاء الأعداء بدأوا عملهم ونظموا صفوفهم منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها الإسلام وظهر، وكانت البصيرة الواعية التي يتمتع بها رسول الله ﷺ والحس المرهف السليم والعلم الإلهي المتيقن تجعله يلمح دائماً إلى أن الإسلام سيمر بصعوبات جمة، وأنه سيعود غريباً كما بدأ غريباً[(١)]، وأن القادة الذين كان من المفروض أن يكونوا على رأس هذه الأمة ويحترمون ويمجدون كما يحترم ويمجد هو، سيلاقون هم بالذات مصاعب ومتاعب جمة، قد تصل إلى قتلهم وإلحاق أشد الأذى بهم، كما أخبرتنا الروايات الصحيحة عنه ﷺ، ومع ذلك فلم يدعهم إلى أثيار.

مصلحة الأمة أهم من السلامة الشخصية

السلامة الشخصية وتجنب المتاعب التي كان يراها رأي العين بإخبار مؤكد عن الله سبحانه وتعالى، ولم يدعهم إلى التراجع لتجنب المصير الظاهري المؤسف الذي سيؤولون إليه في خضم تصديهم لأعداء الإسلام.

ومع أن ذلك كان يؤلمه ويبكيه أحياناً، إلا أنه كان يرى أنه أمر ضروري، بل إنه الأمر الوحيد الكفيل بجعل هذه الأمة تستيقظ وتتخلى عن القيادات المنحرفة، وتدرك مغزى ذلك الإقدام البطولي على الموت من قبل تلك الصفوة، رغم معرفتها الأكيدة به.

لقد أراد الرسول ﷺ أن تفكر الأمة بكل الوقائع والأحداث الكبار التي قام بها

---

(١) قد يكون لتفسير هذا الحديث الشريف معاني عديدة لسنا بصدد الحديث عنها كلها في هذه الدراسة.

أبطال الإسلام، ابتداء من معركة بدر، وبكل واقعة محتملة قد يتصدى فيها فرد بمفرده أو بفئة قليلة مؤمنة لحكومة ظالمة، كمعركة الطف التي أصبحت في مقدمة معالم التاريخ الإسلامي الكبيرة.

الطف: شاخصة أمام الأمة دائماً

وكما أراد الرسول ﷺ أن تشخص بدر أمام الأمة دائماً، ويشخص أبطالها أمام أنظار أبناء هذه الأمة كنموذج قابل للتكرار، أراد أن تشخص الطف أمام أنظارها كظاهرة أخرى كبيرة، بطلها ابن بطل الإسلام الأول، وأبطالها الآخرون أفراد عاديون من المسلمين، أدركوا مسؤولياتهم وواجباتهم وتقدموا بين يدي الحسين غير مبالين بالقتل والأذى..

وكان نموذج الأبطال الذين اشتركوا مع الإمام الحسين أمراً ممكن التكرار أمام أية حالة ظلم وأمام أية دولة ظالمة على امتداد التاريخ، ولو كانت هذه الدولة تتستر بالأغطية الإسلامية وترفع الشعارات الإسلامية التي رفعتها دولة الظلم الأموية.

وليس من الغريب أن يقوم أحفاد أولئك الأعداء الذين قاوموا رسول الله ﷺ منذ البداية، وتزعموا الحملة الظالمة لحربه واستئصاله والقضاء على دينه، بشن الحرب على آله عليهم السلام وفعل ما لم يستطيعوا فعله معه ﷺ.

ولم يكن خافياً على الأمة تحيز آل أبي سفيان إلى الشرك ووقوفهم في الصف الأول من المعادين للإسلام، ولم يكن خافياً عليها انحناؤهم أمام العاصفة الإسلامية القوية التي أوشكت أن تزلزل بهم الأرض، وتسللهم إلى صفوف المسلمين، ثم احتلالهم مراكز مهمة أدت ـ في ظروف الانحراف إلى أن يستأثروا بالسلطة والملك بشكل تام.

وكان لذلك أسبابه وممهداته التي كانت نابعة عن نظرات فردية خاصة، ربما رأت أن تقريب آل أبي سفيان قد يعمل على تجنيب الأمة شرهم، وأنه يمكن بالمناصب التي منحت لهم كسبهم نهائياً إلى صف الإسلام ومحو كل الآثار السلبية التي قد تبقى في نفوسهم ضده، هذا إذا حاولنا تفسير الأمر هذا التفسير البسيط الذي لا تلوح منه إشارة إلى نيات سيئة خلف هذا التعيين الذي جرَّ على الأمة الويلات طيلة مئات السنين.. مع أننا ينبغي أن نحمّل من عيّن معاوية تبعات قيامه المتعمّد بذلك لأنه ألحق أشد الأذى بالمسلمين، إذ كان معاوية والياً مدللاً، إذا صح التعبير، ولم

يكن يجري عليه ما يجري على غيره من العمال الآخرين حتى في زمن عمر الذي اشتهر بالشدة والصرامة على نفسه وعلى عماله، إلا أنه كان يتراجع أمام تبريرات معاوية وأعذاره التي ذكر لنا التاريخ طرفاً منها.

لماذا تبني الموقف الأموي رغم ذهاب بني أمية!

ولا يزال عدد كبير من المفكرين والكتّاب الإسلاميّين يتبنوّن نفس الموقف الأموي المعادي للحسين وثورته ومن آل البيت عموماً وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام، وقد يكون ذلك إما بدافع التأثر بمفاهيم وأفكار مسبقة، تسلسلت عبر البيئة التي تربوا فيها، أو بتأثير المواقف الرسمية للدول (الإسلامية) التي لا تختلف صيغ العمل فيها عن الصيغة الأموية، وقد تكون صورة منها.

وإذا ما جرت دراسة موضوعية تفهم طبيعة الدوافع الحقيقية لهذه الثورة، فإنّ هؤلاء سيعلمون بلا شك أنهم قد انساقوا وراء خطأ كبير، وإنهم بذلك يجنون على أنفسهم وأمتهم، وإنهم قد أوقعوا أنفسهم بورطة كبيرة، قد يدركون هم آثارها بعد أن يدركها الآخرون، وقد يجيء ذلك بعد وقت متأخر، يتحملون عنده المسؤولية أمام الله وأبناء الأمة بعد أن شاركوا بتمييع القضية بأكملها وعرضها بشكل مشوّه، ومن خلال تصوُّر مسبق مستعار من أناس آخرين كثورة (شيعية) لا علاقة لها بعموم المسلمين، بل لا علاقة لها بالإسلام بتاتاً، بعد أن رسموا للشيعة صوراً مشوَّهة فألصقوا بهم مختلف التهم وعرضوهم بأشكال مختلفة، إقتضت مصالح حكام الانحراف أن تقدم للأمة بذلك الشكل المشوّه لكي ترفض من قبلها.

وإذ أنّ معاوية، الذي رفع السيف بوجه أمير المؤمنين عليه السلام وشنّ أكبر حملة لتشويه أنصار الإسلام الحقيقيين الذين انضموا تحت لوائه، كان هو الذي مهّد لقتل عثمان بجعله يتمارى في الانحراف والخطأ مما جعل النقمة الشعبية تتزايد عليه وجعل الناس تقدم على قتله، ثم بتلكّئه عن نصرته ونجدته، وكان بإمكانه القيام بذلك، فإنه قام أيضاً ـ وهذا ما أراده من قتله ـ بمهمة المطالبة بدمه بعد موته، لأن تلك كانت هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها إيجاد مبرّر (مقنع) لأهل الشام وغيرهم من رؤساء الفتن والأحزاب، للوقوف بوجه أمير المؤمنين عليه السلام، إذ لم يكن دم عثمان ليستدرّ دموعه ويثير أحزانه بأي حال من الأحوال.

مطلع شخص واحد دمّرت مستقبل الأمة إلى الأبد

(وكان الحق على معاوية، لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس، ثم يأتي إلى علي مع غيره من أولياء عثمان فيطالوا بالإقادة ممن قتله. ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي، وآية ذلك أن الأمر استقام له بعد وفاة علي عليه السلام ومصالحة الحسن إياه، فتناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قتلته..)[1].

لقد أدرك معاوية أن السبيل الوحيد الذي يتيح له البقاء على كرسي الحكم بعد عثمان، هو مقتل عثمان، فأية ذريعة يمكن أن يرفعها للوقوف بوجه أمير المؤمنين عليه السلام إذا ما مات عثمان موتاً طبيعياً، وهو شيخ كبير أوشكت سنوات عمره على الانقضاء... وقد رأينا في المبحث الذي تطرّقنا فيه إلى سيرة معاوية أنه كان في مقدمة السّاعين لقتل عثمان، وكان يمهّد الأمور من طرف خفي لذلك ليتسنّى له بعد ذلك رفع شعار المطالبة بدمه، وهو شعار سيلقى لدى المضللين والطامعين والأحزاب صدى مقبولاً، وستجعل منه سبباً لتوهين حكم أمير المؤمنين والخروج عليه.. وهذا ما تم بالضبط.

وقد أدرك الكثيرون من الباحثين المسلمين الجادّين ذلك، وعلموا أن معاوية لم يكن يسعى إلا وراء مصالحه وغاياته وأطماعه الخاصّة، وأنه حاول خلط أوراقه بأوراق من سبقوه من الخلفاء ممن كانوا يلقون قبولاً حسناً لدى جماهير واسعة من المسلمين، ليكون مقبولاً لديهم بدوره، وليظهر بمظهر قوي بمواجهة أمير المؤمنين عليه السلام، وليستطيع أن يدَّعي بعد ذلك أن علياً كان على الكل واجداً وأنه لم يختص معاوية بذلك وحده، فكأنه كان يريد أن يظهر أمام الأمة بمظهر الظلومية ويشعرها بأنه مغبون محسود.

إفتراءات ومزاعم

وقد رد أمير المؤمنين على افتراءاته برسالة لا تدع مجالًا للشك في أمره المريب... (... وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت.. فإن يكن ذلك كذلك، فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك.. «وتلك شكاة ظاهر عنك

---

(١) الفتنة الكبرىٰ ٢/ ٣١.

عارها» ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان، فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه. فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه..)[1].

ومن العجيب أن تلفيقات معاوية وأكاذيبه لا تزال تلقى قبولًا حسناً لدى أناس بإمكانهم أن يقرأوا ويلاحظوا ويتمعَّنوا جيداً فيما يطرح أمامهم لتوفر أدوات البحث والدراسة.. ولا يكونوا بمستوى الرعاع الذين رباهم معاوية وأعدَّهم من قبلُ في الشام، غير أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والنظر، ونظروا بعيون من سبقوهم، ولعل للأسباب التي ذكرناها فيما مضى أثرها في ذلك.

قضية التاريخ الإسلامي: لنبحثها بعيداً عن حدود النظرة الأموية العابثة

إننا إذا ما تجاوزنا حدود النظرة الأموية التي أراد معاوية أن تتبناها الأمة، فإننا قد نستطيع وضع قضية التاريخ الإسلامي برمتها على نار هادئة ونتناول أحداثها بشكل لا يسبّب الضغينة والكراهية التي حاول معاوية زرعها بين صفوف أبناء الأمة ليتسنّى له تنفيذ مخطَّطاته في السيادة والتغلُّب عليها، وحينذاك سندرك الدوافع الحقيقية وراء كشف النظام الأموي ـ الذي لا يزال يتكرر ويظهر بعدة أشكال ـ، وأسباب رفض ذلك النظام والخروج عليه، وستكون تلك الدوافع هي نفسها التي ستحدد الكثير من أنماط أعمالنا وتصرفاتنا ومواقفنا تجاه العديد من دول الظلم الممتدة مع تاريخنا الإسلامي، والكثير من الأمور الراهنة التي تتعلق بحياتنا ووجودنا ومستقبلنا، وقد لا نعود ننظر للأمور نظراتنا اللامبالية إليها، وندرك ما لم ندركه من قبل.

إنَّ فهم ثورة الحسين، وكل معارك الإسلام الأخرى، كان دافعاً للعديدين الذين فهموها فهماً صحيحاً، لكي ينهجوا نهج أولئك الذين شاركوا فيها وكان لهم دور بارز، ويقفوا مواقفهم الواضحة تجاه قضايا الأمة المصيرية.

وهو أمر لا يبدو حكراً على فئة خاصة من أبناء هذه الأمة، بل إنه متاح للجميع إذا ما جعلوا قضية الإسلام قضيتهم الأساسية وبذلوا جهوداً مخلصة لفهمه بعيداً عن تصوّرات أعدائه، حتى أولئك المتغلغلين بين صفوفهم، وعن تخرُّصاتهم وألاعيبهم

(١) نهج البلاغة ٥٥٠.

التي بات معروفاً للجميع أن الغرض منها كان يصب في دائرة مصالحهم وطموحاتهم الشخصية البحتة.

وتظل ثورة الحسين شاخصة كأقدس معركة ضد رموز الشرك والظلم والطغيان، ويظل رجالها ماثلين أمام أنظار أبناء الأمة الإسلامية كلها على امتداد الأزمان كمدافعين حقيقيين عن الإسلام المحمَّدي الصحيح لحفظه من التزوير والانحراف والاندثار، وما على الذين يريدون التغيير والثورة ضد الظلم والتسلط إلا أن يضعوها نصب أعينهم ويستعيدوا أدوارها وفصولها وموقف كل مشارك فيها، ويضعوا أنفسهم مكان أولئك الرجال ليروا هل أنَّ بإمكانهم القيام بما قاموا به، وهل أنهم يمتلكون نفس القوة التي امتلكوها، وهل اندمجوا مع الإسلام ولم ينظروا إلا إليه وأصبح مثلهم الأعلى الوحيد، أم أنّ الرواسب الأولى قد أضيفت إليها رواسب جديدة والتضليل الأموي لا يزال يفعل فعله.

هل هي شجاعة مجردة؟

لقد وصفت مواقف الرجال المشاركين بثورة الحسين عليه السلام بالشجاعة، رغم كل ما قيل فيهم، غير أن الشجاعة المجردة والتظاهر بها، لم تكن هي الدافع الذي مكّنهم من الصمود إلى آخر لحظة من حياتهم ومنازلة أعدائهم الكثيرين وقتل بعضهم وعدم المبالاة بالموت رغم يقينهم أنه نازل بهم بعد لحظات.

فالشجاعة المجرَّدة قد يمتلكها حتى أولئك الذين لا يحدد مسيرتهم غرض نبيل أو هدف سام وقد يتميز بها حتى بعض المتهورين وقطاع الطرق وأولئك الذين لا يحملون قضية عادلة، غير أنها شجاعة مطلقة، لأنها امتزجت بالمثل الأعلى المطلق وكان دافعها الوحيد هو حماية الإسلام من الانحراف والضياع... (سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: الرجل يقاتل حميه، والرجل يقاتل شجاعه، والرجل يقاتل ليرى، فأيها في سبيل الله؟

فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله..)[1].

وكان دافعها الحرص على الأمة كلها وحمايتها من الانحراف، والشعور

(١) رواه الشيخان/ سيد قطب ـ في ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٤٢٧.

بمسؤولية شخصية يتحملها كل فرد من المشاركين بالثورة والمعركة، ويدرك أن عليه دوراً لا بد من القيام به ولا يمكن تأجيله.. ولو كان الظرف عادياً، ولو لم يمر أولئك الرجال بمحنة تغلغل الانحراف بين صفوف أبناء الأمة، وشعورهم بمسؤولية مواجهته بعد أن عجزت الأمة كلها عن ذلك، لربما وجد بعضهم أن عليه أن لا يفرط بقطرة دم واحدة من دمه أو حتى بساعة راحة واحدة، طالما أن الأمر لم يكن يقتضي ذلك.. أما وأنه كان واجباً وضرورياً وأمراً عاجلًا لا يحتمل التأجيل، فكيف يتسنَّى لهم الانتظار، وكيف يتسنَّى لهم أن يتجاهلوا أن مصلحة الأمة كلها وعلى امتداد الأزمان، فوق مصلحتهم الشخصية وراحتهم الشخصية وأن حياتها أهم من حياتهم.

من هم المجاهدون

وهكذا هو الجهاد في الإسلام، يندفع إليه أكثر الناس شعوراً بالمسؤولية وأكثرهم تحسُّساً بوطأة الواقع المر في ظل الظلم والانحراف والجور.. وهذا الشعور بالمسؤولية قد يكون شعوراً بالمسؤولية الخاصة أو العامة، ومن هنا ورد في الحديث الشريف أن (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومَن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[1].

على أن الذي اتفق عليه علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وطوائفهم هو أن أعلى مراتب الشهادة، هي الشهادة في سبيل الله، يقاتل من أجلها المسلم ويقتل، وقد يكون ذلك على أيدي المشركين أو الكافرين، وقد يكون على أيدي الباغين أو المنافقين أو الخارجين عن الإسلام بمختلف الأشكال والحجج.

سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله»[2] وسئل عن أفضل الناس فقال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»[3]

(١) الشهيد في الفقه الاسلامي/د. شوكت عليان الفيصل ١٨٨/٤ صفر ١٤١٣/ ١٩٩٢.

(٢) جهادنا المقدس ـ د. عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر ـ عن الجهاد ـ جلال الدين الفارسي بيروت ١٩٧٨ ص ٥٨.
وفي أصول الكافي ٥٣/٥ فوق كل ذي برٍّ بر حتى يقتل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه بر.

(٣) المصدر السابق.

وقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام قوله عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه، فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك»[1].

وقال الإمام الباقر عليه السلام، إن علي بن الحسين عليه السلام كان يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من قطرة أحب إلى الله عز وجل من قطرة دم في سبيل الله»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من قتل في سبيل الله لم يعرفه الله شيئاً من سيئاته»[3] ويقول أمير المؤمنين عليه السلام حول جهاد أهل البغي والزيغ: «. . . وقتال لأهل الزيغ لا ينفر عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله أو يقتلوا. . »[4].

وحتى إذا ما حاول أحد أن يجعل من معركة بين طائفتين من المسلمين دليلًا على أن كلتاهما من المؤمنين، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[5]. . . (فهذا النص القرآني الكريم يتناول كل قتال بين الفئات المسلمة، وعلى كافة المستويات. . وعليه فالمقتول في مقاومة الباغين كالمقتول في محاربة الكافرين سواء بسواء، وذلك لأن قتل باذلًا نفسه في سبيل الله)[6].

وهنا علينا أن ننظر إلى ما قامت به القيادة الأموية ضد الإسلام واستبعادها إياه عملياً عن الحياة العامة للمسلمين إلا القدر الذي لا يضر بمصالحها وترى أنه يعزّز تلك المصالح وتجاوزها كل معطياته وأحكامه إلى حد الذهاب لتنصيب أبعد الناس عن الإسلام وأقلهم احتراماً له والتزاماً به خليفة للمسلمين وممثلًا لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه قدوة المسلمين ورائدهم ومثلهم الأعلى. .

كيف سيكون البغي إن لم يكن هو هذا البغي الأموي نفسه. . ؟ إن التعدي الأموي لم يكن على فئة أخرى من المسلمين، ولم يكن على الجيل الذي عاصر تلك الفترة المحزنة، وإنما هو على أجيال المسلمين التي تحملت مساوئه وآثاره ولا تزال تعاني منها إلى اليوم.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) و(٣) أصول الكافي ٥/ ٥٣ ـ ٥٤ (الجهاد).
(٤) التهذيب ـ للطوسي ٦/ ١٤٤.
(٥) الحجرات (٩).
(٦) الشهيد في الفقه الإسلامي ص ٩٦.

هل يمكن أن تلحق أطماع فرد واحد أو جماعة قليلة كل هذا الأذى الهائل الذي ألحق بالبشرية! وهل يوازي ما جناه من أرباح ومكاسب هذه الخسائر الجسيمة التي لا تحصى! إنه لأمر غير قابل للتصور ولا نستطيع أن نرى كيف يستطيع هضمه من يدعي الانتماء للإسلام والحرص على مصالح المسلمين. . . !

لم يجرأوا على شجب الثورة فشجبوا الأسلوب

إن بعض أولئك الذين لم يجرأوا صراحة على شجب الثورة لما يعلمونه من خروج يزيد الفاضح عن الإسلام. يأخذون عن الحسين عليه السلام أنه لم يقم بها في الوقت المناسب، ولم يعد لها العدة اللازمة من الرجال والسلاح والمال. . . وفي معرض الحديث عن ذلك قلنا إن الحسين عليه السلام لم يكن بوسعه إلا القيام بما قام به، ما دام قد رفض حكم يزيد ومبايعته، بفعل الظروف المفاجئة التي بدأت بموت معاوية والذي تم على أثره مطالبة الحسين بمبايعة يزيد حالًا، فحاكم المدينة الأموي الذي أبلغه خبر موت معاوية طلب منه مبايعة يزيد على الفور، وربما كان سيسجنه أو يقتله في تلك اللحظة لو لم يكن الحسين مستعداً لذلك ولو لم يأخذ جماعة من أصحابه وأهل بيته إلى محل اللقاء ليستنقذوه إذا ما رأى بادرة خطر محتملة، وكان الأمر كما توقع فعلًا. .

وقد رأينا أن الحسين عليه السلام خرج من المدينة هارباً يترقب ـ إن صح التعبير ـ خوفاً تعرضه للموت هناك إن لم يبايع، وهو لم يرد بالتأكيد أن يبايع، كما رأينا خروجه الملحمي على مرأى ومسمع آلاف الحجاج الذين قدموا مكة ذلك الموسم، لأن الأمر يمكن أن يتكرر هناك كما تكرر في المدينة خصوصاً وأن يزيد أرسل ثلاثين رجلًا لاغتياله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة على حد تعبيره، وإذا ما قتل في المدينة أو مكة فإن الأمر كله يمكن أن يضيع دون أن يستطيع كشف الدوافع الحقيقية من وراء رفض يزيد وعدم مبايعته، ولن يكون لموته ذلك التأثير الذي حصل في كربلاء وجعل الأمة تعيد النظر في موقفها المستسلم والمهاون واللامبالي.

كيف يعبر عن رفضه لو جلس في بيته؟

إنه لم يجلس في بيته ويعلن رفضه وقعوده واعتزاله الحياة العامة ليكون ذلك دون فائدة فيما بعد ففي هذه الحالة قد يسجن في بيته أو يحاصر وقد يقتل بعد حين ويضيع دمه هدراً دون أن يتمكن من إشعار الأمة بالحال الذي آلت إليه تحت وطأة

الحكم الأموي المنحرف وقد أوضحنا سبب رفضه البقاء في مكة، رغم ما كان يرجح له البعض ذلك، ورأينا كيف أنه لم يكن أمامه سوى المسير للعراق رغم المخاطر المحتملة من ذلك أيضاً إلا أنها مخاطر لم تكن غير ذات جدوى.

احتمالان

فهناك أمران كان يحتمل أن يتعرض لهما في مسيره هذا، وهو إما أن يستشهد أو يربح الموقف والمعركة كلها وفي الحالة الأولى فهو يتعرض لما كان محتملًا أن يتعرض له في المدينة أو منكة، غير أنه كان يستطيع هنا أن يعرض قضيته على رؤوس الأشهاد، والأشهاد هنا الأمة كلها، والتي بدأت تراقب هذا الموقف الملتهب، ويستطيع لفت نظرها بدون دمه ودماء أصحابه الأحمر القاني إلى ما لا يمكن أن تنتبه إليه دون هذا الدم ودون هذا الموقف الحاسم.

وإذا ما ربح المعركة عسكرياً وعلى كل المستويات والأبعاد، أو إذا ما خسر على المستوى العسكري وقتل، وقتل معه أصحابه، فهو في الحالتين قد حقق كسباً عظيماً لصالح قضيته، إذ يستطيع وضع عصاه القوية في عجلة الانحراف، ويجعل الأمة تندم وتأسف على استسلامها ومهادنتها دولة الظلم ومواقفها اللامبالية تجاه ما كان يجري من خرق مفضوح لكل قوانين الإسلام وأحكامه من قبل الدولة الجائرة التي ليس لها من الإسلام إلا اسمه فقط، وتعيد النظر بمواقفها وتعمل على تصحيحها منذ اللحظة الأولى التي تنتهي فيها المعركة.

نجاح منقطع النظير

لقد كان نجاح الثورة هائلًا وغير متصور، وكان رد فعل الأمة تجاهها قوياً ومتجدداً، بل إنه بدا ليس مقتصراً على وقت محدود أو على فئة خاصة من المسلمين.

لقد عد الكثيرون من المسلمين الواعين ـ على اختلاف اتجاهاتهم ـ قضية الحسين، قضية الإسلام الأساسية الكبرى بمواجهة أعدائه، وكانت مسيرته الملحمية لوقف الانحراف والانحدار السريع عن خط الإسلام المحمدي الصحيح، تمثل أمامهم دائماً كفعل إرادي حر نابع عن إرادة الإسلام نفسه وعن الشعور العميق بالمسؤولية تجاه هذا الدين، فليس لأحد من المسلمين أن يكون مرهوناً بإرادة دولة ظالمة أو حاكم جائر مستبد، ولعل شهادته أمام الله، إنه لا إله إلا هو وإنه وحده

الخالق والقادر والمالك والمهيمن، وإقراره أن محمداً عبده ورسوله، عقد يعترف به هو كل يوم عدة مرات، ويرتب عليه أن يستسلم لله وحده ويطيعه ويتمسك به ولا يخاف إلا إياه، وإن عليه أن يفي بمتطلبات هذا العقد أمامه مع كل ما يترتب عليه من مسؤوليات وترافقه من مخاطر أو متاعب، واعترافاً منه بالعبودية المطلقة لهذا الخالق الفرد عن وعي وموقف إرادي حر، والذي اشترى منه نفسه وماله. فإن عليه أن يقدم على ما يراه ضرورياً لصالح دينه حتى وإن كان القتل في سبيله. لأن ذلك سيكون قمة الوفاء وستكون محصلته الفوز العظيم بالجنة مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. . . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

لم يعمل الحسين وأصحابه سوى أن استجابوا بإرادة طوعية حرة إلى مسؤوليتهم كمسلمين واعين يحترمون عهودهم والتزاماتهم. وكان ذلك نابعاً عن فهم صحيح للإسلام واستيعاب تام لمعطياته ومبادئه، وفعلوا ما لم تفعله الأمة كلها، وما أرادوا أن تفعله مجتمعةً. وكانوا مطمئنين من النتيجة، ومن وعد الله لهم بالنصر والفوز بالجنة ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾. وبذلك حفظوا الأمة من الاستسلام المستمر والنوم والحذر واللامبالاة والوقوع بين براثن الظالمين، وجعلوها تنتبه إلى كل بادرة قد تؤدي بها إلى انحراف جديد وتتصدى في أحيان عديدة لرموز الانحراف الجديد بنفس القوة التي تصدى بها الإمام الحسين للدولة الأموية الجائرة.

النتائج المباشرة القريبة

وإذا ما أردنا استعراض نتائج الثورة على المدى القريب، أي بعيد وقوعها، سنجد أن نتيجتها المباشرة كانت رد فعل غاضب عمت أقطار العالم الإسلامي، ولم يقتصر الأمر على فئات كانت تعد بالأصل معادية للنظام الأموي، بل إن هذا الغضب بدا حتى داخل هذا البيت نفسه، وحتى من بعض أفراد الجيش الذي قام بالمذبحة، وهذا ما أقلق أركان النظام وجعلهم يخافون نتائج فعلتهم، ويستعدون لمواجهة أخطار

(١) التوبة: ١١١.

محتملة قد تعصف بعرشهم، وقد تصدوا بعد ذلك للثائرين عليهم بنفس العنف الذي تصدوا به للإمام الحسين عليه السلام وحاولوا التنكيل بهم واتباع أقسى الأساليب معهم وخصوصاً في (واقعة الحرة) في المدينة المنورة حيث ألحقوا أذى كبيراً بأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وأباحوا المدينة بشكل وحشي لمدة ثلاثة أيام لجنودهم ومرتزقتهم، مما جعل الأمة تتيقن بعد ذلك من حقيقة ذلك النظام وعدم انتمائه للإسلام.

وإذا ما بدأنا باستعراض تاريخي، نجد أن استنكار تلك الفعلة الشنيعة بدأ منذ أن اتجهت زينب بخطابها إلى ابن سعد بعد مقتل الحسين عليه السلام مباشرة. ثم استمر كعامل مهم في إسقاط الدولة الأموية بعد ذلك على يد العباسيين الذين استغلوا مشاعر الغضب والكراهية لدى الكثيرين من أبناء الأمة، ووظفوها لمصلحتهم لقيام دولة عباسية كانت شعاراتها في البداية علوية.

ومع أن الدولة العباسية قد على انحراف مماثل للانحراف الأموي منذ البداية وكانت أموية في معظم توجهاتها وأعمالها، ولم تكن تلبي مطامح المسلمين الذين حسبوا أنهم قد استراحوا إلى الأبد من النموذج الأموي البائد، إلا أننا نستطيع القول إن وجودها كان نتيجة محتومة للخرق الأموي المعلن للإسلام والخروج المتعمد عليه والذي بدأ بشكل سافر قبيل وفاة معاوية وخلال حكم يزيد واستمروا بعد ذلك إلى أن سقط الحكم وكانت نتيجة لغضب الأمة كلها على ذلك النظام الذي كشف كل أوراقه أمامها، ولم يكن العباسيون لينجحون في توظيف ذلك الغضب لصالحهم لو لم يدّعوا حرصهم على إعادة الأمور إلى نصابها ولو لم يتظاهروا بموالاة آل اليت والرغبة بأخذ ثأرهم من أعدائهم وأعداء الإسلام.

رد الفعل المباشر ــ غضب جماهيري عام

وينبغي أن نفهم أن ردود الفعل الفردية والعامة ـ التي سنكرس لها حيزاً في هذا الفصل ـ لم تكن ردود الفعل الوحيدة التي ظهرت على الساحة، فقد استعرض المؤرخون لنا منها القدر الذي رافق بعض الأحداث العامة المتعلقة بتلك الثورة وما تبعها. فكتبهم التاريخية لم تكرس في الأساس للحديث عن كل ما كان يجري من أمور وأحداث بين أوساط عموم الناس، وإنما كانت معنية بطبقة الملوك والأمراء والحكام وقد كتب معظمها في ظل دول و(خلفاء) لم يكونوا إلى جانب الحسين وآل البيت عليهم السلام عموماً، وحتى الشعارات المرحلية التي رفعها بعضهم لم تكن تشم منها

رائحة الولاء لهم وإنما كانت شعارات كاذبة يستهدفون منها كسب الجماهير الموالية لخط الرسول ﷺ وآل بيته الكرام.

كما أن المؤرخين لم يكونوا معنيين في ظل تلك الظروف بتقصي كل الحالات الفردية التي برزت بعيد هذه الواقعة. غير أن ما كتبوه يكفينا لكي نعلم أن غضبة جماهيرية كادت أن تعصف بالعرش الأموي وتودي به إلى الأبد، وقد بلغت من القوة درجة جعلت يزيد بغروره ولا مبالاته وطيشه، يخاف من آثارها وقد حاول تبرير أعماله وإلقاء تبعتها على ابن زياد الذي حاول بدوره التنصل منها وتحميل يزيد المسؤولية كاملة، كما أن ابن سعد بدوره حاول التملص من المسؤولية، وقد راح الجميع يتبادلون حملة محمومة من الاتهامات في محاولات لتخليص أنفسهم والظهور أمام الأمة بمظهر البريء الذي لم يفعل شيئاً.

أسف أم خوف ــ التنصل من الجريمة

(لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية، فسر بقتلهم أولًا، وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده، ثم لم يلبث إلا قليلًا حتى ندم على قتل الحسين، فكان يقول: وما كان علي لو احتملت الأذى وأنزلته معي في داري، وحكمته فيما يريد، وإن كان علي في ذلك وكف ووهن في سلطاني، حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته! لعن الله ابن مرجانة، فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله ويرجع فلم يفعل، (أو يضع يده في يدي، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عز وجل) فلم يفعل، فأبى ذلك وردّه عليه وقتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغضني البر والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً؛ ما لي ولابن مرجانة، لعنه الله وغضب عليه)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٥ وابن كثير ٨/ ٢٣٥ ويستخدم يزيد هنا طريقة ماكرة لتبرئة نفسه وإلقاء تهمة الجريمة على ابن زياد وحده، ليودد أكاذيب ابن سعد وادعاءه بأن الحسين عليه السلام طلب وضع يده في يد يزيد، ليوحي بذلك بشرعية حكمه وخلافته طالما أن الحسين عليه السلام قبل بمبايعته وحكمه، وقد فندنا في محبث سابق هذه المزاعم التي كان مصدرها الأول عمر بن سعد نفسه، منفّذ جريمة قتل الحسين عليه السلام . . .

وعندما أحضرت الرؤوس برفقة الإمام علي بن الحسين عليه السلام والسبايا، أمام يزيد، توجه هذا بخطابه إلى زين العابدين قائلاً:

(لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة إلا أعطيتها إياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت..)[1]. وهنا يحاول ردُّ الأمر إلى الله، وكأن يزيد كان مسيّراً بإرادة إلهية مباشرة. وهذا مذهب استحدثه معاوية وشجع عليه طالما أن من شأنه تثبيت حكمه ودولته وإخضاع الناس لما زعم أن الله قرره وقدره، وقد أشرنا لذلك في مبحث سابق أيضاً.

أما ابن زياد، وقد أدرك فداحة جرمه فإنه حاول تلافي أوامر مماثلة بغزو مكة صدرت إليه من يزيد والتملص منها، وقد قال لبعض مقربيه: (لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأغزو البيت..)[2].

كما حاول أن يستعيد الرسالة التي أصدر أوامره فيها لابن سعد بقتل الحسين عليه السلام أو أن ينزل على حكمه.. (قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر، أين الكتاب الذي كتبت إليك في قتل الحسين؟

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به. قال: ضاع. قال: والله لتجيئن به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص، كنت قد أديت حقه.

قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسيناً لم يقتل...

فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله)[3].

هل كانت الدوافع الطبيعية للندم، وبعد أن أدرك هؤلاء القتلة فداحة الجريمة التي قاموا بها، هي التي دعتهم إلى التنصل من المسؤولية وإلقاء تبعاتها على بعضهم..؟

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٩.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٥٣.

(٣) الطبري ٣/ ٣٤٢ والبحار ٤٥/ ١١٨.

أم أن الخوف من تبعاتها هو الذي دعاهم لذلك؟

لا شك أن تصريح يزيد قد أكد أن بغض الناس وعداوتهم له بما استعظموه من قتلة الحسين، هو الذي دعاه للتبريء من ابن زياد واستنزال اللعنات عليه، ولم يكن ليفعل ذلك بدافع الكياسة أو الشعور بالذنب، وقد دلت أعماله اللاحقة أن مشاعر كتلك ما كانت لتساوره في أي وقت من الأوقات.

ولا شك أن دوافع بقية القتلة للتبريء من الجريمة لم تكن تختلف عن دوافع يزيد، فقد علموا أنهم مستهدفون لغضبة جماهيرية واسعة قد تنال منهم شخصياً وقد تقف عائقاً في سبيل طموحاتهم، كما حدث بالفعل بعد ذلك، إذ رفضت الكوفة كليهما بعد موت يزيد، كما رفضت الكوفة والبصرة ولاية ابن زياد عليها، إذ استحضر أهلوهما موقفيهما وما فعلاه بالحسين وأصحابه في كربلاء[1]. . . كما استحضروا مواقف ابن زياد السابقة وعسفه وما فعله بهم.

جيش ابن زياد: أول من أدرك فداحة الخطب

وإذا ما استثنينا أولئك المندفعين العابثين، الذين حسبوا أن مستقبلهم وحياتهم مرهونان بنظرة رضا أو بسمة استلطاف من ابن زياد، وقد تحدثنا عن بعضهم في هذه الدراسة، فلا شك أن بقية الجند العائدين من (المعركة)، والذين لا بد أن يكون قد بهرهم الأداء الرائع للحسين وأنصاره وهم يواجهون عشرات الآلاف منهم، والذين بدأوا يرون الآن بوضوح أن الدولة ستتمادى في ظلمها وعدوانها بعد أن قضت بتلك

(١) وقد حاول ابن زياد بعد موت يزيد استرضاء أهل البصرة وتذكيرهم (بأياديه) عليهم في محاولة منه لكسب ودهم وجعلهم يبايعونه، رغم أنه ادعى رفض تلك المبايعة في الظاهر، وقد بايعه من حضر منهم إلا أنهم انصرفوا بعد ذلك وهم يقولون: «لا يظن ابن مرجانة أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله». ثم وثبوا عليه. وكما هو متوقع في تلك الحال من أناس بعيدين عن المبادىء، فان ابن زياد في تلك الخطبة عرّض ثبلب يزيد الى أن منعه الأحنف من ذلك. . . وقد بعث ابن زياد مبعوثاً للكوفة ليأخذ له بيعة أهلها، إلا أنهم رفضوا وقال أحد ممثليها: «الحمد لله الذي أراحنا من ابن سميه، لا ولا كرامة» ثم اقترح بعضهم تأمير عمر بن سعد. . (فجاءت نساء همدان يبكين حسيناً، ورجالهم متقلدوا السيوف، فأطافوا بالمنبر، ولم يؤمر ابن سعد. . وقد وصل خبر ذلك إلى البصرة فقالوا: (أهل الكوفة يخلعونه وأنتم تولونه وتبايعونه! فوثب به الناس) راجع التفاصيل في الطبري ٣/ ٣٦٤ ـ ٣٧٥.

الطريقة البشعة على أكبر شخصية في المسلمين، بل وأملهم الأخير للقضاء على الانحراف أو وقفه.

مشاعر الندم.. بعد الواقعة مباشرة

قد أصبحوا منذ تلك اللحظات التي بدا فيها أعوان تلك الدولة مصممين بناء على تعليمات ابن زياد، على قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وقطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم، نادمين على وقوفهم إلى جانب دولة الظلم الأموية، كما أصبحوا يحملون قدراً من الحقد والكراهية لها بقدر ما حمل العديدون منهم تقديراً خاصاً لأصحاب تلك الأجساد التي ظلت ملقاة على ثرى كربلاء، ولعلهم تمنوا لو أنهم امتلكوا القوة الكافية للوقوف موقفهم.

ولم تأخذ مشاعر الندم تلك وقتاً طويلًا لكي تنتشر بين أوساط عموم أهل الكوفة، لتنفجر بعد قليل ثورة شعبية ضد الأمويين، وبعيد هلاك يزيد مباشرة، ونحسب أن بوادر إعداد وتنظيم لتلك الثورة قد بدأ منذ عودة الجند من (المعركة)، ومنذ أن بدأ الناس يقيمون نتائجها وما أصبحوا يلقونه الآن بعدها.

كانوا يرون خسارتهم الآن واضحة، ولم تقتصر على أولئك الذين شاركوا بقتل الحسين، فقد (قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون)[1]... ومع أن معجزات كتلك لم تكن تفعل فعلها في أمة مخدّرة ميتة، كما لم تكن تفعل فعلها من قبل ببني إسرائيل مع أنها كانت تعد بالمئات وكان نبي الله بينهم يرشدهم ويحذرهم، إلا أن هؤلاء، وقد رأوا أنهم لم يجنوا من وراء اندفاعهم وراء دولة الظلم سوى المزيد من الظلم يقع عليهم هم خاصة، سوى ما لحق بمن شارك بقتل الحسين عليه السلام، أصبحوا يفكرون بشكل جاد بما سوف يلحق بهم إذا ما استمر موقفهم المهادن والموالي للدولة... فالحسين عليه السلام ـ بمنظور من يرى الأمور بظواهرها العادية ـ لم يكن مستهدفاً بالظلم، فقد كانت كلمة واحدة منه تكفي لجعل الدولة تغدق عليه الأموال والمناصب وكل ما يتمناه، غير أنه ثار من أجل هذه الأمة التي استهدفت بالظلم. وها هي تظل

(١) ابن كثير ٨/٢٠٣ وقد تحدثنا في هذه الدراسة عن بعض تلك الحالات التي ذكرها المؤرخون.

وحيدة الآن بدونه تواجه جلاديها وأعدائها الحاكمين. وقد أدركت بشكل واضح أنها هي المستهدفة بالظلم، وقد توافقت عوامل الشعور بالظلم والإحباط والندم لتكون شعوراً دائمياً بأن الأمة المسلحة لا يمكن أن تجني أية مكاسب في ظل دولة الظلم، وأنها ستظل مستهدفة ومستنزفة ما لم تقف وقفة الإمام الحسين وأصحابه، وتشهر سيفها بوجه تلك الدولة.

شبث بن ربعي أول النادمين: «..ضلال يا لك من ضلال..»

ولعل ما تفوَّه به شبث بن ربعي، بعيد قتل مسلم بن عوسجة، وبعد ذلك ـ في إمارة مصعب، يدل على حال أهل الكوفة خاصة وما شعروا به جرَّاء مشاركتهم بالمجزرة.. فعندما (..تنادى أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي.. قال شبث لبعض مَن حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم، إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم، وتذللون أنفسكم لغيركم، تفرحون أن يقتل مثل مسلم بن عوسجة... أفيقتل منكم مثله وتفرحون!)[(١)].

وشبث بن ربعي هذا، الذي كان يقاتل مع أمير المؤمنين عليه السلام في صفين، وله موقف معروف مع معاوية، أجبر ليكون أحد قادة ابن سعد.. وكان قد كتب إلى الحسين عليه السلام يدعوه للقدوم إلى الكوفة ويعده بنصرته، إلا أنه تراجع واستسلم لابن زياد وأصبح في صف الجيش القاتل.

وكلماته هنا كانت موجهة ليسمعها جماعة من أصحابه، ولعله لم يكن يجرؤ على التفوُّه بها علناً أمام أفراد الجيش الآخرين، لما كان يعلمه من عدم تورّع ابن زياد عن البطش والقتل.

وقد قال شبث هذا نفسه، فيما بعد؛ في إمارة مصعب، وقد دالت دولة يزيد وقتل ابن زياد... (لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً، ولا يسددهم لرشد، إلا تعجبون أنّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب، ومع ابنه من بعده، آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عدونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية، وابن سمية الزانية! ضلال، يا لك من ضلال)[(٢)].

أية كلمات أبلغ من هذه يمكن أن تعبر عن ندم الناس على موقفهم من

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢٥.

الحسين، إذ لم يكتفوا بالتخلي عنه وعدم نصرته وذهبوا إلى حد المشاركة بقتله، مع علمهم أنه أخير أهل الأرض، وأن عدوه من نسل زانية يعرفها كل العرب.

ويكاد شعور الندم هذا لا يشمل أهل العراق وأهل الكوفة وحدهم على وجه الخصوص، بل يشمل العديد من المدن الإسلامية المهمة الأخرى كالمدينة ومكة اللتين قامتا بالثورة بوجه يزيد بعد فترة قصيرة، وإن اختلفت بعض دوافع الثوار وأهدافهم كما هو الأمر بالنسبة لابن الزبير مثلًا، وسنفرد لكل ثورة مبحثاً كاملًا بعون الله نتناول فيه خصوصياتها وملابساتها. . .

الشعور بالذنب والتنصل من المسؤولية: «..لا والله، ما أنا قتلته»

كان الشعور بالذنب يراود العديدين ممن شاركوا بقتل الحسين وأصحابه، وأولئك الذين أحجموا عن الانضمام إليه ونصرته، وتكشف لنا محاورة بين أيوب بن مشرح الخيواني الذي عقر بالحر فرسه وبين أشياخ من أهل الكوفة، ما كان يعانيه أيوب من شعور بالذنب والندم على ما اقترفته يداه مع أنه ـ بزعمه ـ لم يفعل شيئاً سوى أن عقر بالحر فرسه، وربما كانت نقاشات وحوارات عديدة كالتي دارت بينه وبينهم قد أخذت تدور في الكوفة وغيرها أثر واقعة الطف لتقويم الموقف ومراجعته، ولم يكن ما دار منها يسير لصالح الذين شاركوا بالجريمة. . بل إن الموقف العام كان يبدو ضد أولئك القتلة، وكان يدينهم بشكل واضح.

حدث نمير بن وعلة (أن أيوب بن مشرح الخيواني كان يقول: أنا والله عقرت بالحر بن يزيد فرسه، حشأته سهماً، فما لبث أن أرعد الفرس واضطرب وكبا، فوثب عنه الحر كأنه ليث والسيف في يده وهو يقول:

إن تعقروا بي فأنا ابن الحر أشجع من ذي لبد هزبر

فما رأيت أحداً قط يفري فريه.

فقال له أشياخ من الحي: أنت قتلته.

قال: لا والله ما أنا قتلته، ولكن قتله غيري، وما أحب أني قتلته.

فقال له أبا الودّاك: ولم؟

قال: إنه كان، زعموا، من الصالحين. . فوالله لئن كان ذلك إثماً لأن ألقى الله بإثم الجراحة والموقف أحب إلي من أن ألقاه بإثم قتل أحد منهم. .

فقال له أبو الودّاك: ما أراك ستلقى الله إلا بأثم قتلهم أجمعين. أرأيت لو أنك رميت ذا فعقرت ذا، ورميت آخر، ووقفت موقفاً، وكررت عليهم، وحرّضت أصحابك، وكثّرت أصحابك، وحُمل عليك فكرهت أن تفر، وفعل آخر من أصحابك كفعلك، وآخر وآخر، كان هذا وأصحابه يقتلون؟ أنتم شركاء كلكم في دمائهم.

فقال له: يا أبا الودّاك إنك لتقنطنا من رحمة الله، إن كنت ولي حسابنا يوم القيامة فلا غفر الله لك إن غفرت لنا.

قال: هو ما أقول لك..)[1].

طاقية الإخفاء: طاعة الخليفة: «فأبلغ عبيد الله أما لقيته بأني مطيع للخليفة سامع

ولم يستطع آخرون تبرير جريمتهم إلا بقولهم إنما كانوا يقومون بما قاموا به لإرضاء الخليفة الذي كانوا يدينون له بالطاعة، أما على أي أساس قامت تلك الطاعة وبنيت، فلم يكن أحد منهم يكلف نفسه عناء السؤال عن ذلك، فالدولة الأموية حبذت مرتزقتها من واضعي الأحاديث ومدَّعي صحبة الرسول ﷺ ليفتروا عليه ويضعوا على لسانه أحاديث تمنع الخروج على (الخليفة) ولو كان فاسقاً، ما دام هو الحاكم الفعلي والمتسلط على رقاب الناس.

وقد أشرنا إلى موقف كعب بن جابر ـ التطوعي ـ حين اندفع دون أن يسأله أحد ذلك للقضاء على برير بن خضير، رغم أن أحد أصحابه حذره من قتله قائلاً: (هذا برير بن خضير الذي كان يقرئنا القرآن في المسجد..

فحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره.. وطعنه حتى ألقاه.. وقد غيب السنان في ظهره، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله..)[2].

---

(١) الطبري ٣/٣٢٦.

(٢) الطبري ٣/٣٢٣ وقد قال في إمارة مصعب في محاولة منه لاقناع نفسه بصحة موقفه ورد الهدوء إليها: (يا رب أنا قد وفينا، فلا تجعلنا يا رب كمن عذر) المصدر السابق. وهي محاولة لا بد أنها بات بالفشل... إذ لم يكن لكعب قضية يدافع عنها إلا ولاؤه المزعوم ليزيد.

وعندما عتبت عليه امرأته النوّار، وعابت عليه فعلته وقالت له: (أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القراء، لقد أتيت عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً...)[1].

لم يجد ما يرد به على عتابها وتقريعها سوى قوله ـ ضمن أبيات من الشعر ـ يبرر بها موقفه...

فأبلغ عبيد الله أما لقيته ... بأني مطيعٌ للخليفة سامع

قتلت بريراً ثم حملت نعمةً ... أبا منقذٍ لما دعا: من يماضع

فهو هنا يعلن أنه قام بما قام به لأنه سامع مطيع للخليفة، ولأن أحد جماعته استغاث بأصحابه، فبرز هو لإغاثته.

إنه يعلن براءته من الحسين وأصحابه، لا لسبب إلا تلك الطاعة العمياء التي أعلن عنها، مع أنه يشيد بهم وبمواقفهم الفريدة التي لم يشهد لها مثيلًا في حياته..

فجردته في عصبة ليس دينهم ... بديني، وإني بابن حرب لقانع

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع

أشد قراعاً بالسيوف لدى الوغى ... إلا كل من يحمي الزمار مقارع)[2]

أما ذلك الذي استغاث بأصحابه لينقذوه من برير الذي أوشك على قتله، رضي بن منقذ العبدي، والذي تطوع بدوره لمنازلة برير دون أن يسأله أحد ذلك، فقد كان الندم الشديد يطبع كل تصرفاته فيما بعد، وقد عبر عن ذلك بأبيات صريحة تشير إلى عمق المأزق الذي وضع نفسه فيه... وندمه على ذلك...

(لو شاء ربي ما شهدت قتالهم ... ولا جعل النعماءَ عندي ابنُ جابر

لقد كان ذاك اليوم عاراً وسبة ... يُعيّره الأبناء بعد المعاشر

فيا ليت أني كنت من قبل قتله ... ويوم حسين كنت في رمسِ قابر)[3]

وقد كانت في الأبيات إشارة واضحة إلى حالة اجتماعية بدأت تظهر بعد واقعة

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٢٣.

الطف، وهي استهجان ما قام به القتلة في ذلك اليوم واستنكار الأبناء والزوجات لذلك، وهي إشارة لعموم المجتمع.

ندم المهزومين.. حتى الذين لم ينصروا الحسين عليه السلام ندموا على فعلتهم. عبيد الله بن الحر مثالاً...

ولم يكن عبيد الله بن الحر الجعفي ممن قاتلوا الحسين عليه السلام إلا أنه امتنع عن نصرته رغم دعوته إياه إلى ذلك، قبل الواقعة، عندما انتهى في مسيره إلى قصر بني مقاتل، وقد حذره الحسين عليه السلام قائلاً: (..فإلا تنصرنا، فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع داعيتنا أحد ثم لا ينصرنا إلا هلك)[1].. وقد تعهد ابن الحر أن لا يكون ذلك أبداً...

وبعد المعركة تفقد عبيد الله ابن زياد إشراف الكوفة الذين كانوا يقفون على أعتابه كسباً لمودته، فلم ير ابن الحر، ثم جاءه بعد أيام، وقد اتهمه ابن زياد بأنه كان في صف عدوه الحسين، إلا أنه أنكر ذلك.

وقد استغل الحر غفلة من ابن زياد فهرب منه ولم تستطع الشرطة اللحاق به، وقد أبلغهم قائلاً: (أبلغوه أني لا آتيه والله طائعاً أبداً.

ثم خرج حتى أتى منزل أحمر بن زياد الطائي، فاجتمع إليه في منزله أصحابه، ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم، فاستغفر لهم هو وأصحابه، ثم مضى ونزل المدائن، وقال في ذلك:

يقول أميرٌ غادر حق غادر:	ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا ندمي إلّا أكون نصرته	ألا كل نفس لا تسدد نادمة
وإني لأني لم أكن من حماته	لذو حسرة ما إن تفارق لازمة
سقى الله أرواح الذين تأزروا	على نصره سقياً من الغيث دائمة
وقفت على أجداثهم ومجالهم	فكاد الحشا ينفضّ والعين ساجمة
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى	سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمة
تآسوا على نصر ابن بنت نبيّهم	بأسيافهم آساد غِيل ضراغمة

(١) نفس المصدر ٣/٣٠٩.

فإن يقتلوا فكل نفس تقية | على الأرض قد أضحت لذلك واجمة
وما إن رأى الراءون أفضل منهم | لدى الموت ساداتٍ وزهراً قماقمة
أتقتلهم ظلماً وترجو ودادنا | فدع خطة ليست لنا بملائمة
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم | فكم ناقم منا عليكم وناقمة
أهمّ مراراً أن أسير بجحفل | إلى فئة زاغت عن الحق ظالمة
فكفوا وإلا ذرتكم بكتائب | أشدّ عليكم من زحوف الديالمة[1]

إن مرارة الندم على ترك نصرة الحسين عليه السلام تمتزج هنا منع الغضب والنقمة على أعدائه الذين قتلوه تلك القتلة الشنيعة. . . ويكشف مديح ابن الحر لأنصار الحسين وإشادته بهم عن رغبة كبيرة للوقوف موقفهم. . غير أنه، وقد فات أوان ذلك، يؤكد عزمه على الوقوف موقفهم إذا ما ضغطت عليه الدولة واستهدفته وبادئته بالقتال. . .

ولا بد أن حالات أخرى تستتبع الندم، حالة الصحوة من الاستسلام والغفلة والخضوع الأعمى لسلطان (الخليفة)، وحالة البحث عن مخرج من مأزق ذلك الاستسلام ومحاولة العودة إلى النهج الطبيعي الذي أراده الإسلام لمناوئة الظالمين وردع الانحراف. ولا بد أن تساؤلاً حقيقياً يستتبع كل ذلك، عن حقيقة ما يدور من أحداث على الساحة وفي كواليس دولة الظلم وورائها.

إن حالة من الشك والحذر والانتباه بدأت تسود أوساط الأمة بخصوص حاكميها الذين لم تر أنهم ينتمون للإسلام حقاً، وإنهم لا يرعون إلا الجانب الذي افتعلوه، ويرون أنه كفيل بحفظ ملكهم وسلطانهم.

مشهد جيش منتصر، أم فلول مهزومة!

كان مشهد الجنود العائدين من كربلاء إلى الكوفة، لا يدل على جيش منتصر يشعر بالنشوة مما قام به من أعمال بطولية بمواجهة عدو أكثر منه حشداً وقوة، بل إنه يكاد يبدو كحشد من عصابات مهزومة خائفة تطاردها قوة أكثر منها عزيمة وبأساً. قيل

(١) الطبري ٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وسير الأئمة السيد محسن الأمين ٣/ ١٧٠.

لهم إن الدولة مستهدفة بالخطر، وأنهم هم خاصة مستهدفون بخطر أشد وأكبر. . . قرعت لهم أجراس الحرب، وحشدوا من كل صوب، وأُخذوا بالإكراه، حتى أُخذ أصحاب المصالح والمهن ولم يسمح لأحد يقدر على حمل السلاح بالبقاء وأرسلوا الجميع للحرب! وقام الأشراف وأعوانهم ومن تطوع لإبداء حماس استثنائي بدفعهم إلى كربلاء، حيث لم يجدوا أمامهم سوى حفنة صغيرة من قرائهم وأماثلهم وفضلائهم يقودهم الحسين في قافلة صغيرة ضمت مجموعة من النساء والأطفال. وجدوا أن هؤلاء قد حوصروا ومنعوا الماء بدعوى أنهم كانوا يستهدفون الدولة بالحرب والأذى.

تحدث معهم الحسين وجماعة من أصحابه، وبينوا لهم الغرض من قدومه إليهم، ورغم الضجيج، ومحاولات شمر وأشباهه لمنعهم من إيصال أصواتهم وشرح مهمتهم، فإن ما سمعوه، وما علموه قبل ذلك كان كافياً ليؤكد لهم أنهم هم الذين كانوا مستهدفين بالظلم والأذى. . وقد جاء الحسين عليه السلام لينصرهم بعد أن وعدوه بالوقوف إلى جانبه لنصرة الإسلام.

وإذ أنهم واجهوه تلك المواجهة الشرسة ولم يستمعوا له، وذهبوا إلى حد التمثيل بجثته وقطع رأسه ورؤوس أصحابه ومنع الماء عن نسائه وأطفاله، بل وقتل بعض أولئك الأطفال أيضاً، فإن المجموعة المبتهجة برفع الرؤوس على أطراف رماحها، ما كانت إلا لتثير مشاعر الأسى والإحباط في بقية أفراد الجيش العائد من المذبحة.

هل كان الأمر يستحق كل هذا لو أنهم كانوا المستهدفين بالأذى الوهمي الذي يمكن أن يلحقه الحسين بهم. .؟ أم أن الدولة تبدي قسوتها وشراستها لمواجهة أكرم وأعز شخص في المسلمين لتبلغهم رسالتها وتقول: هذا مصير كل من يتصدى لنا ويقف بوجوهنا. .؟

كانوا من قبل ضحية للدولة وأطماعها، وعلموا الآن أنهم الآن سيبقون ضحية دائمية لها. . وإنها ستظل تستنزفهم وتعبث بهم إلى الأبد. وقد أعلمهم الحسين بذلك قبل أن يقتلوه بتلك الطريقة البشعة التي لم يكن مسروراً بها حتى قائدهم الجبان المتخاذل عمر بن سعد، رغم أنه هو الذي أصدر أوامره بذلك بناء على تعليمات مشددة تلقاها من سيده ابن زياد الذي كان يخافه أشد الخوف.

مشاهد مروعة لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة

كان الموقف كله يمثل أمام ذاكرتهم التي لا يمكن أن تنساه بسهولة ووقت قصير، مشهد الحسين عليه السلام وهو يسقط من فرسه على الأرض على خده الأيمن بعد أن أثخن بالجراح، ثم دفاعه الباسل عن نفسه أمام العصبة التي تريد سفك دمه، ومشهد زينب وقد هالها حرص القوم على قتله وجدّهم في ذلك، وقولها: (ليت السماء تطابقت على الأرض)[١]. . وقولها لابن سعد: (أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه. . ؟!)[٢]. . ومشهد ابن سعد ودموعه تسيل على خديه ولحيته وقد صرف بوجهه عنها، بعد أن أدرك أن ثمن جريمته كان باهظاً، وإن منّي بملك الري الذي لم يتمتع به على الإطلاق، ومشهد الحسين عليه السلام . . (قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتقي الرمية ويفترض العورة، ويشد عل الخيل، وهو يقول: أعلى قتلي تحاثّون، أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله أني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم. .)[٣].

ومشهد شمر وأصحابه وهم يجهزون عليه وقد (حُمل عليه من كل جانب، فضربت كفه اليسرى. . وضرب على عاتقه)[٤] ثم انصرافهم عنه وهو ينوء ويكبو، ومشهد سنان بن أنس وهو يطعنه بالرمح ويوقعه على الأرض وقد نزل إليه (فذبحه واحتزَّ رأسه. . وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف)[٥]. . .

ثم مشهد سلبه وهو قتيل مقطوع الرأس وسلب عياله وأطفاله وحرق خيمهم، ومشهد قطع بقية الرؤوس في حمام الدم ذاك الذي أعد له ابن زياد ونفذه ابن سعد وشمر وأعوانهما.

عذر دائمي يتجدد دائماً في ظل دول الظلم

هؤلاء جنود قالوا فيما بعد أنهم مغلوبون على أمرهم، وأنهم دفعوا بالقوة لمقاومة الحسين وقتاله، وقد رأينا الطريقة التعسفية التي أخذهم بها ابن زياد وجعلهم ينقلبون على الحسين بعد أن أرسلوا إليه يستنصرونه ويعدون بالوقوف إلى جانبه.

---

(١) - (٥) الطبري ٣/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

أما الأعطيات التي وعدوا بها والسعادة التي قيل لهم أنهم سيغمرون بها والظلم الذي قيل أنه سيرفع عنهم، فبدت لهم أموراً لا وجود لها إلا في الخيال.

عادوا إلى واقعهم المر وقد وقعوا وثيقة استسلامهم بأيديهم حينما وافقوا على أن يكونوا الأداة المباشرة لقتل الحسين وأصحابه. . .

وبالإضافة للجيش العائد الذي كان يبدو مهزوماً ومنكسراً نفسياً، لأنه لم يقم إلا بمجرد مذبحة لم يكن مقتنعاً بجدواها، وقد زادت قناعته بذلك بعدها مباشرة، إذ لم تكن تصرفات ممثلي الدولة وأعوانها إلا لتتسم بالمزيد من الخشونة والابتعاد عن العدالة بل وحتى عن الحد الأدنى القليل من الكياسة واللياقة اللذين تتطلبهما سياسة الحكم مهما كان نوعها.

فقد أسفر الحاكمون عن وجوههم الحقيقية، ولم يعودوا يرون ضرورة للتظاهر بما كان يتظاهرون به قبل ذلك. . . ولنا عند ذاك أن نتصور المشاعر التي بدت تظهر حينذاك. . . نقول: بالإضافة للجيش العائد الذي كان نفسه يشكل صوتاً إعلامياً ضد نظام الحكم لما اطلع عليه وكشفه من الأساليب الغريبة التي لجأ إليها في واقعة الطف. . فإن قافلة زين العابدين وموكب السبايا الذي تشرف عليه زينب، شكل موكباً إعلامياً ذا صوت مسموع ومؤثر ومرصود خلال المسافة الطويلة الممتدة من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى الشام، ثم إلى كربلاء ثنية (كما روت أغلب المصادر) ثم إلى المدينة، المحطة الأخيرة التي بدا فيها ذلك الصوت مؤثراً إلى أبعد غاية، بل لعله الذي رجح قيام المدينة بوجه يزيد بعد ذلك وأجّج غضبها المكبوت، وجعلها تقدم على ما أحجمت عنه في البداية. . عندما لم تقم مع الحسين.

لقد شهدنا موقف زينب عند وصولها الكوفة ومرورها بين الجمع المحتشد الحزين من الرجال والنساء من أهلها، واستمعنا إلى خطبتها فيهم وتأثيرها عليهم، حتى إنهم كانوا (يومئذٍ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. .)[١]. . . وقد قال شاهد العيان الذي رآهم في تلك الحال: (رأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى أخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يبزى)[٢].

(١) و(٢) السيد محسن الأمين/ سيرة أهل البيت ٣/ ١٤٣ والبحار ٤٥/ ١٠٩ ـ ١١٠.

وقد رأينا موقفها أمام ابن زياد الذي بدا متوتر الأعصاب، ولم يكن يعيش حالة النشوة التي كان يتوقعها بعد الجريمة التي قام بها أعوانه. . واستمعنا لحوار زين العابدين معه والذي أزعجه كثيراً حتى إنه أخذ يهدد بقتله آملًا أن يضعف الإمام أو يتخاذل، إلا أنه أجابه بكل جرأة. . (أبالقتل تهددني يا ابن زياد! أما علمت أن القتل لنا عادة، وكرامتنا الشهادة؟)[1] . . . وقد أمر بسجنه ريثما يبعث به إلى يزيد مع الرؤوس والسبايا. .

وقد استمعنا لخطبتها في مجلس يزيد وحوارها إياه. . فرغم محاولاته هو الآخر إقناع نفسه بأنه منتصر، وقد ظهر بمظهر المنتشي بالنصر، إلا أنه بدا وكأنه يحاول التستر على جريمته وإظهارها كقدر مقدر من الله مرة، وكنتيجة حتمية (لمنافسة) الحسين إياه على الملك والسلطان. . . وقد وجد مخرجاً في النهاية بمحاولة إلقاء تبعاتها على ابن زياد ومحاولة استرضاء زين العابدين وزينب وإقناعهم بقبول بعض الذهب والأموال.

ولم يكن دور زينب وأخواتها ونساء بني هاشم والمتعاطفات معهن من نساء المدينة إلا أحد العوامل المهمة بجعل المدينة تغلي ضد يزيد وتثور عليه بعد ذلك ثورتها المعروفة.

دور الإمام زين العابدين بعد الواقعة ـــ في الكوفة

أما دور الإمام زين العابدين، الذي كان يعاني مرضاً مبرحاً جعله لا يستطيع المشاركة في القتال، فقد كان ينسجم مع دور أبيه الحسين المناوىء لدولة الظلم الأموية، وقد أخذ يلعب ذلك الدور منذ تلك المعركة المذبحة واستمر بعد ذلك يؤديه بنمط وأسلوب جديدين يتماشيان مع طبيعة المرحلة التي كان يعيشها ومع طبيعة نظام الحكم الشرس الذي بدأ يكشف عن مخططاته وبرامجه بكل جرأة ووقاحة غير حاسب لجماهير المسلمين أي حساب. . . ألقى خطبة مؤثرة في أهل الكوفة الذين كانوا يتوقعون عودة موكبه بالنساء السبايا والأطفال المرعوبين، الذين استمعوا قبل ذلك لخطبة مؤثرة طويلة من السيدة زينب عليها السلام ثم أخرى قصيرة من أم كلثوم كان الموقف عاصفاً، وكأنه كان معداً لسماع تلك الخطبة، إذ كان الناس يضجون بالبكاء

(١) البحار ٤٥/١١٨.

والنوح والحنين (ونشرت النساء شعورهن ووضعن التراب على رؤوسهن وخمشن وجوههن وضربن خدودهن، ودعون بالويل والثبور، وبكى الرجال، فلم ير باكية وباك أكثر من ذلك اليوم. . .

أومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، فقام قائماً فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي وصلى عليه ثم قال:

أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث، أنا ابن من انتهك حريمه وسلب نعيمه، وانتهب ماله، وسبي عياله. أنا ابن من قتل صبراً، وكفى بذلك فخراً. . .

أيها الناس: ناشدتكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة، وقاتلتموه وخذلتموه! فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله ﷺ إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي. . ؟!)[1].

وكان تساؤله في ذلك الجمع المنكسر الحزين الذي أدرك فداحة الجريمة التي أقدم عليها وشارك فيها، ذا أثر كبير لتصعيد وتائر الحزن والندم، إذ ما عسى أن يجيب على ذلك السؤال المفحم، وعلى رسول الله ﷺ إن سألهم يوم الحساب عن ذلك، وقد أعادت أقواله انهمار الدموع التي لم تكد تجفّ في مآقيهم. . . (فارتفعت أصوات الناس من كل ناحية، ويقول بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون)[2].

بعد أن هيأ الإمام ذلك الجو العاطفي المشحون، وجعل الناس مستعدين لتلبية ما كان يبدو أنه سيطلبه منهم قال لهم مستطرداً: (رحم الله امرءاً قبل نصيحتي، وحفظ وصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة. .)[3].

كانوا في غمرة حزنهم يتوقعون أن يدعوهم الإمام لإعلان الثورة على ابن زياد مجدداً لأخذ ثأر أبيه وأصحابه عليهم السلام. . وقد ارتفعت صيحاتهم: (نحن كلنا يابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك،

---

(١) - (٣) البحار ٤٥/ ١١٢ ـ ١١٣ والسيد محسن الأمين/ سيرة أهل البيت ٣/ ١٤٣/ ١٤٤.

فمرنا بأمرك يرحمك الله، فإنّا حرب لحربك، وسلم لسلمك، لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا..)[1].

فورة عاطفية مؤقتة

وقد علم زين العابدين أنها لم تكن سوى فورة عاطفية، وإن الكوفة إن تجمعت حوله الساعة فإنها ستتفرق عنه بعد لحظات بمثل الطريقة التي تفرقت بها عن مسلم وتخلت عن أبيه عليه السلام ثم أقدمت على حربه وقتاله... وإن تكن قد هاجت لما حل بالحسين عليه السلام... فإن سيف السلطة وسوطها سيعيدانها لواقعها المر في ظل دولة الظلم.

كان يكفي زين العابدين أن يتذكر أهل الكوفة خطأهم على الدوام ويتوبوا عن جريمتهم المنكرة. أما رد الفعل المناسب فقد يأتي في الوقت المناسب أيضاً، إذ قد تقدم الكوفة على الثأر من القتلة المباشرين ومنفذي الجريمة. وتري الجميع أن أولئك الجلادين كانوا من ضحايا دولة الظلم أيضاً إذ ألقت عليهم مسؤولية الجريمة وجعلتهم يواجهون الأمة المسلمة حينما أرادت التعبير عن غضبها والثأر للحسين، وهو ما فعلته بعد ذلك عندما أقدمت على مطاردة أولئك القتلة واستئصالهم.

وقد استأنف خطبته قائلًا: (هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتم إلى آبائي من قبل؟ كلا ورب الراقصات، فإن الجرح لما يندمل، قتل أبي صلوات الله عليه بالأمس، وأهل بيته معه، ولم ينسني ثكل رسول الله وثكل أبي وبني أبي، ووجده بين لهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه يجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا..)[2].

لم يكن يأمل منهم أكثر من ذلك، فقد كانوا يعيشون حالة خدر واستسلام.. وجل ما كان يتمناه هو أن يقوموا بمراجعة أنفسهم وتقويم الوضع كله، فالموقف الحيادي غير المنحاز يجعلهم يدركون أي الجانبين أقرب للحق والصواب ويتيح لهم انتهاج طريقه عن وعي وإرادة وتصميم والعودة إلى منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه الحقيقيين الذين تناسوهم في غمرة الحملة المحمومة التي شنّت عليهم من معاوية وخليفته ومن قريش والأحزاب...

---

(١) و(٢) المصدر السابق.

في مجلس ابن زياد

وكان ابن زياد يتوقع أن يستقبل أناساً أرهقهم الذل والخوف بعد ما حل بذويهم في كربلاء، وربما داخله السرور مسبقاً من احتمال رؤية أناس مرعوبين خائفين يترجون عفوه وصفحه عنهم ويتغاضون عن شتائمه وإهاناته، وإذ أنه ووجه بنفوس عزيزة لم تكن تتقبل الذل والإهانة ولم يفقدها هول المصاب صوابها... وكان بحواره معها، المهان الوحيد في ذلك المجلس، فإنه غضب أشد الغضب من ذلك وأرعد وأبرق وتهدد الإمام زين العابدين بالقتل[1]..

ولا بد أن مخبريه أوصلوا إليه أبناء الاستقبال الحميم الذي استقبل به أهل الكوفة موكب آل الحسين العائد من كربلاء، ولا بد أنه لمح بوادر ثورة شعبية أخرى توشك أن تهب مجدداً... ففي ذلك المجلس نفسه الذي أدانه فيه الإمام زين العابدين وزينب.. (..ورأس الحسين موضوع بين يديه.. وهو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة... فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما. ثم انفضخ الشيخ يبكي، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. فنهض فخرج.

فلما خرج، قال قولًا لو سمعه ابن زياد لقتله.. قال: ملَّكَ عبدٌ عبداً، فاتخذهم تلداً؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مُرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل)[2].

---

(١) وقد أشرنا لتلك المقابلة بالتفصيل عند استعراض موقف زينب بعيد واقعة الصف وكذلك عند استعراض سيرة ابن زياد في هذه الدراسة.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٦ والبحار ٤٥/ ١١٦ ـ ١١٧ وابن كثير ٨/ ١٩٢ وابن الاثير ٣/ ٤٣٤ والإرشاد ٢٢٨ وروي في سيرة الأئمة للسيد محسن الأمين ٣/ ١٤٥ أنه قال له: (يا ابن زياد لأحدثنك حديثاً أغلظ عليك من هذا. رأيت رسول الله ﷺ اقعد حسناً على فخذه اليمنى وحسيناً على فخذه اليسرى ثم وضع يده عل رأسيهما ثم قال: اللهم إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين فكيف كانت وديعة رسول الله ﷺ عندك يا ابن زياد) وراجع حول هذه الإضافة البحار ٤٥/ ١١٨ وقيل أيضاً أن أنس بن مالك قد احتج على ابن زياد عندما كان ينكت بقضيب على أسنان الحسين عليه السلام.

كانت الكوفة تعلن احتجاجها على ابن زياد، إلا أنه احتجاج الضعيف الذي أجبر على المشاركة بالجريمة.. وقد أراد ابن زياد إيقاف كل تحرك ممكن ضده، فدعا لاجتماع عام يتاح له فيه تهديد من يفكر بالخروج عن سلطانه وسلطان سيده يزيد. وقد جاء في خطبة ألقاها في ذلك الاجتماع قوله: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته...)[1].

عبد الله بن عفيف الأزدي: «..تقتل الذرية الطاهرة وتزعم أنك على دين الإسلام»

وكان يحسب أنه يستطيع الاستمرار بشتائمه وبذاءاته لولا أنه فوجيء بعبد الله بن عفيف الأزدي ثم الغامدي، أحد بني والبة وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يشب إليه محتجاً بقوة... (وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل، ثم ينصرف...

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: يابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه.. يابن مرجانة أتقتلون أولاد النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين)[2].

كان موقفاً أفقد ابن زياد صوابه، وأضاع عليه فرصة الاستمرار بالشتائم والأكاذيب... وقد خاض ابن عفيف ملحمة أخرى ضد جنود ابن زياد وأعوانه عندما أمر هذا بقتله، وقد تساءل: من عسى يكون.. فأجاب: (أنا المتكلم يا عدو الله. تقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنهم الرجس، وتزعم أنك على دين الإسلام...

واغوثاه، أين أولاد المهاجرين والأنصار، ينتقمون من طاغيتك اللعين بن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين.

فازداد غضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه وقال: عليَّ به، فبادر إليه الجلاوزة

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٧ والبحار ٤٥/ ١١٩ وابن كثير ٨/ ١٩٣ وابن الأثير ٣/ ٤٣٦ والإرشاد ٢٢٩.
(٢) المصدر السابق.

من كل ناحية ليأخذوه، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمه فخلصوه من أيدي الجلاوزة، وأخرجوه من باب المسجد وانطلقوا به إلى منزله. . .

فقال ابن زياد: اذهبوا إلى هذا الأعمى، أعمى الأزد، أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه، فائتوني به. فانطلقوا، فلما بلغ ذلك الأزد اجتمعوا، واجتمعت معهم قبائل اليمن ليمنعوا صاحبهم. . .

وبلغ ذلك إلى ابن زياد فجمع قبائل مضر وضمّهم إلى محمد بن الأشعث وأمرهم بقتال القوم، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل منهم جماعة من العرب، ووصل أصحاب ابن زياد إلى دار عبد الله بن عفيف، فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: أتاك القوم من حيث تحذر، فقال: لا عليك، ناوليني سيفي. فناولته إياه فجعل يذب عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر   عفيفُ شيخي وابن أم عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر   وبطل، جدلته، مغادر

وجعلت ابنته تقول: يا أبت ليتني كنت رجلًا أخاصم بين يديك اليوم هؤلاء الفجرة، قاتلي العترة البررة.

«..أقسم لو يفسح لي عن بصري»

وجعل القوم يدورون عليه من كل جهة، وهو يذب عن نفسه، فلم يقدر عليه أحد. وكلما جاءوا من جهة قالت: يا أبة قد جاءوك من جهة كذا، حتى تكاثروا عليه وأحاطوا به. فقالت ابنته: واذلاه، يحاط بأبي، وليس له ناصر يستعين به، فجعل يدير سيفه ويقول:

أقسم لو يفسح لي عن بصري   ضاق عليكم موردي ومصدري

فما زالوا به حتى أخذوه، ثم حمل فأدخل على ابن زياد. فلما رآه قال: الحمد لله الذي أخزاك، فقال له عبد الله بن عفيف: يا عدو الله، وبماذا أخزاني الله؟

والله لو فرّج لي عن بصري   ضاق عليك موردي ومصدري

فقال ابن زياد: يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟

فقال: يا عبد بني علاج، يا ابن مرجانة ـ وشتمه ـ ما أنت وعثمان إن أساء أم

أحسن، أصلح أم أفسد، والله تعالى ولي خلقه، يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه..

فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت..

فقال عبد الله ابن عفيف: الحمد لله رب العالمين: أما أني قد كنت أسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمك. وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلما كف بصري يئست من الشهادة، والآن الحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها، وعرفني الإجابة منه في قديم دعائي...

فقال ابن زياد: أضربوا عنقه، فضربت عنقه وصلب في السبخة...)[1].

أجبرت الكوفة على السكوت والاستسلام، وبعث ابن زياد برأس الحسين عليه السلام ورؤوس أصحابه مع السبايا إلى يزيد في الشام بعد أن نصب الرأس الشريف بالكوفة وأمر أن يدار به فيها... وحاول أن ينهي هذا الفصل المحزن بضروب الشراسة وسوء الخلق الذي أبداه هناك، غير أن الكوفة ما نامت إلا لتستيقظ ثانية وتهز سيوفها بوجوه ممثلي دولة الظلم ورموزها.. وكان لها فصل آخر لعبته بعد فترة قصيرة، وأنزلت فيه عقابها بكل من شارك بمذبحة الطف.. وكانت لها فصول أخر أثبتت فيها أنها لم تكن تنتمي لدولة الظلم مهما كان شكلها ووجهها وإن سكتت أحياناً وبدت لمن يراقبها من السطح أنها نائمة هادئة. ولنا حديث آخر عنها في هذا الفصل سنتطرق إليه بعون الله تعالى.

في دمشق.. إحتفالات وأفراح

أما في دمشق، فقد رأينا كيف كانت الاستعدادات جارية، بعد وصول نبأ المذبحة ليزيد، لاستقبال الرؤوس الشريفة وموكب السبايا.

كانت المظاهر الاحتفالية البهيجة تعمّ عاصمة الدولة التي أعد أهلها منذ وقت بعيد لموالاة البيت الأموي الحاكم والنظر بمنظاره لكل شيء ومعاداة أعدائه ومناوئيه، وقد جعلوا الحقد على آل البيت دينهم ومذهبهم. لقد جعلهم معاوية منذ البداية يعتقدون أنهم المستهدفون الرئيسيون بالأذى من قبل كل من يرفع أصبعاً أو صوتاً

(١) البحار عن الملهوف ٤٥/ ١٢٠/ ١٢١ وقد رويت القصة باختصار في الإرشاد ٢٢٩ والطبري ٣/ ٣٣٨.

بوجه النظام وكل من يسعى لتقويم الانحراف أو الخلل الواضح الذي بدأ يظهر بجسم الدولة الإسلامية التي سيطر عليها هو وأعوانه.

ولنا أن نتصور فرحتهم وهم يرون رؤوس أعدائهم ترفع فوق الرماح في نفس القافلة التي ضمت النساء والأطفال المحمولين على الأقتاب والذين يساقون كما تساق سبايا الكفار الذين لا ينتمون للإسلام والذين أشهروا سيوفهم بوجوه المسلمين...

وقد جعلت أبهة السلطان ومظاهر القوة التي أحاط بها نفسه، يزيد يعتقد حقاً أنه يعيش حالة انتصار حقيقية على أعدائه وأن الطريق أصبح ممهداً أمامه لتنفيذ كل ما يحلم بتنفيذه، وأن لا أحد يجرؤ بعد الآن على الوقوف بوجهه وتعطيل مسيرته المنحرفة أو انتقادها.

لم يطق يزيد صبراً لانتظار الموكب ريثما يدخل عليه، وإنما خرج لتلقيه (فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي والحسن والحسين والرؤوس على أسنة الرماح وقد أشرفوا على ثنية العقاب، فلما رآهم أنشد:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت — تلك الرؤوس على ربى جيرون

نعب الغراب فقلت: قل أو لا تقل — فلقد قضيت من الرسول ديوني[1]

«..يوم بيوم بدر» الثأر من رسول الله

لقد حسب يزيد ـ في غمرة شعوره الوهمي بالانتصار ـ إنه استطاع القضاء على آل بيت محمد ﷺ تماماً، وأنه استوفى كل ما بذمته ﷺ له ولآل أبي سفيان بعد أن وترهم ببدر هو وابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام الذي قتل عدداً من أسلافه بتلك المعركة، وكان من شأن ذلك الشعور أن يزيل كل تحفظاته ويجعله يجاهر بآرائه الحقيقية في الرسول ﷺ وفي الإسلام. إذ من سيجرؤ بعد الآن على انتقاده وتوجيه اللوم إليه بعد أن أقدم على قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام بتلك الطريقة البشعة.

كما كان من شأن منظر ثقل الحسين ونسائه ومن تخلف من أهله وهم مقرنون بالحبال وفي مقدمتهم زين العابدين عليه السلام وهو مغلول، أن يزيد من فرحه وزهوه وشعوره بالانتصار... وقد أراد أن يبقيهم على تلك الحال لولا أن أحرجه زين

---

(١) سيرة الأئمة ص ١٤٨ عن جواهر الطالب لابي البركات شمس الدين محمد الباغندي عن تاريخ ابن القفطي.

العابدين أمام جلسائه قائلًا: (أنشدك الله يا يزيد، ما ظنك برسول الله ﷺ لو رآنا على هذه الصفة؟)[(١)] وهو تساؤل أثار مشاعر الحزن والألم في الحاضرين (..فلم يبق في القوم أحد إلا وبكى.. فأمر يزيد بالحبال فقطعت وأمر بفك الغل عن زين العابدين..)[(٢)].

وفي خضم مشاعر الحزن والألم والبكاء حاول يزيد التظاهر بالحزم والشدة، وأنشد وهو يحاول أن يبدو بمظهر من يريد تطبيق العدالة والحرص على وحدة الأمة! وسيادة قانون الدولة... مردداً أبيات الحصين بن الحمام المدي..

(صبرنا وكان الصبر منّا سجية ... بأسيافنا يفدين هاما ومعصما

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواضب في إيماننا تقطر الدما

تعلق هاما من رجالٍ أعزة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ودعا بقضيب خيزران وجعل ينكت به ثنايا الحسين عليه السلام ثم قال: يوم بيوم بدر..)[(٣)].

وقد أثار ذلك رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلمي كان يحضر ذلك المجلس، وهو أمر مألوف في بلاطه حيث يحاول استمالة الناس وتحسين منظره بدعوة بعض الصحابة والناس المرموقين لحضور مجلسه، كما كان يفعل والده من قبل تماماً. قال له أبو برزة مستنكراً: (ويحك يا يزيد، أتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة، أشهد لقد رأيت النبي ﷺ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: أنتما سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيراً..)[(٤)].

---

(١) و(٢) سيرة الأئمة ـ السيد محسن الأمين ٣/ ١٤٩.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠ والطبري ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

(٤) المصدر السابق ص ١٥٠.

وذكر الطبري أن أبا برزه الأسلمي قال ليزيد: (أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين!؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذاً، لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه. أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك. ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد ﷺ شفيعه. ثم قام فولى..) الطبري ٣/ ٣٤١، ويراجع ابن كثير ٨/ ١٩٦، وابن الأثير ٣/ ٤٣٨.

ثارات أموية: «ليت أشياخي..»

وقد تمادى يزيد بعبثه إلى أبعد من ذلك، فقد أنشد أبياتاً تدل على كرهه الشديد لرسول الله ﷺ وخروجه الواضح عن الإسلام مردداً ما قاله ابن الزبعري. أحد أعداء الإسلام القدامى وشعرائهم الحاقدين على الإسلام والرسول ﷺ مضيفاً إليها بعض الأبيات التي حسب أنها تنسجم مع المناسبة ومع ما أقدم عليه من فعل مشين بحق الإسلام والمسلمين.

قال في مجلسه الذي ضم حشداً كبيراً من أتباعه وأشرافه وخدمه، متباهياً بفعلته:

(ليت أشياخي ببدر شَهَدوا ... جزعَ الخزرج من وقع الأسل
فأهلّوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل)[1]

وقد استمعنا لخطبة زينب في أعقاب ترديد يزيد لأبيات ابن الزبعري الجاهلي وما أضافه إليها من أبيات تدل على كرهه الكبير للإسلام وللرسول ﷺ... فقد نددت زينب به وجعلته يخجل من موقفه المتشفي الذي يكشف عن ضعفه واستجابته

(١) سيرة الأئمة ٣/ ١٥٠ عن الحافظ ابن عساكر وذكر أن يزيد قد زاد البيتين الأخيرين كما رواه سبط بن الجوزي عن الشعبي. إلا أن ابن كثير ذكر هذه الأبيات الثلاثة بعد البيت الأول:

فأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا لي هنيئاً لا تشل
حين حلت بفناء بركها ... واستحر القتل في عبد الأسل
قد قتلنا الضعف من اشرافكم ... وعدلنا ميل بدرٍ فاعتدل

ويروي ابن كثير عن مجاهد قوله في يزيد: (نافق فيها والله ثم والله. ما بقي في جيشه أحد إلا تركه؛ أي ذمه وعابه). البداية والنهاية ـ ابن كثير ٨/ ١٩٤.
وروي في ص ٢٧٧ أنه قال ذلك في أعقاب واقعة الحرة التي استباح فيها المدينة، ونرجّح أنه قد كرر ترديد الأبيات عقيب الواقعتين. وربما كان مغرماً بترديدها طوال المدة الواقعة بينهما يدل على ذلك واقعه وحبه لأمثال هذا النوع من الشعر ومنه هذه القصيدة التي قالها ابن الزبعري في أعقاب معركة أحد.

الواضحة لعوامل الكراهية والحقد التي حاول أسلافه إخفاءها فظهرت في بعض مواقفهم وفلتات ألسنتهم، كما رأينا من قبل.

منطق أموي

وقد حاول أن يغطي على ضعفه وما ظهر من حقده على الإسلام، بتوجيه الكلام إلى زين العابدين عليه السلام في محاولة جره إلى مهاترة كلامية معه يستطيع فيها التغلب عليه والنيل منه ومن آبائه.

(لما جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام، فأجلسهم حوله، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه، فأُدخلوا عليه والناس ينظرون، فقال يزيد لعلي: يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت.

فقال علي: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه، فما درى خالد ما يردّ عليه، فقال له يزيد: قل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[2]...)[3].

وكان يزيد يهدف بتحشيده أشراف أهل الشام الحقودين على آل البيت، حوله، أن يثير الرعب في نفوس بقوا أحياء من بيت الحسين عليه السلام.. ولا بد أنه كان يتوقع تسلية كبيرة من أناس شلت ألسنتهم المخاوف منه، بعد أن رأوا فعله بالحسين

(١) الحديد ٢٢/ ٢٣.

(٢) الشورى ٣٠.

(٣) الطبري ٣/ ٣٣٩ وابن كثير ٨/ ١٩٦ وذكر السيد الأمين ٣/ ١٥٢ أن زين العابدين رد عليه قائلاً: (يابن معاوية وهند وصخر لقد كان جدي علي بن أبي طالب في يوم بدر وأحد والأحزاب في يده رآية رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوك وجدك في أيديهما رايات الكفار... ويلك يا يزيد. إنك لو تدري ماذا صنعت وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأهلي وعمومتي إذا لهربت في الجبال وافترشت الرماد ودعوت بالويل والثبور أن يكون رأس أبي الحسين بن فاطمة وعلي منصوباً عل باب مدينتكم وهو وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم فابشر بالخزي والندامة..).

وأصحابه عليهم السلام وكان يتوقع أن يصمت زين العابدين ويتخاذل أمامه فلا يرد عليه بكلمة، فيكون قد أبلغ هو في الكلام أمام جلسائه وأفحم خصومه الذين أحضرهم أمامه بتلك الحال المزرية.

ولا بد أن ما كان يحفظه من كلام الله الوارد في كتابه المبين كان يقصد به استعماله لأغراضه، فيختار من الآيات ما يستطيع تأويله وتحقيق مآربه، كما كان يفعل والده معاوية قبل ذلك تماماً، إلا أنه فشل بما أراد تحقيقه بعد أن رد عليه الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك الرد القوي.

بين الدفاع عن السلطان ومجالس الشرب

وقد أخبرنا زين العابدين عليه السلام عن المظاهر الاحتفالية التي رآها يزيد جديرة بتلك المناسبة.. قال: (لما أتي برأس الحسين عليه السلام إلى يزيد، كان يتخذ مجالس الشرب، ويأتي برأس الحسين عليه السلام ويضعه بين يديه ويشرب عليه..)[1]...

كان يزيد يحسب أنه ـ بذلك ـ ينال من الرسول صلى الله عليه وآله شخصياً.. ذلك الرسول الذي نال من أسلافه فقتلهم.. وكانت قتلتهم على يد أخيه خاصة، أب صاحب هذا الرأس المطروح بين يديه.

كانت معادلة غريبة غير مفهومة، أن يصبح آل البيت الأكثر جدارة بالرعاية والاحترام والحب، مستهدفين لكل ضروب الأذى والشر والعدوان من قبل المسلمين أنفسهم... في أعقاب مقدم زين العابدين والنساء إلى الشام، وبعد أن أمر يزيد بنصب رأس الحسين عليه السلام بدمشق ثلاثة أيام[2]... (خرج زين العابدين عليه السلام يوماً يمشي في أسواق دمشق، فاستقبله المنهال بن عمرو، فقال له: كيف أمسيت يابن رسول الله؟ قال: أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً عربي، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشردون. إنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه..)[3].

---

(١) سيرة الأئمة ٣/١٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

يزيد : بين الفرح والخوف

وقد تجاذب يزيد في تلك اللحظات عاملان، عامل الفرح والنشوة والزهو بما ظن أنه قد حقق من انتصار، وعامل الخوف من انقلاب الموقف لغير صالحه، وقد رأى بوادر غضب وثورة شعبية توشك أن تهب عليه وتطيح بعرشه، بل أن بعض من غضبوا عليه كانوا من أهل بيته ومن المقربين إليه.

كان يحيى بن الحكم، أخو مروان بن الحكم أحد الذين كانوا يحضرون في مجلس يزيد عندما جلبت السبايا والرؤوس إليه، وقد رأى رد فعل يزيد وفرحه مما نال الحسين وأصحابه عليهم السلام فأنشد في ذلك المجلس ببيتين من الشعر أسمعهما كل الحاضرين حتى يزيد نفسه الذي نهره وقيل إنه عاتبه على إنشادهما في تلك اللحظة.

قال يحيى بن الحكم:

(لهامٌ بجنب الطف أدنى قرابةً ... من ابن زياد العبد ذي الحسبِ الوغلِ

سمية أمسى نسلها عدد الحصى ... وبنت رسول الله ليس لها نسلُ

فضرب يزيد بن معاوية في صدد يحيى بن الحكم وقال له: اسكت..)[1].

ويحيى بن الحكم هذا قد شهد وفد أهل الكوفة عندما دخل مسجد دمشق برأس الحسين عليه السلام وقد استمع إلى روايتهم عن واقعة الطف فقال لهم: (ما صنعتم؟..)[2] فأخبروه الخبر (فقال: حجبتم عن محمد يوم القيامة، لن أجامعكم على أمر أبداً. ثم قام فانصرف..)[3].

حتى آل يزيد استنكروا فعلته

وكما كان حال يحيى كان حال نساء يزيد أنفسهن، فقد غضبن من فعلته

(١) الطبري ٣/ ٣٣٩ وابن كثير ٨/ ١٩٤ وقيل إنَّ يزيداً قال له: (نعم، فلعن الله ابن مرجانة إذْ أقدم على قتل الحسين بن فاطمة. لو كنت صاحبه، لما سألني خصلة إلا أعطيته إياها، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ولكن قضى الله أمراً فلم يكن له مرد) ونرى أن يزيد يسند الأمر كله إلى قضاء الله. وروى (إن يزيد أسر إلى عبد الرحمٰن وقال: سبحان الله، أفي مثل هذا الموضع، أما يسعك السكوت) وفي هذه الرواية تنسب الأبيات إلى عبد الرحمٰن بن الحكم. بحار الأنوار ٤٥/ ١٣٠/ ١٣١.

(٢) و(٣) الطبري ٣/ ٣٤١.

وأظهرن الحزن على مقتل الحسين وآل بيته وأصحابه. . . (أدخل نساء الحسين على يزيد، فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن. . ثم إنهن أدخلن على يزيد، فقالت فاطمة بنت الحسين ـ وكانت أكبر من سكينة: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد. .؟ فقال لها يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره. . !

ثم أخرجن فأدخلن دار يزيد بن معاوية، فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن. .)[1] كما أن هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز ـ زوج يزيد قد استنكرت ما فعله يزيد بالحسين وأصحابه، وقد اعتذر يزيد أمامها بأن ما حصل إنما كان بفعل من ابن زياد وإنه لم يصدر إليه أية أوامر بقتل الحسين.

دخلت هند مجلس يزيد متقنعة بثوبها وقالت تؤنب يزيد: (. . أرأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله. . !؟

قال: نعم فأعولي عليه، وحدّي على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش، عجل عليه ابن زياد فقتله قتله الله. .)[2].

وعندما أدخلهم يزيد داره قبل أن يسجنهم في خربة مجاورة (. . . لم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين. فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً. . .)[3].

تبجحات لإخفاء المخاوف

وقد حسب يزيد أنه يستطيع تخفيف غضب الناس عليه ـ ومنهم أفراد من عائلته نفسها ـ برمي تهمة القتل وتبعاتها على ابن زياد وحده، كما رأينا، وباستعراض السبايا والرؤوس الشريفة، وإجراء حوارات مع بعض النساء الباكيات الحزينات، ومع الإمام زين العابدين الموثق بالإغلال، حاسباً أنهم سيسكتون أمام ادّعاءاته وتبجحاته وأنهم سينحنون أمامه ويوافقونه على كل ما سوف يطرحه من أفكار و(حجج)، وأنهم سيستجدون عطفه، وقد يسألونه رد ما أخذ منهم من أموال ومصاغ. . . وسيبادر إلى

(١) الطبري ٣/ ٣٤٠ وابن الأثير ٣/ ٤٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الطبري ٣/ ٣٣٩.

تلبية طلبهم حاسباً أن كل شيء وكل امرىء يمكن أن يشترى بالأموال[1]. . . مع أنهم كانوا أكثر الناس شعوراً بالخسارة الكبيرة المتمثلة بفقد الحسين وأصحابه عليهم السلام والتنكيل بهم وقطع رؤوسهم وحملها بتلك الطريقة المردية البشعة، وترك جثثهم الممزقة تسفي عليها الرياح، وتغزوها الرخم والعقبان والوحوش.

وإذ أنه فشل بمواجهة زينب التي جعلته يبدو على حقيقته عصبياً متشنّجاً يلجأ إلى السباب الفاحش والكلام القبيح، فإنه حاول إعادة الكره مع زين العابدين الذي بدا مرهقاً حزيناً مريضاً ينوء بأعباء الأسر والفاجعة، عله يسمع منه كلمة تدين موقف والده الحسين أو تقر موقفه منه والذي لجأ إليه بتوصية من والده معاوية كما رأينا، إلا أنه فشل في ذلك أيضاً، وكان موقف زين العابدين الصلب مثار انتكاسة أخرى لحقت به وجعلته يفقد حلاوة النصر التي كان يحسب أنه يستمتع بها في تلك اللحظات، بل لعلها أثارت في نفسه مخاوف حقيقية من ثورة محتملة بوجهه رغم كل ما كان يتمتع به من سلطان كبير وقوة ظاهرية.

الإمام زين العابدين: معركة في قصر يزيد

نقل عن الأوزاعي في مناقب ابن شهراشوب قوله: (لما أتي بعلي بن الحسين عليه السلام ورأس أبيه إلى يزيد بالشام، قال لخطيب بليغ: خذ بيد هذا الغلام، فأت به المنبر وأخبر الناس بسوء رأي أبيه وجسده وفراقهم الحق وبغيهم علينا، فلم يدع شيئاً من المساوىء إلا ذكره فيهم. .)[2].

وروي عن صاحب المناقب. . (إن يزيد أمر بمنبر وخطيب ليخبر الناس بمساوىء الحسين وعلي عليهما السلام وما فعلا، فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم أكثر الوقيعة في علي والحسين وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد. . فذكرهما

---

(١) وقد روّجت روايات أفادت أن بعض النساء طلبن من يزيد إعادة مصوغاتهن التي سلبت منهنّ عقيب واقعة الطف، وانه قد وافق على ذلك وضاعفها لهن. ودلائل الحال لا تشير إلى ذلك ولا تقره، إذ كيف تقدم اولئك النسوه بما عرف عنهن من المواقف المبدئية المشهودة، على مثل ذلك الطلب مع شعورهن الكبير بخسارة الصفوه من آل الرسول صلى الله عليه وآله وفي مقدمتهم الحسين عليه السلام وإخوته وأبناء عمومته وأولاده. ولا شك أن الغرض من تلك الروايات تحسين صورة يزيد وتشويه صور الحسين وأصحابه ونسائه.

(٢) بحار الأنوار ٧٥/ ١٧٤.

بكل جميل، فصاح به علي بن الحسين: ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار.. ثم قال علي بن الحسين: يا يزيد إئذن لي حتى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات لله فيهن رضا، ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب، فأبى يزيد عليه ذلك، فقال الناس: ... إئذن له فليصعد المنبر، فلعلنا نسمع منه شيئاً..

فقال: إنه إن صعد لم ينزل إلا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان..

فقيل له: وما قدر ما يحسن هذا؟

فقال: إنه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقّاً.

فلم يزالوا به حتى أذن له، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، ثم قال: أيها الناس، أعطينا ستاً، وفضلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين. وفضلنا بأن منا النبي المختار محمداً ومنا الصدّيق ومنا الطيار ومنا أسد الله وأسد رسوله، ومنا سبطا هذه الأمة، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي..

أيها الناس: أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجَّ ولبى، أنا ابن من حمل على البراق في الهوا، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أن ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، ، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا الله إلا الله..

أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين. أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين. أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن

المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأول السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علمه.

سمحٌ، سخي، بهيّ، بهلول، زكي، أبطحيّ، رضيّ، مقدام، همام، صابر، صوام، مهذب، قوام، قاطع الأصلاب ومفرق الأحزاب، أربطهم عناناً، وأثبتهم جناناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدهم شكيمة، أسد باسل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة، طحن الرحا، ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وكبش العراق، مكي مدني، خيفيّ عقبيّ، بدري أحدي، شجري مهاجري، من العرب سيدها ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين وأبو السبطين: الحسن والحسين، ذلك جدي علي بن أبي طالب..

ثم قال: أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء.. فلم يزل يقول أنا أنا حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب.. وخشي يزيد أن تكون فتنة. فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام. فلما قال: الله أكبر الله أكبر، قال علي: لا شيء أكبر من الله. فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال علي بن الحسين: شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي. فلما قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، التفت من فوق المنبر إلى يزيد فقال: محمد هذا جدّي أم جدّك يا يزيد؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت أنه جدي فلم قتلت عترته؟...)[1].

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

كانت خطبة زين العابدين متحدية صارمة رغم ما كان يلوح فيها من كلام مهذب وأدب رفيع، فقد كان المقام مقام تحدي، وكان يزيد يريد أن ينال المزيد من آل البيت أمام أعوانه وحشمه.. وكانت ثقافة سب آل الرسول التي انتشرت وتفشت، قد جعلته يعتقد أنها اللغة المناسبة في كل وقت، ولم يحسب أن بإمكان كلمات مؤدبة قوية نافذة يمكن أن تحدث ذلك الأثر الذي أحدثته، صحيح أن من التفوا حوله من الأشراف

(١) بحار الأنوار ٤٥/ ١٣٧ - ١٣٩.

كانوا يعلمون حقيقته وحقيقة الحسين وآل البيت عليهم السلام إلا أنهم آثروا الانحياز إليه بفعل الدوافع العديدة التي جعلتهم يفعلون ذلك وفي مقدمتها التلويح بالأموال والجاه والمناصب، غير أن بقية أهل الشام من غير الأشراف كانوا مضللين مخدوعين لم يعرفوا أهلًا لمحمد صلى الله عليه وآله سوى آل أبي سفيان وأولاده وعترته... فكان لا بد لعلي بن الحسين أن يعرفهم بحقيقة آل الرسول صلى الله عليه وآله..

وكان لا بد أن يذكرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وبموقعه منه، وبعلي وشرفه وقدمه وسابقته وبالحسن والحسين عليهما السلام ومكانتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله..

من على ذلك المنبر الذي اعتادوا سب علي ونبيه من فوقه، رسم زين العابدين صورة آل البيت وعرضها على مشاهديه ومستمعيه... وجعل يزيد يوجل أشد مما كان يفعل ويخاف اشتداد النقمة والغضب الشعبي عليه، ويبدي اعتذاره في مواقف عديدة مما فعله ابن زياد في كربلاء، مدعياً أنه لم يوعز إليه بذلك ولم يأمره به.

كان التضليل الأموي يذهب مذاهب بعيدة مع أهل الشام، فقد أسدل عليهم ستاراً أسود من الجهل وجعلهم لا يرون إلا بعيون معاوية ومن تبعه، فكأن الإسلام هو ما جاء به معاوية لا محمد صلى الله عليه وآله.

الشامي المضلّل

وقد رأينا ذلك الشامي الذي طلب من يزيد منحه إحدى بنات أمير المؤمنين عليه السلام لتكون جارية له.. وقد حسب أن ذلك جائز له، وذكرنا المحاورة التي دارت بين زينب ويزيد بهذا الخصوص[1].

وقد ورد في إحدى الروايات أن هذا الرجل الشامي حينما استمع إلى حوار زينب مع يزيد وأدرك أن من أحضرهن يزيد إلى مجلسه بتلك الهيأة المزرية هنّ بنات الحسين وعلي وآل أبي طالب، لعن يزيد في مجلسه ذاك وقال: (والله ما توهمت إلا أنهم سبي الروم)[2] وقد أمر يزيد بضرب عنقه.. إذ كان وعي ذلك الرجل مؤشراً خطراً لاحتمال انتشار ذلك الوعي بين جماهير الشام مما ستكون له عاقبة غير محمودة بالنسبة للنظام الحاكم[3].

---

(١) الطبري ٣/ ٣٣٩ وفي بعض الروايات إنها فاطمة بنت الحسين ـ بحار الأنوار ٤٥/ ١٣٦-١٣٧.
(٢) و(٣) البحار ٤٥/ ١٣٧.

وروي عن السيد (إن بعض فضلاء التابعين لما شهد برأس الحسين بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه، فلما وجدوه بعد إذ فقدوه، سألوه عن سبب ذلك، فقال: ألا ترون ما نزل بنا؟ ثم أنشأ يقول:

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولما يرقبوا ... في قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا)[1]

وإذ أن موقف هذا التابعي الفاضل محتمل ووارد لما كان لا بد أن يكون متمتعاً به من وعي ومعرفة، فإن الجماهير المضللة التي لا تتمتع بنفس القدر من الوعي والمعرفة، كانت تطبل وراء أعوان السلطة وتندفع فرحة فخورة بما تحقق لها من قتل الحسين وأصحابه. . .

تابَ فنُقتل..

(. . جاء شيخ فدنا من نساء الحسين وعياله، وقد أقيموا على درج باب المسجد، فقال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم. .

فقال له علي بن الحسين: يا شيخ هل قرأت القرآن. .؟ قال: نعم.

قال: فهل عرفت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[2]. .؟

قال الشيخ: قد قرأت ذلك. .

فقال له علي: فنحن القربى يا شيخ، فهل قرأت هذه الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[3]. .؟

قال: نعم.

قال علي: فنحن القربى يا شيخ. وهل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[4]؟

قال الشيخ: قد قرأت ذلك.

(١) المصدر السابق ص ١٢٨-١٢٩.
(٢) الشورى ٣٣.
(٣) الأنفال ٤١.
(٤) الأحزاب ٣٣.

قال علي: فنحن أهل البيت الذين خصصنا بآية الطهارة يا شيخ.

فبقي الشيخ ساكتاً نادماً على ما تكلم به وقال: بالله إنكم هم؟

فقال علي بن الحسين: تالله إنا لنحن هم من غير شك. وحق جدنا رسول الله إنّا لنحن هم.

فبكي الشيخ ورمى عمامته، ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد من جن وإنس، ثم قال: هل لي من توبة؟ فقال له: نعم. إن تبت تاب الله عليك، وأنت معنا. فقال: أنا تائب.

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ فأمر به فقتل.)[1].

لقد أوشك السحر أن ينقلب على الساحر، عندما بدت بوادر وعي وفهم تلوح في أفق دمشق... غير أن الكبت والقمع كان لهما دورهما هنا، وكان لا بد من إجراء حاسم بحق زين العابدين ونسائه وإلا افتضح أمر النظام الأموي بين أوساط أهل دمشق وبدأت تساؤلات جدية عنه تظهر بينهم، ولم يجد يزيد بداً من إبعاد زين العابدين والأمر بإعادته إلى المدينة طالباً منه أن يكاتبه وينهي إليه كل حاجة تكون له[2].

كان الدور اللاحق للإمام زين العابدين يتصاعد باتجاه تحصين الطليعة العقائدية وجمع شملها ثانية وإعداد الأمة لتقويم الوضع بعد أن خلا الجو ليزيد وبعد أن نكل بأعدائه بذلك الشكل المرعب.

إعلان الطوارىء لخنق الأنفاس

وكان خلق الظروف الطارئة وإيهام الأمة بوجود أعداء يكيدون لها، يتيح لها إعلان حالة استنفاد وحرب دائمية واللجوء إلى أقسى الأساليب وأشدها شراسة مع كل من تعتقد أنه ضد مسيرتها. كانت الأمة تعيش حالة حرب منذ أن مُهِّدَ لقتل عثمان ومع بداية حكومة أمير المؤمنين، وكانت تلك الحالة هي الأمر الوحيد الذي حسب معاوية أنه يتيح له تنفيذ خططه وأفكاره، وهكذا كان هو في مقدمة الساعين لقتله وكان أشد الناس فرحاً بذلك، لأن المطالبة بدمه فيما بعد يتيح له استقطاب كل من لا يرى رأي أمير المؤمنين وكل طامع ومضلل، وتتيح له تكوين جيش مستنفر دائماً وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ مطالبه وأغراضه.

---

(١) الملهوف ص ١٥٨ والبحار ٤٥/ ١٢٩.

(٢) الطبري ٣/ ٣٣٩/ ٣٤٠.

ولم يكن في صالح النظام الأموي أن تعطل حالة الاستنفار والطوارىء تلك وكان يجد المبررات دائماً لوجودها وإدامتها. . .

وإذ أن النظام بدا مزدهراً وقوياً وقادراً على التنكيل بخصومه بكل بساطة، فإن الأمة لا بد أن تدفع باتجاه التساؤل عن مغزى دفعها لتعيش حالة الطوارىء الدائمية تلك، وعن سبب الويلات والأزمات الخانقة وحالة التفرقة والتباين التي تعيشها في ظل ذلك النظام. . . هل خاض المسلمون الحروب وعاشوا الويلات ليمهدوا الطريق أمام دولة الظلم الأموية لتقوم بالمزيد من الظلم والانتهاكات والتجاوز على حقوقهم. .؟ وما هي الحجج التي بقيت أمامها لتقوم بمثل تلك الانتهاكات.

وكان لابد أن تفهم الأمة الإسلام جيداً لكي تفهم طبيعة الظلم الواقع عليها وطبيعة انحرافها عن الإسلام، فبدون ذلك تبقى مضللة وتعيش حالة الهمج الرعاع الذين لا يدركون أن هناك ظلماً يقع عليهم ويعيشون إلا الحالة الحيوانية الغريزية ولا يهتمون إلا بحياتهم اليومية العادية ولا تتعدى اهتماماتهم إلى جماهير الأمة المظلومة.

كانت دولة الظلم تسعى لتوسيع هذه الطبقة لكي يتاح لها تنفيذ كل مخططاتها ومؤامراتها، وكان لا بد من وجود قوة واعية متسلحة بالعلم الرباني الصحيح غير القابل للانحراف والمساومة تتصدى لقوة الانحراف ومؤسساته وأجهزته. .

وقد تمثلت تلك القوة بآل البيت عليهم السلام وأتباعهم الذين شكلوا الطليعة العقائدية المؤهلة للقيادة والتأثير. . .

بناء الكتلة العقائدية ومحاربة الانحراف

في تلك الفترة بدأ قادة أهل البيت. . (ببناء الكتلة، بناء الجماعة المنضوية تحت لوائهم الشاعرة بكل الحدود والأبعاد من المفهوم الإسلامي المتبنى من قبلهم عليهم السلام . . بناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، ولا بد أن تنتخب مجموعة من هذه الأمة فيحصنون بأعلى درجة ممكنة من التحصين ويوعون بأعلى درجة ممكنة من التوعية حتى تكون هذه الجماعة هي الرائد والقائد والحامي للوعي الإسلامي الذي حصن بالحد الأدنى. .)[1].

(١) أهل البيت / السيد محمد باقر الصدر ص ١١٦.

(.. حتى في حالة الشعور بعدم وجود الظروف الموضوعية التي تهيىء الإمام لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد..)[1].

ومع قيام الأئمة عليهم السلام (بمحاولة القضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي وإرجاعها إلى وضعها الطبيعي، وذلك بإعداد طويل المدى وتهيئة للظروف الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ذلك)[2] فإنهم مارسوا عملية (تعميق الرسالة، روحياً وسياسياً للأمة نفسها، بغية إيجاد تحصين كاف في صفوفها لكي يؤثر هذا التحصين في مناعتها، وفي عدم انهيارها بعد تردي التجربة وسقوطها، إذ كان من اللازم بعد أن حرمت الأمة الإسلامية من التجربة الصحيحة الكاملة للحياة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله أن تطعم وتغذى الأمة كأمة، تطعم الأمة وتغذى بالإسلام رسالياً، وتغذى في مجالها الروحي والفكري والاجتماعي والسياسي، لكي تستوعب الإسلام ـ بإيجاد قواعد واعية في الأمة وإيجاد روح رسالية فيها وإيجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأمة)[3].

كانت مهمة أهل البيت عليهم السلام لحماية الإسلام واحدة وإن اتخذت دوراً بدت مختلفة في الظاهر، وكانت تلك الأدوار تنسجم مع الظروف التي كان يمر بها كل إمام.

وقد تعرضنا في هذه الدراسة لأدوار الأئمة الثلاثة الأوائل عليهم السلام ورأينا كيف أنهم استطاعوا تحصين التجربة الإسلامية والحفاظ عليها رغم عوامل الانحراف التي كانت قابلة للإطاحة بها وإسقاطها إلى الأبد حتى لا تعود تذكر إلا كتجربة تاريخية مرت على المسلمين، ولن تكون قابلة للتكرار في أي وقت آخر.

دور لامع للإمام زين العابدين بعد واقعة الطف

ولعل دور الإمام زين العابدين عليه السلام بدأ منذ تلك اللحظات التي ختمت واقعة الطف، فكانت حواراته مع ابن زياد ويزيد وكلماته في أهل الكوفة والشام والمدينة بعيد تلك الواقعة بداية لنشاط كبير عمل فيه على استقطاب جماهير الأمة حول الإسلام

---

(١) أهل البيت / السيد محمد باقر الصدر ص ١٣١-١٣٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

لاستيعاب كل مضامينه بعيداً عن التشويه والتزوير. كان زين العابدين عليه السلام يريد للأمة أن تقف وقفة متأملة متفحصة لمجمل الأوضاع وما أدى بها إلى الانحراف، وأن تعود إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله نابذة كل زيف وتحريف وكذب.

ولعل دراسة مستقلة لشخصية الإمام زين العابدين عليه السلام تكشف عن الدور الكبير والحساس الذي قام به لربط الأمة بالرسالة الإسلامية رغم وجود القيادة المنحرفة وجعل الإسلام يبدو قوياً وواضحاً رغم ابتعاد تلك القيادة عنه ومحاولاتها تجريده من كل ما يجعله صالحاً لقيادة الحياة قيادة سليمة صالحة.

توسيع الفئة العالمة الواعية

بدا أن أهم ما كان يشغل بال الإمام زين العابدين في تلك الفترة التي بدت بعيدة عن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وفي غياب الجيل الأول من المسلمين، هو توسيع الفئة العالمة الواعية التي تستمد علمها ووعيها من مبنع الإسلام الصافي، أي من آل البيت أنفسهم؛ أي منه هو بالذات، بقيتهم وممثلهم وحامل علومهم، وقد كان بالتأكيد المؤهَل الأول لمثل تلك المهمة الكبيرة وكان يبدو قادراً على إنجازها بكل كفاءة وجدارة...

وقد حفلت كتب التاريخ والسيرة والحديث بأمثلة عديدة وشواهد على تتلمذ أشهر أقطاب العلوم الإسلامية على يديه منهم رجال من الصحابة كجابر بن عبد الله الأنصاري وعامر بن واثلة الكناني وسعيد بن المسيب بن حزن وسعيد بن جهان الكناني ورجال من التابعين أمثال سعيد بن جبير ومحمد بن جبير بن مطعم والقاسم بن عوف وإسماعيل بن عبد الله بن جعفر وإبراهيم بن محمد بن الحنفية وأخوه الحسن وحبيب بن أبي ثابت وأبو يحيى الأسدي وأبو حازم الأعرج وسلمة بن دينار المدني وروى عنه الزهري وسفيان بن عينية ونافع والأوزاعي ومعائل والواقدي ومحمد بن إسحاق وروى عمن روى عنه كثيرون مثل الطبري وابن البيع وأحمد بن حنبل وابن بطة وأبو داوود وصاحب الحلية وصاحب الأغاني وصاحب قوت القلوب، وصاحب أسباب النزول وصاحب الترغيب والترهيب وصاحب الفائق وصاحب المصطفى وغيرهم[1].

---

(١) أهل البيت/ الإمام زين العابدين ـ لجنة التأليف في دار التوحيد عن بحار الأنوار ط/ ١٣٨٥ ٤٦/ ١٣٣ ومناقب آل أبي طالب ج٣.

وقد اشتهر من طلابه المعروفين أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وعلي بن رافع والضحاك بن مزاحم وحميد بن موسى الكوفي وأبو الفضل سدير بن حكيم الصيرفي ويحيى بن أم الطويل وعبد الله البرقي وحكيم بن جبير والفرزدق وفرات بن أحنف وأيوب بن الحسن وأبو محمد القرشي السدي وطاوس بن كيسان الهمداني وأبان بن تغلب بن رَباح وأبو خالد وردان الكابلي وسعيد بن المسيب المخزومي وعمر بن علي بن الحسين وأخوه عبد الله وجابر بن محمد بن أبي بكر وغيرهم(١).

وكانت هناك نصوص ثابتة على إمامته وردت عن رسول الله ﷺ، ولا بد أن فئات عديدة من الأمة كانت تعرف ذلك وتعيه وترى أن له منزلة رفيعة ينبغي النظر إليها وعلماً إلهياً متوارثاً عن جده الرسول ﷺ ينبغي الاهتمام به والنظر إليه بكل جدية.. وليست من العبث أن تحيط طبقة كبيرة من العلماء بزين العابدين عليه السلام وتأخذ عنه في الوقت الذي انصرف فيه القادة المنحرفون إلى تثبيت مراكزهم باللجوء إلى أشد الأساليب قسوة وبعداً عن الإسلام.

كان الإسلام هو الضمانة الوحيدة للأمة الإسلامية لكي تبقى وتستمر وتنمو كأمة إسلامية بعيداً عن مخططات قادة الانحراف، وكان العمل على نشر علومه وأحكامه وتشريعاته هو الطريق الأمثل لفهمه واستيعابه.

أدب الدعاء.. أدب الوصول إلى الله

وإذ أن الأمة كانت تعيش حياة يأس وغربة عن الإسلام في ظل الحملة المحمومة لاستبعاده عن الحياة وتهميش دوره وجعله أقل فاعلية، فإن صلة حميمة به لا بد أن تبعث ثانية ولا بد أن تربى الأمة على التحسس به والتقرب من الله عز وجل من خلال الفهم الواعي للإسلام ومن خلال أدب الدعاء ذي المضامين الشفافة والمناجاة الحميمة مع الله عز وجل. وهكذا عمل زين العابدين على إشعار الأمة بأهمية هذين الجانبين وأرسى أسلوباً فريداً في الدعاء والمناجاة جديراً بآل الرسول ﷺ.

إذ من يستطيع ـ حتى وإن اشتد الصراع على الحكم والسلطة واتخذت

(١) المصدر السابق.

المواجهات طوابع غير إسلامية ـ أن يمنع مسلماً من اللجوء إلى العلم والعبادة. وجميع القيادات المنحرفة السفيانية والمروانية والزبيرية تدعي حرصها على ذلك وإن كان واقع حالها يشير إلى أنها كانت تحاول ترسيخ مصالحها وامتيازاتها وأساليبها المنحرفة في الحكم والحياة.

وكان أسلوبه التربوي هذا ينسجم مع أسلوب آخر اعتمده طيلة حياته للتذكير بثورة والده الحسين عليه السلام، فلم يكن من قبيل الشعور بمظلومية ذلك الإمام العظيم الذي واجه السلطة المنحرفة القوية بدمه ودماء أصحابه القلائل وقتل تلك القتلة المفجعة، إعلانه ذلك الحزن الطويل المفجع.

كان ذلك الحزن استمراراً لحزن والده عليه السلام وشعوره بالمرارة وهو يرى آلامه تقاد لتنفيذ المخططات الأموية.. وكان شجباً لإرادة الشر التي ألحقت الأذى بوالده وأنصاره عليهم السلام...

إرساء قواعد الحزن النبيل البنّاء المتعاطف..

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يريد الأمة أن تستشعر حزنه على والده وأنصاره وأن تشاركه فيه، فالتعاطف النبيل لا بد أن يؤدي إلى أن تفهم الأسباب التي قدم من أجلها دمه ولا بد أن تدرك في النهاية أن هدفه الأساسي هو تخليصها من الانحراف الأمزي وليس لجني مكاسب خاصة أو لمزاحمة النظام على الحكم لمجرد الرغبة في ذلك، مع أنه كان أحق الناس بالحكم وأجدرهم به وأكثرهم كفاءة وشعوراً بالمسؤولية لتطبيق أحكام الإسلام وشرائعه تطبيقاً عادلاً مسؤولاً.

وكانت صرخاته وكلماته أمام ابن زياد وأهل الكوفة ويزيد وأهل الشام تشير إلى أنه كان أكثر الناس فهماً ووعياً لقضية والده وكان يريد الأمة كلها أن تفهم غرضه من الثورة وتقديم دمه بتلك الطريقة الباسلة التي أرعبت النظام وجعلته يحشد كل قواه وأعوانه لمواجهته..

أما في المدينة، تلك التي نصرت رسول الله صلى الله عليه وآله منذ البداية وسارت خلفه دون تحفظ وقدمت للإسلام كل شيء، ثم نكصت واستسلمت كبقية حواضر الإسلام الأخرى أمام الإرهاب الأموي، فإن ثمة ما يجعل الأمل يتصاعد بإمكانية تجدد عزيمة الأنصار الأوائل الذين آزروا رسول الله صلى الله عليه وآله، خصوصاً وأنها تمتلىء بالمزيد منهم

ومن أبنائهم، وكان لا بد من جعلها تدرك التضحية الكبيرة التي أقدم عليها أبو عبد الله الحسين لإنقاذها وإنقاذ كافة المسلمين من الأمويين.

قبيل الوصول إلى المدينة

وقبيل الوصول إلى المدينة أراد الإمام علي بن الحسين أن يكون لذلك الوصول وقع خاص، وأن يستقبل أهل المدينة بقية موكب الحسين استقبالاً جديراً بالتضحية التي قدمها.

روى أحد الشعراء، بشير من حَذْلَم قال: (.. لما قربنا منها [المدينة] نزل علي بن الحسين عليه السلام فحط رحله، وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال:

يا بشير: رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟

قلت: يا ابن رسول الله إني لشاعر.

قال: فادخل المدينة، وانع أبا عبد الله...

فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة، فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدار

ثم قلت: هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليك أعرّفكم مكانه.

فما بقيت في المدينة محذّرة ولا محجّبة إلا برزن من خدورهن، مكشوفة شعورهن، مخمشة وجوههن، ضاربات خدودهن، يدعون بالويل والثبور، فلم أرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه..)[1].

وقد أرشد هذا الشاعر الذي كان ضمن موكب علي بن الحسين ومستقبليه الأوائل أهل المدينة إلى الموضع الذي نزل فيه الإمام، فبادروا إليه.

ويقص علينا بقية الخبر: (فضربت فرسي حتى رجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي، وتخطيت رقاب الناس، حتى قربت

(١) البحار ٤٥/١٤٧.

من باب الفسطاط، وكان علي بن الحسين عليه السلام داخلًا ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة وارتفعت أصوات الناس بالبكاء، وحنين الجواري والنساء، والناس من كل ناحية يعزّونه، فضجّت تلك البقعة ضجة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم، فقال عليه السلام:

الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين، بادىء الخلائق أجمعين، الذي بَعُد فارتفع في السموات العلى، وقرب فشهد النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفجائع، ومضاضة اللواذع، وجليل الهزء وعظيم المصائب الفاجعة، الكاظة الفادحة الجائحة..

أيها الناس، إن الله ـ وله الحمد ـ ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبد الله وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان، من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية..

أيها الناس: فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله، أم أية عين منكم تحبس دمعها، وتضنّ عن انهمالها. فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان ولجج البحار والملائكة المقربون، وأهل السماوات أجمعون..

أيها الناس: أي قلب لا ينصدع لقتله، أم أي فؤاد لا يحن إليه، أم أي سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام..

أيها الناس: أصبحنا مطرودين، مشردين، مذودين، شاسعين عن الأمصار، كأنا أولاد ترك وكابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام، ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. إن هذا إلا اختلاق.

والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاءة بنا، لما ازدادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، من مصيبة ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظها، وأفظها، وأمرها، وأفدحها.. فعند الله نحتسب فيما أصابنا، وما بلغ بنا، إنه عزيز ذو انتقام..)[1].

(١) المصدر السابق ٤٥/١٤٨/١٤٩.

بشارة أم إثارة شجون وأحزان.. واقعة الطف أثارت المدينة

ولعل يزيد وأركان حكمه كانوا يتصورون مشهداً هزلياً، يتاح لهم من خلاله النذر بتلك العائلة المنكوبة التي رفض عميدها الاعتراف برأس النظام ومبايعته، ثم ما هو ذا يجني نتيجة (تمرده) وخروجه على سلطان الدولة، ولعلهم كانوا يتوقعون قدوم عائلة مصابة مثكلة بإغرائها، ذليلة بعد ما حل بها، لتكون عبرة لكل من يفكر بالخروج على الدولة والاعتراض على تصرفاتها المنحرفة.

وهكذا حسب ابن زياد، وعمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذٍ، فقد دعا ابن زياد عبد الملك بن أبي الحارث السلمي وأمره أن ينطلق إلى المدينة حتى يقدم على عمرو بن سعيد ليبشره بقتل الحسين عليه السلام، وقد حاول عبد الملك السلمي أن يعتذر، إلا أن ابن زياد زجره: وقال له: (إنطلق حتى تأتي المدينة، ولا يسبقك الخبر، وأعطاه دنانير، وقال: لا تعتلّ، وإن قامت بك راحلتك فاشتر راحلة.

فقال عبد الملك: فقدمت المدينة، فلقيني رجل من قريش، فقال: ما الخبر. فقلت الخبر عند الأمير. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قتل الحسين بن علي.

فدخلت على عمرو بن سعيد، فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما سَرَّ الأمير، قتل الحسين بن علي، فقال: ناد بقتله، فناديت بقتله، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية نساء بني هاشم في دورهنّ على الحسين.

فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عجّت نساء بني زياد عجّةً كعجيج نسوتنا غداة الأرنبِ[1]

ثم قال عمرو: هذه واعية بواعية عثمان بن عفّان. ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله)[2].

حسب ابن زياد أنه بفعلته تلك سيسر عمرو.. وإنهما عندما يتلاقيان بعد ذلك سيضحكان كثيراً عندما يستحضران خبر تلك المفاجأة التي أعدها ابن زياد لعمرو ولأهل المدينة وبني هاشم منهم على وجه الخصوص.

---

(١) والأرنب وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب من رهط عبد المدان، وهذا البيت لعمرو بن معديكرب الطبري ٣/ ٣٤٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٤١-٣٤٢.

ولم يحسبا ـ كلاهما ـ أنهما بعملهما ذاك كانا يثيران الناس ضدهما وضد نظام الحكم الجائر إذ يثيران أحزانهم ولوعتهم. . . فما كان الحسين ـ بنظر الأمة حتى وإن تقاعست عن أتباعه ونصرته ـ يستحق ما لحق به، بل إن أهل المدينة أنفسهم، شهود على أحقيته بالحكم والخلافة، ومنهم صحابة قد عاصروا رسول الله ﷺ واستمعوا إليه.

المدينة تبكي الحسين عليه السلام

هل كانت تلك المشاهد التي تعد بذلك الشكل المستخف والمزدري يقصد بها إلحاق الإهانة بالحسين وآل الرسول ﷺ خاصة، أم أنها كانت تلويحاً للأمة كلها بالعصا الغليظة التي ستنزل على رأس كل معارض للنظام. .؟ وهل كان ذلك التلويح قادراً على إسكات الأمة وتسكين غضبها ونقمتها. .؟

وهل بكت نساء بني هاشم وحدهن على الحسين عليه السلام . . . أم أن المسلمين بأجمعهم، نساء ورجالًا بكوا على الحسين عليه السلام، وأسفوا على أن لم يقدموا على نصرته والانضمام إليه. . .؟ فالظلم الأموي كان يستهدفهم جميعاً. . وكان بإمكان الحسين عليه السلام لو هادن أو سكت أو بايع يزيد أن يحصل على العديد من المكاسب والامتيازات الشخصية. كانوا يعلمون ذلك، ويعلمون سبب إقدامه على مواجهة النظام، وإن ذلك كان من أجل كل أجيال الأمة لكي تنتبه للظلمة والمنحرفين وتوقفهم عند حدودهم إذا ما حاولوا اختراقها أو تجاوزها.

لم يدر ببال سلطة الظلم أن الحزن النبيل يمكن أن يتمخض عن مشاعر نبيلة أخرى، وأن بكاء صادراً عن قلب صادق مليء بالإخلاص يمكن أن يكون احتجاجاً دائمياً على الظلم وعلى كل ما يعكر الطبيعة البشرية ذات الفطرة الصادقة، ولعل خبرتها لم تتسع بعد لتدرك أن الحزن ما هو إلا صرخة احتجاج بوجه الظالم. . فما لحق بالناس لم يكن نتيجة كوارث طبيعية أو أقدار مقدرة، وإنما كان نتيجة لممارسات دولة الظلم. . . إنها إذ تتيح لمحزون أن يبث حزنه وأساه، فإنها تتيح له عرض قضيته على الناس، ولا بد أن يجد من يتعاطف مع هذه القضية ويعلن استهجانه وغضبه مما يجري. . .

أسلوب جديد لفضح الانحراف

لم يكن بإمكان زين العابدين أن يحرض الناس تحريضاً مباشراً على الدولة الأموية الظالمة التي أعلنت استعدادها للتمادي في ممارساتها المفضوحة الخارجة عن الإسلام، إذ أنها ستلجأ معه إلى ما لجأت إليه مع أبيه، وستعمل على تصفيته وتصفية كل من يتعاطف معه، غير أنه بإحياء ذكرى والده، تلك الذكرى التي تستدر الدموع والحزن من عيون المسلمين الذين عرفوا مكانته وموقعه من رسول الله ﷺ والغرض الذي ثار من أجله، وهو حق شخصي، لم ترَ فيه الدولة خطراً عليها بعد ولم تفكر بعواقبه، يكون قد مهد السبيل أمام تصاعد النقمة الشعبية بوجه الحكم الأموي، وكل حكومة ظالمة فيما بعد.

كان ذلك التجمع الجماهيري الذي أعد له الإمام زين العابدين في المدينة عند عودته إليها بعد مسير العودة المرهق يتسم بطابع العفوية والاستجابة التلقائية المتأثرة بالحدث الكبير الذي حدث في كربلاء، فخبر ذلك الحدث قد وصل المدينة في وقت مبكر، لعله وصلها قبل أن يصل الشام، وكان رد الفعل قوياً في بيوتها، ولعل أهلها كانوا متلهفين على معرفة أخبار من بقي من قافلة الحسين، ويودون لو أنهم عادوا سالمين إلى ديارهم، ولعل الشوق واللهفة لمقابلتهم وإبداء مشاعر الحزن والأسى أمامهم هو هاجسهم الأول وأملهم الكبير. كان زين العابدين عليه السلام يدرك ذلك ويعلم منزلة آل الرسول عليهم السلام من أهل المدينة، فلم يرَ أن يكون حدث العودة عابراً صامتاً لا تشهده إلا القلة من الناس، ولم يشأ أن يكون متسماً بالذلة التي ما تكون غالباً في أعقاب القهر والهزيمة وتسلط العدو، وإنما أراده أن يكون عاصفاً مشحوناً بعواطف الولاء والاستجابة الصادقة الحزينة لأناس ما كان ينبغي أن يقابلوا بتلك الصورة ولا أن يعاملوا تلك المعاملة من قبل مسؤولي دولة الظلم وأعوانها.

ويمكن اعتبار ذلك أول تجمع جماهيري مدروس، رغم ما اتسم به من عفوية في المواقف والمشاعر، أراد من خلاله الإمام زين العابدين أن يوضح للأمة مظلومية آل البيت بما تعرضوا له من أذى واستبعاد عن المركز الحقيقي اللائق والجدير بهم، ومظلوميتها هي، الأمة المقهورة المغلوبة التي ما كان ينبغي لها أن تعيش ظروف القهر والحرمان والظلم تولد دولة الانحراف الأموية.

الإبقاء على شحنة الحزن النبيل المتعاطف

كان الإمام زين العابدين يرى ضرورة تصاعد مشاعر التعاطف والود تجاه آل البيت عليهم السلام . . . وكان الإبقاء على شحنة الحزن النبيل بما لحق بالحسين عليه السلام قائد الأمة وممثلها الحقيقي، من شأنه تصعيد الشعور المعادي للظلم والانحراف دائماً، لا في زمن يزيد أو الدولة الأموية، وإنما في كل زمان ومهما كان شكل الظالم وشعاراته وواجهاته.

وكان هو أول مجسد لذلك الحزن النبيل المتعاطف مع الحق وفطرة الإسلام السامية والشاجب للظلم، فلم تكن مصيبته بأبيه وآل بيته وأصحابه نتيجة حدث طبيعي أو قدر أو حادث لا بد لأحد فيه، وإنما جاءت نتيجة عدوان من فئة نصبت من نفسها حاكمة علّامة وقيّمة عليها بالقوة والإكراه، وأرادت التمادي في ظلمها، وقد وقف لها الحسين وأنصاره بالمرصاد وقدموا دماءهم أمام أبناء الأمة كلها علانية وفي وضح النهار وأعلنوا شجبهم، بل رفضهم لدولة الظلم التي واجهتهم تلك المواجهة الدموية الرهيبة وألحقت بهم أشد ضروب التنكيل حتى بعد الموت. . . وكان على الأمة أن تلتفت لأولئك الذين قدموا أرواحهم ودماءهم في سبيلها. . وتقابلهم بأعلى درجات التقدير والعرفان والود لما قدموا من أجلها، وكان الحسين عليه السلام في مقدمتهم لمكانته وعظم تضحيته التي فاقت كل تضحية أخرى.

وهكذا صرح زين العابدين قائلًا: (أيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خديه فيما مسَّنا من الأذى من عدونا في الدنيا، بوأه الله منزل صدق، وأيما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من مضاضة ما أوذي فينا، صرف الله عن وجهه الأذى يوم القيامة من سخط النار)[1].

وقد روي عن الصادق عليه السلام قوله: (إن زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه

(١) الإمام زين العابدين، السيد عبد الرزاق المقرم ص ٣٤٣ نقلاً عن ثواب الأعمال للصدوق. وورد في كامل الزيادة لجعفر بن محمد بن قولويه القمي ـ المطبعة المرتضوية ـ النجف / ١٣٥٦ هـ باب ٣٤ ص ١٠٣ - ١٠٤ قوله عليه السلام : (أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذى مسنا من عدونا في الدنيا بوأه الله بها في الجنة مبوأ صدق).

أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله، فإذا حضر الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه فيضعه بين يديه فيقول: كل يا مولاي. فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، فلا يزال يكرر ذلك ويبكي حتى يبل طعامه من دموعه ثم يمزج شرابه بدموعه، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل)[1].

«أما آن لحزنك أن ينقضي..»

وقد روي أن مولى له قد هالته كثرة بكائه حتى تغمر دموعه لحيته ووجهه قد تساءل قائلًا: (يا سيدي أما آن لحزنك أن ينقضي، ولبكائك أن يقل؟ فأجابه عليه السلام: ويحك إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبياً ابن نبي، كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله سبحانه واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن، واحدودب ظهره من الغم، وذهب بصره من البكاء، وابنه حي في دار الدنيا، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين، فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي؟)[2].

وقد روي عن الصادق أيضاً قوله: (..وكان جدي إذا ذكره، بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه..)[3].

منطق الطغاة

ويحاول الطغاة وأعوانهم ومن لا يفهم منطق الحزن النبيل والاستجابة الواعية لنداءات وآلام المظلومين، ومَن يهولهم ويهزهم هذا الحزن الواعي، أن يبدوا استغرابهم منه وغم كل هذه السنين، وقد يتساءلون: أما كان أولى بهؤلاء المحزونين المكروبين أن يبكوا على رسول الله صلى الله عليه وآله أو على الأقل على علي أمير المؤمنين عليه السلام بنفس المرارة التي يبكون فيها على الحسين عليه السلام خصوصاً وأن

(١) بحار الأنوار ٤٥/ ١٤٩ وقد ورد عن الصادق عليه السلام في مناقب ابن شهراشوب إن علي بن الحسين بكى على أبيه عشرين سنة وروى الصدوق في الأمالي والخصال عن الصادق عليه السلام: وأما علي بن الحسين فبكى على الحسين عليهما السلام عشرين سنة وأربعين سنة. ومن المعلوم أن زين العابدين بقي بعد أبيه عليهما السلام مدة ٣٣ سنة أو ٣٤ سنة، غير أن رواة سيرته ذكروا أنه بكى عليه بقية حياته ـ تراجع سيرة الأئمة ٣/ ٢٠٨.

(٢) البحار ٤٥/ ١٤٩.

(٣) المصدر السابق ٢٥/ ٢٠٧.

أمير المؤمنين قد قتل هو أيضاً[١].. ويحاولون أن يجعلوا الآخرين يعجبون بدورهم من هذا الحزن القديم الذي لا مبرر له الآن بزعمهم، متناسين أن الحزن على الحسين منسجم مع حزنه هو على هذه الأمة ورغبته الصادقة لإنقاذها من الانحراف الأموي رغم علمه بالثمن الباهظ الذي كان عليه أن يقدمه في سبيل ذلك. إن على كل واحد منّا ديناً شخصياً للحسين ولكل واحد منا علاقة حميمة خاصة به، ولعل الحزن سيكون سبباً لاستنكار الظلم الواقع على الأمة والذي أراد الحسين إزالته ولو كان الثمن دمه..

القضية العادلة تبقى ماثلة في الأذهان ــ لن ننسى الحسين..

لا يبكي محبّوا الحسين على امرءٍ مات قبل مئات السنين وانتهى أمره.. وإنما يسترجعون قضية عادلة رفعت بوجه الظلم، ولا يزالون بحاجة إلى رفعها من جديد ما دام الظلم والانحراف لا يزالان يرفعان لواءهما بوجه الإسلام.

كانت قضية الحسين أبرز حدث في تاريخ الإسلام، جعل هذا التاريخ يدخل منعطفاً خطيراً لمواجهة حكام الانحراف على كل مداه فيما بعد، وإذا جاز لنا أن نحكم على المواقف والأحداث التاريخية من خلال مواقف أصحابها ودوافعهم، فإن المسلمين يرون في موقف الحسين تجسيداً للتضحية والإيثار والحب والتفاني في هذا الدين الذي أرسل لخلاص البشرية وسعادتها وأمنها واستقرارها من المستغلين العابثين.

في هذا الدين مصيرنا وحياتنا، وعلى المواقف الكبيرة كموقف الحسين تتوقف حياتنا ووجودنا ومستقبلنا. لقد أقدم على مواجهة الظلم والانحراف في الوقت الذي أحجمت فيه الأمة كلها عن ذلك ولم تجد في نفسها القوة أو الجرأة لمواجهة الحكام المستهترين الذين أعلنوا خروجهم عن الإسلام صراحة بتلاعبهم بأحكامه وتشريعاته.

---

(١) كتب ابن كثير في تعليق له على ظاهرة البكاء على الحسين عليه السلام قائلاً: (.. ولكن لا يحسبن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه، فقتل، وهم لا يتخذون مقتله مأتماً كيوم مقتل الرافضة يوم مصرع الحسين) البداية والنهاية ١٨/ ٢٠٥.

أننسى الذي ضحّى من أجلنا..

وإذ أن الحسين أقدم على ذلك، رغم علمه المؤكد بما يصيبه على يد أولئك الحكام الذين لا يتورعون عن اللجوء إلى القسوة وسفك الدماء، فإن حكمنا على موقفه لا يتمثل بمجرد إعلان التأييد والموافقة عليه، وإنما ينبغي أن يكون موقفاً متعاطفاً ينسجم وتعاطفه النبيل هو مع كل أبناء أمته وينسجم مع حزنه الكبير على المصير الذي آلت إليه في ظل حكام الجور. لقد فقدنا الحسين وتخلينا عنه في ظرف كان ينبغي علينا فيه أن نقف إلى جانبه وأن نسنده ونقدم أرواحنا دونه كما فعل أنصاره.

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى ألم الحسين لما حل بهم؟

وهل يستطيع أحد أن ينسى عظم التضحية التي أقدم عليها في سبيل كل واحد منهم؟

وهل أن مشاهد الطف كانت مجرد قدر مقدور علينا المرور به ببساطة وتناسيه لأنه أمر تقادم عليه العهد، كما يحاول البعض الإيحاء بذلك؟

أم أنها ينبغي أن تمثل أمامنا دائماً لنستمد منها العزيمة والصدق والمضاء، التي تميز بها من نصروا الحسين ووقفوا إلى جانبه..؟ ونحاول أن نسير على نفس الخط الذي سلكوه لمواجهة كل ظلم وعسف وانحراف..؟

أن تبكي على الحسين، يعني أن تفهم قضيته وتتبناها وتتمنى لو أنك كنت في عداد أنصاره وأصحابه، وتكون في مقدمة المضحين في سبيل الإسلام وأهدافه الكبيرة...

لهذا حزن زين العابدين وبكى على أبيه الحسين كل تلك المدة الطويلة..

ولهذا حزن بقية الأئمة عليهم السلام وأرادوا من الجميع أن يظهروا مشاهد الحزن على مصابهم بالحسين، فمن شأن هذا الحزن ومظاهر التفجع والبكاء وخصوصاً عند ذكرى واقعة الطف أن تجعل المشهد ساخناً والقضية حية قائمة ما دام هناك ظلم وانحراف.

زيارة الحسين عليه السلام استنكار لواقعة الطف

كما أرادوا من الجميع التشرف بزيارة قبره وقبور الشهداء من آله وأنصاره، فمن شأن هذه الزيارة أن تمنعهم ميدانياً وتعدهم نفسياً للالتقاء بتلك الصفوة المضحية من أجل الإسلام، وتذكرهم بالشرف الكبير الذي نالوه بإقدامهم الباسل على مواجهة

السيف بالدم، وتحفزهم للبحث عن طريق الحسين وقضية الحسين وبسالة الحسين. . .

وأرادوا أيضاً إحياء هذه الذكرى واستحضار وقائعها وتفاصيلها المفجعة وإنشاد الشعر فيها، فللشعر قيمته التحريضية ضد الظلم والعاطفية لشد الناس إلى الحسين وقضيته وإلى خط آل البيت عليهم السلام، بل وإنشاده بطريقة بكائية حزينة والنوح به إذا صح التعبير لزيادة التأثير واستقطاب الناس من خلال إثارة مشاعر الحزن النبيل المتعاطف الواعي.

«زوروا الحسين ولا تجفوه..»

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (زوروا الحسين ولا تجفوه، فإنه سيد شباب الشهداء ـ أو سيد شباب أهل الجنة، وشبيه يحيى بن زكريا، وعليهما بكت السماء والأرض. .)[1].

وعنه عليه السلام أيضاً: (. .وما عين أحب إلى الله ولا عبرة، من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلا وقد وصل فاطمة وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وأدى حقنا، وما من عبد يحشر إلا وعيناه باكية إلا الباكين على جدي، فإنه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه والسرور على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون. . .)[2].

وعنه عليه السلام عندما سئل في زيارة قبر الحسين عليه السلام وإنها عن بعضهم تعدل حجة وعمرة قال: (لا تعجب، ما أصاب من يقول هذا كله[3]، ولكن زره ولا تجفه فإنه سيد شباب الشهداء، وسيد شباب أهل الجنة وشبيه يحيى بن زكريا وعليهما بكت السماء والأرض)[4].

وتواترت أخبار كثيرة تروي قوله عليه السلام: (ما لكم لا تأتونه ـ يعني قبر الحسين ـ فإن أربعة آلاف ملك يبكون عنده إلى يوم القيامة)[5].

---

(١) و(٢) بحار الأنوار ٤٥/ ٢٠١-٢٠٧.

(٣) لا تعجب بالقول هذا كله. . وقد قيل إن كلامه عليه السلام محمول على التقيه. .

(٤) المصدر السابق ٤٥/ ٢١٢.

(٥) نفس المصدر ٤٥/ ٢٢٢.

وعنه عليه السلام: (..ولو يعلموا ما في زيارته من الخير، ويعلم ذلك الناس لاقتتلوا على زيارته بالسيوف، ولباعوا أموالهم في إتيانه..)[1].

وعن الباقر عليه السلام قوله: (..ثم ليندب الحسين ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبة بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً في البيوت، وليعز بعضهم بعضاً في البيوت، وليعز بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام... يقولون: عظم الله أجورنا بمصابنا بالحسين عليه السلام وجعلنا وإياكم من الطالبين بثأره ومع وليه الإمام المهدي من آل محمد..)[2] وتوجيه الإمام عليه السلام يتعدى المطالبة بمجرد التلاقي والبكاء والتعزية إلى استنكار الظلم والدعوة إلى الله أن يجعلنا من الطالبين بثأره وأن نكون مع وليه الإمام المهدي من آل محمد، إنه يدعو إلى موقف وفعل لمواجهة الظلم والثأر من الظالمين.

«من ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون»

وعن الإمام الرضا عليه السلام قوله: (..من تذكر مصيبتنا، وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب..)[3].

وتتواتر أقوال عديدة عن أئمة أهل البيت تدعو الناس للتجمع وذكر مصيبة الحسين وواقعة الطف والبكاء وإنشاد الشعر، وهي دعوة إيجابية تستهدف حث الناس على انتهاج خط آل البيت والتذكير بأمرهم وبخطهم الرسالي الصحيح...

إن تأكيد الأئمة على الشعر يأتي من كونه عنصراً إعلامياً مؤثراً ومادة يمكن حفظها وانتقالها وإنشادها بنبرات عاطفية مؤثرة، كما أن القصيدة الواحدة منه قد تعيد بعض المواقف المهمة من واقعة الطف ويمكن أن يقوم الشاعر بدور القاص بعرض بعض تلك المواقف بأسلوب مؤثر يغني عن الكثير من الحديث..

---

(١) نفس المصدر ٢٢٥.

(٢) كامل الزيارة ـ باب ٧١ ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) الصدوق ـ عيون أخبار الرضا ـ مطبعة دار العلم ـ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه أبو جعفر المفتي، قم - إيران / ١٣٧٧/ ج١/ ٧.

وهكذا حث الصادق عليه السلام الناس على إنشاد الشعر في الحسين عليه السلام بقوله:

(ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر، حتى يؤيد بروح القدس..

من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة)[1].

وقد رأينا أن العديد من القصائد والمراثي تنقلت بين الناس بسرعة مدهشة أيام الأمويين والعباسيين، وكانت تعمل عمل البيانات الشاجبة والمعارضة للحكم، لأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب وما كان يجد منشدوها حاجة لتدوينها، لذلك فإن الشعراء قالوا كل ما أرادوا قوله دون خوف أو حذر زائد.

الحزن على الحسين شجب لدول الظلم الأموية

كان الإمام زين العابدين عليه السلام قد فتح الباب على مصراعيه أمام الناس لتذكر واقعة الطف ومصاب الحسين عليه السلام فيها، والحزن والتفجع بالمناسبة السنوية التي تمر عليها بل واستذكارها على الدوام، وجعل تلك الواقعة ماثلة أمام الجميع بتفاصيلها وأحداثها الكبيرة ومواقف الناس الذين شاركوا فيها وأرخصوا نفوسهم دون الإسلام ودون الحسين عليه السلام ممثله الحقيقي وقائد الأمة الشرعي. ولم تدرك دولة الظلم الأموية الأبعاد المقبلة لبكاء زين العابدين عليه السلام على والده إلا في وقت متأخر، فمنعت كل مظهر للحزن على الحسين، إذ أن ذلك يعني شجباً لسياستها هي. أما الدولة العباسية فقد أفادت كثيراً من الدروس الأموية وعملت على اضطهاد آل البيت وأتباعهم منذ أن استقرت الأوضاع لصالحها، ورأت في مظاهر زيارة الحسين عليه السلام والحزن عليه وتذكر مصيبته ما يمكن أن يكون خطراً ماحقاً عليها فعمدت إلى محاربة ذلك وذهبت إلى حد محاولة طمس القبر الشريف وتهديمه كما جرى في عهد الرشيد والمتوكل وغيرهما من ملوك بني العباس، إلا أنها بعملها ذاك قد ساهمت ـ دون أن تعي ذلك ـ بتأجيج العواطف المؤيدة للحسين وآل البيت عليهم السلام وعواطف الشجب والإنكار لممارساتها المنحرفة التي هي امتداد لممارسات الأمويين

(١) المصدر السابق ج ١/ ٧.

والتي لم تكن تستهدف إلا تثبيت عروشها ولم يكن يهمها مشروعية الوسائل التي تلجأ إليها طالما أنها تحقق أهدافها[1]...

عبد الله بن جعفر: «والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه..»

وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، زوج زينب، وقد قتل له ابنان مع الحسين عليه السلام قد أقام مجلس العزاء على الحسين عليه السلام، وكان يرى أن خسارته في الحسين أجلّ وأكبر من خسارته بابنيه (... دخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه.. فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين. فحذفه عبد الله بن جعفر بنعله، ثم قال: يابن اللخناء اللحسين تقول هذا! والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنه لما يسخي بنفسي عنهما، ويهوّن عليَّ المصاب بهما، إنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيَين له، صابرَين معه. ثم أقبل على جلسائه فقال: الحمد لله، عز وجل على مصرع الحسين، إلّا تكن آست حسيناً يدي، فقد آساه ولدي)[2].

ولا شك أن عمرو بن سعيد والي المدينة قد تساهل حول إقامة مثل هذي التعازي، ولم ير فيها خطراً على الدولة التي يمثلها، بل لعله كان يرى فيها تسلية كبيرة وشفاء لما في صدره المزدحم بالغيظ المكبوت والحقد الشديد على آل الرسول عليهم السلام...

ويدلنا كلام لعمر بن سعد، قاله لابن زياد، إنهما يدركان أن المسلمين وأهل المدينة على الخصوص لن يكونوا راضين عن عملهما وما ارتكباه بحق الحسين وأصحابه، وأن كلّا منهما أراد إلقاء مسؤولية ذلك على الآخرين.

(قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين: يا عمر أين الكتاب الذي كتبت به إليك في قتل الحسين؟

---

(١) وقد ذكر ابن كثير ملاحظة طريقه ورد فيها أن النواصب من أهل الشام أعدوا حملات (فرح) معاندة لمظاهر (الحزن) التي عمت سائر المسلمين وليس لهم غرض من ذلك سوى معاكسة (الرافضة) وعنادهم (... وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء النواصب من أهل الشام، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ويلبسون أفخر ثيابهم، ويتخذون ذلك اليوم عيداً يصنعون منه أنواع الأطعمة، ويظهرون السرور والفرح يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم) البداية والنهاية ٨/ ٢٠٤.

(٢) الطبري ٣/ ٣٤٢.

قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب.

قال: لتجيئن به.

قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهن بالمدينة. أما والله لقد نصحتك نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص، كنت قد أديت حقه.

قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن حسيناً لم يقتل.

فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله)[1].

ويبدو أن ابن سعد كان أكثر تحسساً بخصوص نقمة الناس عليه، أما ابن زياد فكان يبدو أقل تحسساً بخصوص ذلك، وإن أراد تحسين صورته بنظر الناس. غير أننا نستنتج من حديثهما أن الناس وأهل المدينة خصوصاً سيكونون ناقمين عليهما.. وكان الأمر كذلك فعلًا. إذ كان أحد أسباب ثورة المدينة، بل السبب الرئيسي لها، نقمة الناس على يزيد وإدراكهم حقيقة ممارساته المنافية للإسلام، والتي لفت الحسين عليه السلام نظرهم إليها بشكل حاد...

أسماء بنت عقيل: «ماذا تقولون إن قال النبي لكم..»

أما أسماء بنت عقيل بن أبي طالب فكان لها دور آخر في المدينة، عندما ورد نعي الحسين عليه السلام إليها، فقد (خرجت في جماعة من نسائها حتى انتهت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فلاذت به وشهقت عنده، ثم التفتت إلى المهاجرين والأنصار وهي تقول:

(ماذا تقولون إن قال النبي لكم	يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتم عترتي أو كنتم غيبا	والحق عند ولي الأمر مجموع
أسلمتموهم بأيدي الظالمين فما	منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف إذ حضروا	تلك المنايا ولا عنهن مدفوع

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٤٢.

فما رأينا باكياً ولا باكية أكثر مما رأينا ذلك اليوم..)[1].

تأجيج مشاعر الحزن والنقمة

ولا شك أن أسماء قد أججت مشاعر الحزن على الحسين وأصحابه ومشاعر النقمة على الحكام الأمويين وأعوانهم، ولا شك أنها قد جعلت الناس تستعيد كل ما ورد بحقه عن رسول الله ﷺ، وترى أنها قد ارتكبت خطأ عظيماً بتخليها عنه وتسليمه ليزيد يفعل به تلك الفعلة المقيتة...

تبريرات وتلفيقات لإخفاء الجريمة

وكانت حملة (التبريرات) والتنصل من مسؤولية الجريمة، المضادة لحملة الاحتجاجات والشجب والاستنكار الصادرة من قبل آلامه، قد أريد منها امتصاص الغضب من ذلك العمل الشائن وإلصاقه بشرذمة قليلة من أهل الكوفة، وتجريد يزيد من مسؤولية ذلك تماماً حرصاً على أن عدم قيام أحد بلعنه فيشمل ذلك أباه الذي يحرصون أشد الحرص على تجنيبه ذلك مع أنه كان أول من لجأ إلى أسلوب اللعن هذا بحق أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وشجع عليه ونظم لذلك حملة مدروسة استمرت في عهده وبعد ذلك لأكثر من نصف قرن... (...وقد تأول عليه من قتله، إنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها. وليخلع من بايعه الناس واجتمعوا عليه. وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك والتحذير منه والتوعد عليه. وبتقدير أن تكون طائفة من الجهلة قد تأولوا عليه وقتلوه، ولم يكن لهم قتلة.

فإذا ذمت طائفة من الجبارين، تذم الأمة كلها بكمالها وتتهم على نبيّها ﷺ..! فليس الأمر كما ذهبوا إليه ولا كما سلكوه، بل أكثر الأئمة قديماً

---

(١) بحار الأنوار ٤٥/١٨٨ - ١٨٩ وروى الطبري ٣/ ٣٤٢ إنها (خرجت ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وهي تقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أساري ومنهم ضرجوا بدم

وراجع ابن الأثير ٣/ ٤٤١.

وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه، سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة قبحهم الله، وأكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة...

فلما علم ذلك ابن زياد منهم بلغه ما يريدون من الدنيا، وأخذهم على ذل وحملهم عليه بالرغبة والرهبة فانكفوا عن الحسين وخذلوه ثم قتلوه، وليس كل ذلك الجيش كان راضياً بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك، والله أعلم، ولا كرهه..

والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه، كما أوصاه بذلك أبوه، وكما صرح هو به مخبراً عن نفسه بذلك... وقد لعن ابن زياد على فعله وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه، ولا أرسل يعيب عليه ذلك، والله أعلم)[١]... ولا ندري لماذا لم يفعل ذلك ما دام قد لعنه وشتمه...؟ ولا ندري لماذا غابت عن ذاكرة ابن كثير ما رواه هو لنا عن سروره برؤية رأس الحسين وإنشاده الأشعار التي دلت على خروجه الصريح عن الإسلام وعدم اعترافه به.

ويبدو أن ردود فعل قوية تولدت من حملة شجب قتل الحسين وأصحابه بتلك الطريقة المروعة وامتد أثرها حتى في نفوس الحكام الأمويين أنفسهم، حتى لقد (كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: جنبني دماء أهل هذا البيت، فأني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين..)[٢].

---

(١) ابن كثير/البداية والنهاية ٨/٢٠٣ - ٢٠٤.

فقد ذكر لنا ابن كثير نفسه عن ابن عساكر في ترجمته ديا حاضنة يزيد بن معاوية: (إن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه تمثل بقول ابن الزبعرى يعني قوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل...)

البداية والنهاية ٨/ ٢٠٦

ومن المرجح إنه لم يعلن استنكاره لعمل ابن زياد، والذي كان هو وأبوه السبب الأول والمباشر له إلا بعد ازدياد النقمة الشعبية عليه وتحميله مسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام وكما قال الحافظ جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٩٤ (ولما قتل الحسين وبنو أبيه بعث ابن زياد برؤوسهم إلى يزيد فسر بقتلهم أولاً، ثم ندم المسلمون على ذلك، وأبغضه الناس، وحق لهم أن يبغضوه..).

(٢) العقد الفريد ٥/١٢٦.

وقد أصبح يزيد بفعلته تلك مثال الإنسان المأفون المتهور غير المتبصر وغير العاقل، وحتى بنظر الحكام الأمويين أنفسهم الذين تنصلوا من فعلته، ربما ليتقربوا بذلك من الأمة.. وقد خطب عبد الملك بن مروان هذا نفسه في أهل الشام بعيد استتباب الأمور لصالحه قائلًا: (.. أيها الناس، إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، يريد عثمان بن عفان، ولا بالخليفة المداهن، يريد معاوية بن أبي سفيان، ولا بالخليفة المأفون، يريد يزيد بن معاوية..)[1].

ووصل الأمر بأحد خلفاء بني أمية وأكثرهم عدالة ونصيحة للمسلمين أن أمر بضرب أحد الناس لأنه قال: (أمير المؤمنين يزيد بن معاوية)[2].

ثورة الحسين عليه السلام حضور دائم في الأذهان

أحدثت ثورة الحسين هزة عنيفة جعلت الأمة الإسلامية تنتبه من رقدتها وتفكر بعواقب استسلامها لحكام الانحراف والجور وتبحث عن مخرج من الورطة التي رأت نفسها فيها وقد فقدت كل المكاسب التي حققتها في ظل الإسلام.

ولعل ما شهدته من خوارق وعجائب حدثت أثر واقعة الطف[3]. وما حدث لأولئك الذين شاركوا بجريمة قتل الحسين وأصحابه (.. فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون)[4] لم يكن له أثر تلك الهزة التي صعقت الأمة عندما أدركت أنها بتخليها عن نصرة الحسين قد تخلت عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونصرة الإسلام.. وإنها قد أتاحت الفرصة ليزيد ومن سيأتي بعده للمزيد من العبث والاستبداد واللعب بمقدراتها.

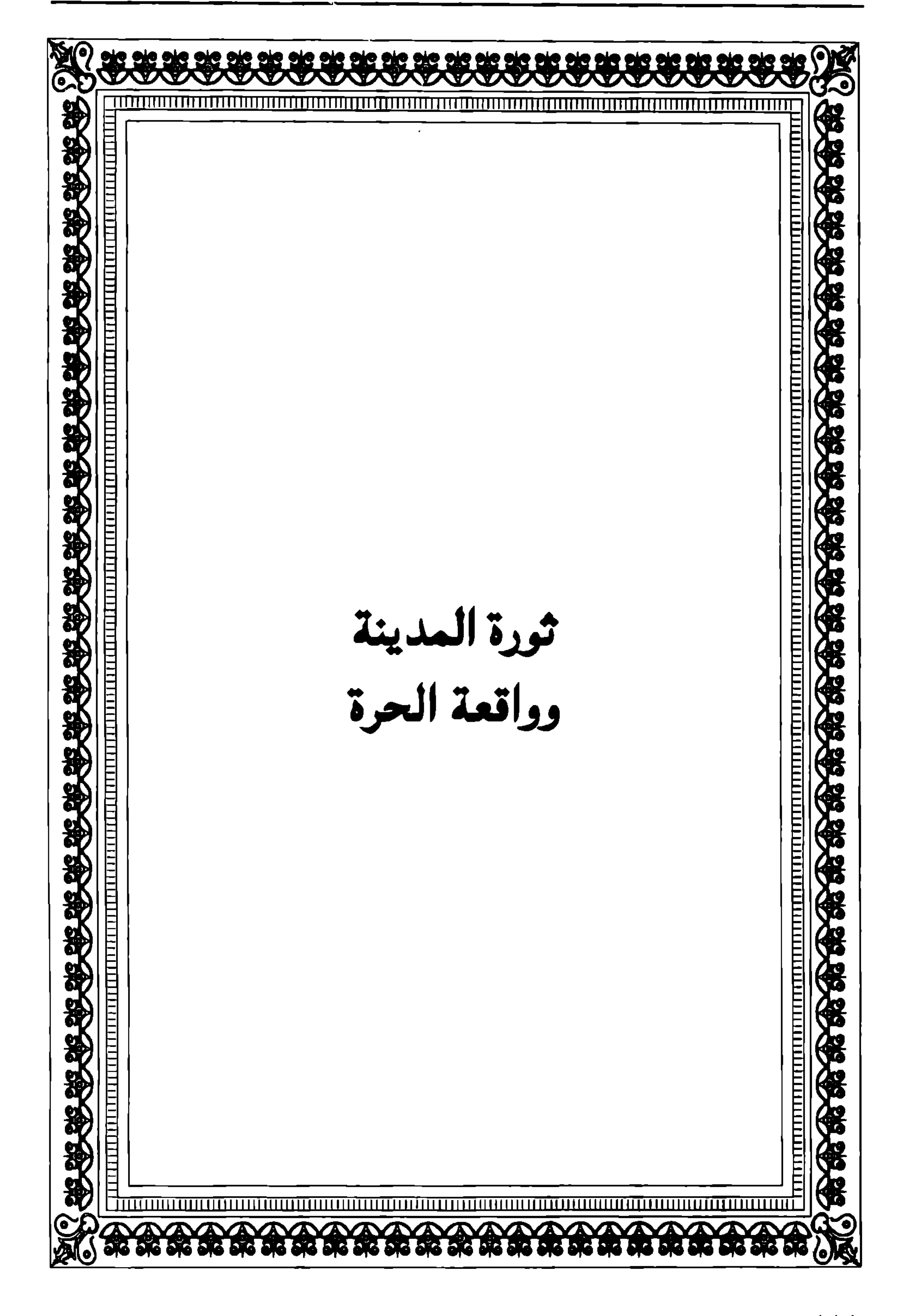
وهكذا شهدت على مر تاريخها صحوة دائمية جعلتها تنتبه بحذر إلى تصرفات حكام الانحراف وترصدها وتنقدها وتسعى لتقويمهم أو استبدالهم.

(١) المصدر السابق ٥/ ١٤١.

(٢) السيوطي/ تاريخ الخلفاء ١٩٤.

(٣) تحدثت كتب التاريخ دون استثناء عن الخوارق غير المألوفة التي حدثت بعيد واقعة الطف. ولعل هذا الأمر جدير بدراسة كاملة.

(٤) ابن كثير ٨/ ٢٠٣.



ثورة المدينة
وواقعة الحرة

ثورة المدينة وواقعة الحرة

حاضرة المسلمين الأولى

كانت المدينة المنورة ـ مسقط رأس الحسين ـ إلى عهد قصير من هذه الأحداث، وقبل أن ينتقل منها أمير المؤمنين إلى الكوفة، عاصمة الدولة الإسلامية وحاضرتها الأولى التي كانت قد احتضنت رسول الله ﷺ واستجابت له ودعته للهجرة إليها، وجعل أهلها أنفسهم أنصاراً له وأخوة للمسلمين المهاجرين معه، آخاهم رسول الله ﷺ وألّف الله بين قلوبهم[١]. حتى أصبحت قريش العاتية المتغطرسة تحسب لهم ألف حساب وهي تعد قوتها الكبيرة لمواجهتهم أو شنّ الحرب عليهم، حتى خابت في النهاية بعد كل جهودها ومناوراتها ودسائسها.

ولم تكن المدينة المنورة، قرية أو مدينة بعيدة في أقصى مكان من هذه الدولة، لا تعرف عن الإسلام شيئاً، بل كان أهلها قد عاشوا مع الرسول ﷺ واختلطوا به وراقبوا سيرته وعاشوا دقائقها وتفصيلاتها، بعد أن عاش بينهم بقية حياته الحافلة بعبق الرسالة وأنسام الوحي الأمين وهو يحمل رسالة الله إليه ليبلغها إلى الناس كافة عن طريق المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين التفوا حوله تغمرهم أطيابه وتعطرهم أنفاسه.

وقد شهدت الدولة الإسلامية أدوار نموها ونهوضها واكتمالها في هذه المدينة المباركة التي أسماها رسول الله ﷺ (طيبة) بعد أن نوّرها بطلعته وطيّبها بريحه وعبق أنفاسه المباركة، كما عاشت المراحل اللاحقة التي انتهت تلك النهاية المأساوية الأليمة، حينما رأت أعداد من المسلمين أن الخليفة الثالث لم يعد يستجيب لما كان

---

(١) قل ابن إسحٰق: (. . . وآخىٰ رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: . . . «تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ والد سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له حظير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين. .)ـ ابن هشام السيرة النبوية ١ - ٥٠٤.

ينبغي أن يستجيب له ولم يكن بنظرهم الممثل الحقيقي للخلافة، وإنه آثر أقرباءه وبعض الشباب العابثين، من الذين سبق أن ناصبوا ـ هم وآباؤهم ـ رسول الله ﷺ العداوة وتربصوا به الدوائر وكانوا ملعونين منبوذين مطرودين أيام حكومته وبعد ذلك أيضاً، وقد تمادى هؤلاء ـ في ظل قريبهم الخليفة الشيخ ـ الذي التزمهم ولم يسمع فيهم قول قائل، في سلوكهم المنحرف وابتعادهم المتعمد عن الإسلام بل حتى عن بعض الممارسات المظهرية التي كان ينبغي أن يكونوا هم أول المتمسكين، أو المتظاهرين بها على الأقل لتحسين صورهم بنظر أبناء الأمة، بحكم مراكزهم عمالاً وولاة وقادة للأقاليم الإسلامية.

الفتنة دمرت المدينة

وانتهى الأمر بأن قتل الخليفة الشيخ تلك القتلة التي جرّت الوبال والمصائب على المسلمين ـ كما ذكرنا ـ ومهّدت لقيام دولة معاوية وآل مروان بعد ذلك.

وقد حفلت حاضرة الدولة الإسلامية هذه بقوى وأحزاب عديدة، كانت النزعة القرشية الأرستقراطية المتعالية تجمع أغلبها تحت وطأة شعورها بالتفوق على بقية الناس من العرب وغيرهم بالنسب والمال الموروث والمكتسب في ظل عثمان.

لقد شعرت قريش أن عليها أن توحد صفوفها وقواها وأن تكون حزباً يكون ولاؤه لقريش نفسها ـ تحت شعار العروبة ـ ثم للإسلام ظاهرياً، ولم تر ضيراً في ذلك، بل رأت أنه أمر ضروري ما دام يضمن لها السيطرة على مقدرات الأمة وعدم خروج الأمر من يدها، وكانت لها أعذار وحجج عديدة لتحقيق ذلك.

قريش والأحزاب

وكانت سياسة العدل والمساواة الصارمة التي أخذ بها أمير المؤمنين عليه السلام نفسه والأمة الإسلامية، مضافاً إليها شعور قريش بسيطرة ذلك الذي أرادت أن تبعده عن الخلافة والحكم قبل اليوم بحجة عدم الرغبة بحجج النبوة والخلافة في ذلك النوع من قريش الذي ينتمي إليه الرسول ﷺ وأخوة علي بن أبي طالب عليه السلام [(١)]، قد

(١) قال ابن عباس: (ماشيت عمر بن الخطاب يوماً، فقال لي: يابن عباس، ما يمنع قومكم منكم وانتم أهل النبي خاصة؟ قلت: لا أدري. قال: لكني أدري. إنكم فضلتموهم بالنبوه فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوه لم يبقوا لنا شيئاً، وإن أفضل النصيبين بأيدكم، بل ما أخالها إلا مجتمعة لكم، وإن نزلت على رغم قريش..) العقد الفريد ٥/ ٣٠/ ٣١.

جعلت من هذا الحزب القرشي غير المعلن والمشدود بولاء وعهد غير مكتوب للأرستقراطية والامتيازات القرشية الهائلة في مقدمة المتصدين لأمير المؤمنين عليه السلام متذرعاً بمختلف الحجج وسالكاً مختلف الأساليب التي لا تمت للإسلام بصلة.

وإذا ما كانت النزعات الخاصة والمنافع الشخصية تجعل هؤلاء القرشيين يختلفون مع بعضهم أحياناً، فإنهم رأوا أن من مصلحتهم أن يتحدوا ضد أمير المؤمنين ويشنوا الحرب عليه، وهذا ما فعلوه منذ اليوم الأول الذي تولى فيه مسؤولية خلافة الأمة الإسلامية.

لقد فعلت قريش مع علي عليه السلام ما لم تجرؤ على القيام به مع محمد صلى الله عليه وآله بعد أن استتبت له الأمور، مع أنها شنت الحرب عليهما معاً بطرق وأساليب متعددة. انحنت لرسول الله صلى الله عليه وآله ولعاصفة الإسلام القوية الجارفة بعد أن أقبل الناس عليه دون تحفظ وبعد أن أيده الله بعنايته وعصمه من الناس، لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إليه، فهو الرسول المسدد المؤيد المعضود، زحفت إليه قريش في نهاية المطاف بعد أن التف جميع الناس حوله وأعلن إسلامه حتى مَن لم يكن راغباً في ذلك في قرارة نفسه متحفظاً متحرزاً خائفاً.

وإذ أن أمير المؤمنين قد استبعد منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة وأقصي عن مركز المسؤولية المباشرة، فإن ذلك أصبح حجة يتاح لهم رفعها كل حين للمقارنة بينه وبين الآخرين ممن تولوا زمام مسؤولية الحكم، وبين الآخرين الذين لم يتولوا المسؤولية وكانوا يطمحون إلى ذلك. رأوا أنهم أصبحوا الآن في عهد أمير المؤمنين قادرين على التخلي عن التحفظات والمخاوف بشأن التمسك بمنهج الإسلام الصائب في الحكم والحياة، وأعلنوا، بعد الحرية التي منحها لهم أمير المؤمنين حول حرية الإقامة، فهيأ بذلك حظراً طويل الأمد من قبل الخلفاء السابقين، عداوتهم الصريحة له، وذهبوا إلى حد شن الحرب عليه منذ اللحظة الأولى التي استلم فيها مسؤولية الحكم المباشر بعد أن رفض مساومتهم وإشراكهم في تلك المسؤولية التي سعوا إليها بأنفسهم.

وقد شعر أمير المؤمنين أنه لا يستطيع بذلك الجو المشحون بالعداوة والكراهية والتخرب والذي اتحد فيه كل أعدائه ـ حتى أولئك الذين كانوا أعداء لبعضهم ـ وأعلنوا وقوفهم ضده بحجج ظالمة ما كان لها أن تصمد لو لم تجد لها بعض الآذان الصاغية، وكانت مقدمة حقدهم حرب الجمل، شعر أنه لا يستطيع أن يؤدي رسالته

لإعادة الأمة إلى منهج الإسلام الصافي الصحيح ويربي أجيالًا منها على خطه الواضح دون التعرض للأحزاب التي شنت الحرب عليه والتي أخذت تستجمع قواها ثانية لجولات جديدة معلنة وغير معلنة.

أمير المؤمنين: بعيداً عن المدينة إلى الكوفة لتربية الطليعة العقائدية

وهكذا غادر المدينة إلى الكوفة ليتخذ منها حاضرة جديدة للدولة الإسلامية، وكان يريد أن يعد طليعة عقائدية من أهل العراق وأهل الكوفة بالذات، وهي قعر المعسكر المتقدم للمسلمين الذي يقوم بمواجهة مساحات جديدة دخلها الإسلام وأخرى لم يدخلها بعد ولم تستقر فيها الأمور لصالحه، وهو المقر الذي نزحت إليه طلائع جند المسلمين منذ معركة القادسية واستقرت فيه مع أبنائها وعوائلها، فلم تعش منذ البداية حياة قريش المتخربة ذات المصالح والأهواء وكانت بعيدة عن عوامل الصراع والاختلاف والفرقة، وكانت تتطلع لمن يقودها لتحقيق المزيد من المكاسب للإسلام. وقد مالت جماعات كثيرة من أهل الكوفة إلى صنعه ضد معاوية وحزبه والأحزاب المنظمة إليه، وتبنت توجهاته لتكوين المجتمع المسلم على نفس الأسس الصحيحة الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ.

الكوفة: إقبال على أمير المؤمنين عليه السلام

ولعل إقبال هذه الفئات الكبيرة من العراقيين على أمير المؤمنين وتفهمها مواقفه وقناعتها بتوجهاته الصحيحة مقابل ما شعروا به وشهدوه من انحراف وخلل سابق أثر على حياتهم وعلى حياة الأمة الإسلامية كلها، ولا يزالون يعانون منه ويشهدون آثاره، ومنها بروز معاوية والطبقات الطفيلية الجديدة كأثر واضح ونتيجة واقعة لذلك الانحراف، وشعورهم بضرورة القضاء على هذه الطبقة العدوة التي تكاد تستأثر بكل شيء، جعلت أعداء أمير المؤمنين يركزون على الكوفة ويستهدفونها بالشر والأذى ويسعون لتفتيتها وتمزيق مجتمعها الذي صوروه للآخرين وخصوصاً لأهل الشام بأنه شيعة خاصة لعلي خاصة يتبنون مواقفه وأطروحاته ويعرضون عن كل موقف آخر خاص بالخلفاء السابقين، ومن هنا جاءت حملتهم الأخرى المقصودة لحث الأمة على اعتبار مواقف الشيخين أو الخليفتين الأولين سنة، حتى إن ممثلهم دعا أمير المؤمنين للسير بسيرتهما في أعقاب الشورى التي عقدها عمر، ومن هنا كانت حملة معاوية المقصودة لحث الناس على الرواية بفضائل الخلفاء السابقين وإغداقه الأموال

على كل من يفعل ذلك مقابل حملته الأخرى استهداف أمير المؤمنين بالسباب من على المنابر والحملة الثالثة لوضع الأحداث بفضله هو وفضل آل أبي سفيان.

وإذ أن معاوية صوّر الأمر وكأن أهل الكوفة انحازوا للإمام علي وأصبحوا شيعة له لأسباب عاطفية أو نفسية بحتة لا لأسباب عقائدية، فإنه جعل من أهل الكوفة الذين حاربوه تحت لواء الإمام بالفعل هدفاً لتحركاته وركز جهوده على إسكات كل صوت معارض له فيها.. وهكذا رأينا حملة القمع الدموية الرهيبة التي قام بها فيها والتي تولاها أشد قواده دموية وعسفاً، زياد بن أبية، وقد ظلت الكوفة مستهدفة بالشر والأذى والمحاولات الدؤوبة للتفتيت والتمزق طيلة العهود الأموية وغيرها.

معاوية: استهدف الكوفة لكي تتحول عن الخط العلوي

لقد علم معاوية أن من انحاز إليه لم يكن يفعل ذلك إلا لكي يحصل على بعض المكاسب المادية وإن أولئك الذين اقتنعوا به لم يجدوا إلا سبباً واحداً طرحه عليهم وهو المطالبة بدم عثمان أو تسليم قاتليه، ولا أحد يستطيع القول إن معاوية قد جعل الكثيرين ينحازون إليه لأنه كان يمثل الاتجاه الصحيح في الإسلام وإنه كان الممثل الحقيقي لرسول الله ﷺ، كما أنه يدرك أنه لولا موقعه من أهل الشام واقتناعهم به لما استطاعَ أن يصمد في دعاواه وفي حروبه التي شنها على المسلمين وخليفتهم الشرعي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد حاول أن يضفي على تصرفاته طابعاً مسؤولاً أمام أنصاره ومؤيديه بتصوير بقية الناس ممن يتابعون أمير المؤمنين ولا يخرجون عن طاعته أو حكومته إنهم طائفة جديدة من الشيعة يختصون بعلي دون الرسول ﷺ ويسيرون وراءه دون بصيرة أو وعي ودون قضية عادلة.

وعبقرية معاوية في الشر ودأبه المستمر وحرصه على النيل من أمير المؤمنين وبقية المسلمين الذين يشايعونه ويرون في حكمه الحكم الشرعي الصحيح، جعله ينجح في محاولاته تلك ـ وخصوصاً مع أهل الشام إلى حد بعيد ـ فتتسع النظرة الخاطئة لأولئك الذين كانوا جنوداً خلف الإمام في كل معاركه إلى أن استشهد بعد مدة قصيرة من حكمه لم تصل إلى خمس سنوات، وتركهم دون أن يكمل مشواره معهم ويحقق أمنيته في الدولة الإسلامية المنشودة والقائمة على خط الرسول ﷺ، في مهب التيارات والأحزاب والعواصف ومعاوية الذي انفرد بالحكم والسلطة المطلقة غير المقيدة إلا بقانون مصالحه ورغباته وامتيازاته.

ورغم موقف معاوية وقرشيي المدينة وأعوانهم من أمير المؤمنين، إلا أن بقية المسلمين ظلت تنظر إليه وإلى آله عليهم السلام تلك النظرة التي تحفظ له مكانته، ولم يستطع حتى أعداؤه، رغم كل محاولاتهم للنيل منه إلا مجرد الادعاء بأنه تساهل مع قتلة عثمان، وربما ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فادعوا أمام أهل الشام أنه قد حرضهم على القتل، وهذا أمر لم تسغه الأمة ولم تقبله، سخفت القائلين به لعلمها بموقف أمير المؤمنين من عثمان، كما ذكرنا في هذا الكتاب. نقل عن ابن سيرين قوله: (ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس)[1] ممن أضمروا له العداوة وحرصوا على ألا يتولى مسؤولية الحكم المباشرة.

وكان هذا هو واقع الحال الذي ذكرته لنا كتب التاريخ مجتمعة.

ميل الناس للحسين عليه السلام

وبعيد صلح الإمام الحسن ومعاوية على الشروط التي اتفقا عليها ونكل عنها معاوية بعد ذلك، عاد الإمام الحسن مع أخيه الحسين إلى المدينة ليعيشا فيها حياة حافلة، حيث تحلّق حولهما آلاف من طلاب العلم ومنهم صحابة معروفون لكسب المزيد من العلم الإلهي من مصدره الأصيل، آل البيت عليهم السلام، وبعد وفاة الحسن عليه السلام كان الحسين هو المصدر الأول لهذا العلم، والأمل الوحيد المتبقي أمام الأمة لإنقاذها من الانحراف الأموي والورطة الكبيرة التي وجدت نفسها فيها. . . وكان (الناس إنما ميلهم إلى الحسين، لأنه السيد الكبير، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه)[2].

وقد رأينا كيف عملت هذه الدولة على قتله وقتل أصحابه تلك القتلة المأساوية، حاسبة أنها بذلك تستطيع القضاء على معارضة الأمة لها إلى الأبد بعد أن أسكتت الصوت الوحيد الذي ارتفع ضدها.

يزيد: قتل الحسين عليه السلام فأجّج المعارضة ضدّه

غير أن هذه المعارضة التي حسب يزيد أنه سيقضي عليها بقتل الحسين وأصحابه، قد ازدادت عنفاً واتساعاً وكانت لها مظاهر متعددة كما ذكرنا في هذا

(١) العقد الفريد ٥/ ٥٢.

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٨/ ١٥٤.

الفصل، على أن أهم شكل منظم لهذه المعارضة اتخذ صيغة التورع الشعبية تمثل بثورة المدينة والكوفة ووقوف الناس في مكة موقفاً معادياً ليزيد ودولته، وإن كان ابن الزبير قد أراد استثمار ثورة مكة لصالحه.

وربما كان الثوار والرافضون عموماً قد ندموا على موقفهم السابق من ثورة الحسين وتخليهم عنه، حتى إنهم ـ في الكوفة ـ ذهبوا إلى حد تسمية أنفسهم بالتوابين.

وكما سبق أن قلنا، فإن المدينة لم تكن بعيدة عن مواقع الأحداث ومعرفة أسبابها، ولم تكن مكاناً نائياً مهملًا لا أثر له في حياة المسلمين، وإنما كانت إحدى حواضر الإسلام المهمة ولا تزال تحتفظ بالعديد من آثار الرسول ﷺ وفيها قبره ومسجده ولا يزال فيها العديدون من آله وصحابته من المهاجرين والأنصار، ولم تزل تتمتع بقدسيتها ومكانتها لدى المسلمين، ومن هنا يأتي تأثيرها على بقية المسلمين.. فهي إذا ما وقفت موقفاً مناهضاً ليزيد، فلا بد أنها ستحرك الناس في كل مكان ضده.

ثاروا بعد أن أدركوا أبعاد الانحراف

ولم يكن خروجها على سلطة يزيد مجرد رغبة أو نزوة في نفوس أشخاص معينين ذوي تأثير على الآخرين، قاموا بثورتهم كما حاول البعض تصوير ذلك، وكما فعلوه بشأن ثورة الحسين عليه السلام نفسها قبل ذلك في محاولة لتشويهها وتشويه أهدافها.

لقد كانت الأسباب التي دعت أهل المدينة للثورة على يزيد وإخراج عامله وبني أمية منها، ـ مع أن تلك الثورة جاءت متأخرة وفي وقت وجد النظام فيه أنه يستطيع اللجوء إلى أقصى الأساليب شدة ودموية ـ هي نفس الأسباب التي دعت الإمام الحسين عليه السلام للثورة عليه ورفضه.

وقد كان قتل الحسين نفسه أحد الأسباب المضافة التي عززت ثقة أهل المدينة بموقفهم وتصميمهم على الثورة.. وجعلتهم يدركون ضرورة ثورته بوجه الدولة الأموية التي أسفرت عن انحرافها وظلمها وخروجها المتعمد اللامبالي عن الإسلام، (...لما شمل الناس جور يزيد وعماله، وعمّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه، من قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأنصاره، وما أظهر من شرب الخمور، وسيره سيرة

فرعون، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته، وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسائر بني أمية..)[1].

لقد فعل يزيد ما توقع الإمام الحسين عليه السلام أن يفعله، فقد كان يرى فيه النتاج الكامل للانحراف، ولا بد أن يفعل ما يفعله بل ويتمادى في انحرافه وشذوذه لأبعد إذا ما تولى قيادة الأمة الإسلامية.. وقد دعا الأمة إلى الموقف الذي وقفته متأخرة بعد ذلك، وكانت استجابتها له ضعيفة تحت وطأة وجودها القريب في ظل معاوية وتأثرها به وبألاعيبه ودجلهِ.

لقد أضيفت إلى الأسباب التي حذر الإمام الحسين الأمة منها، أسباب أخرى منها قتله هو نفسه عليه السلام مما شكل نهاية التمادي بانتهاك كل مقدس لدى هذه الأمة وإن كان الإسلام نفسه أو آل الرسول صلى الله عليه وآله، (فقد انتهت محنة الحسين إلى الحجاز، فكانت صدمةً لأهله وللصالحين منهم خاصة، وجعل الناس يتحدثون بها، فيكثرون الحديث، وجعلوا يعظمون أمرها. ما أكثر ما تحدثت قلوبهم إليهم، وما أكثر ما تحدث بعضهم إلى بعض حين كانوا يَخلُون، بأن سلطان يزيد قد أمعن في الخلاف عن أمر الله، فلم تصبح طاعته لازمة، بل أصبح الخروج عليه واجباً حين يمكن الخروج عليه..)[2].

الأشدق يحرّض يزيد على زينب

ولا ننس بهذا الخصوص جو الحزن الذي ساد المدينة إثر وصول خبر استشهاد الحسين وأصحابه، وموقف زينب التحريضي ضد السلطة التي حسبت أنها ستجد أناساً مقهورين مغلوبين حزانى، ولم تعتقد أن الأمر يمكن أن يصل إلى حد الثورة فيما بعد.

وقد شعر عمرو بن سعيد الأشدق بخطر تحركها وتحريضها أهل المدينة على يزيد وحكمه فكتب إلى يزيد يحذره من ذلك قائلًا: (إن وجودها بين أهل المدينة

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٣/ ٨٤.

(٢) طه حسين/ الفتنة الكبرى ٢/ ٢٤٦.

مهيج للخواطر، وإنها فصيحة، عاقلة، لبيبة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين، فأتاه كتاب يزيد بأن يفرق بينها وبين الناس)[1].

ولم يكن الجيل الذي ثار على يزيد في المدينة، جيلًا منقطعاً عن عهد رسول الله ﷺ أو بعيد العهد به، ويكفينا عندما نذكر كم قتل من المهاجرين والأنصار في واقعة الحرة، دلالة.

عودة الوعي

على أن أعداداً كبير من الأمة ممن لها وزن وثقل كبير فيها قد رفضت حالة الاستسلام التي ركنت إليها في السابق وعادت إلى حالة صحو ندمت فيها على تقاعسها عن الالتحاق بالحسين عليه السلام ورفض بيعة يزيد التي سيقوا إليها بالإكراه. فقد كان (من قتل يوم الحرة من الأنصار وقريش ثلثمائة رجل وستة رجال من الموالي وغيرهم أضعاف هؤلاء..)[2] فهي ليست ثورة عبيد ورعاع أو أناس دون هدف أو وعي أو إرادة، كما حاولوا تصويرها وتصوير الثورات الأخرى اللاحقة ضد يزيد وغيره من الحكام الأمويين، كما أنها لم تتم في وقت أحست فيه الأمة بضعف يزيد، بل على العكس من ذلك، حيث كان يزيد يبدو في قمة ازدهاره وقوته، وكان يعتقد أنه قد أحرز نصراً مبيناً على الحسين عليه السلام، وكان يبدي استعداده حينما أقدم على تلك المجزرة المروعة في الطف، على استئصال أو قمع أية شخصية أو فئة تقف موقفاً معارضاً له ولحكمه، ولم يتورع عن وصية قائده لقمع ثورة المدينة مسلم بن عقبة المري لاستعمال أشد الأساليب دموية وفتكاً، وكانت حصة بني هاشم وبني طالب

---

(١) جعفر النقدي/ زينب الكبرى/ ط النجف الأشرف ١٢٠/ ١٢٢ نقلاً عن العبيدي في (أخبار الزينبات) - راجع ثورة الحسين محمد مهدي شمس الدين - دار التعارف للمطبوعات/ بيروت/ لبنان ط ٦/ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م وراجع الانتفاضات الشيعية/ هاشم معروف الحسيني ص ٢٦٩ - دار الكتب الشيعية/ بيروت/ لبنان ط ١ - ٤٢١.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٠ وذكر ابن كثير في تاريخه نقلاً عن الزهري قوله: (أن القتلى يوم الحرة بلغوا سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف) هامش ابن الأثير ٣/ ٤٦٢ (وقتل يوم الحرة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون، ولم يبق بعد ذلك بدري/ كتاب المحن ١/ ١٥٨ راجع معالم الفتن ٢/ ٣١٧.

وقريش من هذه المقتلة عظيمة جداً (... فمن قتل من آل أبي طالب جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب وبضع وتسعون رجلًا من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء دون من لم يعرف)[1].

انفجار الموقف بعد أن عرف وفد المدينة حقيقة يزيد

وقد انفجر الموقف عندما بعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان وفداً من أهل المدينة إلى الشام، فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير ورجالًا كثيراً من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد بن معاوية.

محاولات يزيد لرشوة وفد المدينة

وقد حاول يزيد رشوتهم وأعطاهم أموالًا طائلة، وقد فعل ذلك بدافع شعوره بازدياد النقمة الشعبية عليه مما قد يؤدي إلى أن يتحول الموقف لغير صالحه.. (فلما قدم أولئك النفر الوفد المدينة، قاموا فيهم، فأظهروا شتم يزيد وعتبه، وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب ـ وهم اللصوص ـ والفتيان، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فتابعهم الناس)[2].

وقال عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر (وكان شريفاً فاضلًا سيداً عابداً، معه ثمانية بنين له: جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم، وحضّض الناس، فبايعوه)[3].

وقال المنذر بن الزبير: (إن يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم، وإنه لا

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٤ - ٨٥.

(٢) الطبري ٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥٩ وابن الأثير ٤/ ٤٥٠ وأخرج الواقدي من طرق إن عبدالله بن حنظلة.

(٣) المصدر السابق.

يمنعني ما صنع إلي أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة، وعابه بمثل ما عابه به أصحابه الذين كانوا معه وأشد)[١].

وبعث يزيد النعمان بن بشير إلى المدينة في محاولة منه لتهدئة الأوضاع هناك، وقد هددهم النعمان بأهل الشام قائلًا: (إنه لا طاقة لكم بأهل الشام)[٢] وهو تلويح لا بد أن يكون له أثره لأن تجربة المدينة معهم لم تكن مما يسرون لها، فقد أرس معاوية إليهم سنة أربعين بسر بن أبي أرطأة فدخل المدينة وطارد الصحابة وأجبرهم على مبايعة معاوية وكاد أن يفتك بهم، وقد فعل بسر الأعاجيب ولم ير لمدينة رسول الله ولا لمنبره أو مسجده حرمة، وفي عام اثنين وأربعين عندما استتبت الأمور لصالح معاوية بعد استشهاد أمير المؤمنين أرسل بسرإلى المدينة ثانية في محاولة منه للانتقام من أهلها وقد (أقام بسر بن أبي أرطأة بالمدينة شهراً يستعرض الناس، ليس أحد ممن يقال: هذا أعان على عثمان إلا قتله)[٣].

المدينة: نقمة متراكمة على النظام الأموي

لقد أقدمت المدينة على خلع يزيد بفعل نقمتها المتراكمة على النظام الأموي وعليه خاصة لتماديه في سلوكه الشائن المعلن، وعدم بذله حتى جهوداً بسيطة للتستر على ممارساته اللاأخلاقية.

لا عذر في السكوت عن يزيد ودولته المنحرفة

لم يجد أهل المدينة عذراً للسكوت عن ذلك، حتى إنهم، على حد تعبير عبد الله بن حنظلة الغسيل خافوا أن يرموا بالحجارة من السماء إن هم سكتوا أكثر من ذلك. لم يكن سكوتهم عن يزيد بدافع من توقعهم أنه قد يحسّن سلوكه في المستقبل ويكون على مستوى مسؤوليته كقائد للدولة الإسلامية، بل كان ذلك لأنهم لم يجدوا في أنفسهم القدرة على مواجهته ورفضه، وكانت نتيجة ذلك أنه تمادى في استهتاره إلى أبعد حد فأقدم على قتل الحسين وأصحابه وقطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم، في سابقة لم تعرف في الإسلام من قبل.

---

(١) الخيل قال: (والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء إنه (حجاينكم أمهات الأولاد، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة).

(٢) الطبري ٣/ ٣٥١ ـ السيوطي/ تاريخ الخلفاء ١٩٥.

(٣) الطبري ٣/ ١٧٥.

وكان استمرار يزيد وعماله وأتباعه وحاشيته على انتهاج ذلك السلوك المشين، أكبر حجة على هذه الأمة، تدينها، وتجعلها تدرك حقاً أنها قد أخطأت خطأ لا سبيل إلى إصلاحه إلا بإزالة يزيد.

لم تكن المدينة ـ رغم وجود الأحزاب فيها ـ تنظر إلى الإسلام كما ينظر إلذيه أهل الشام، ولم يكن شعور أهلها بالمسؤولية تجاه ما يحدث أمامهم، كشعور أولئك الذين أرادهم معاوية أن يكونوا كيزيد بل وأسوأ منه.

لقد استدركت المدينة أمرها فوثب أهلها على (عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومَن بالمدينة من بني أمية ومواليهم، ومن رأى رأيهم من قريش، فكانوا نحواً من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصرهم الناس فيها حصاراً ضعيفاً)[1].

ومن هذا نعلم أن المدينة لم تكن غاضبة من يزيد وحده، وإنما كانت منزعجة من هذا التيار الأموي الجامح الذي أخذ يشتد ويقوى على حساب المسلمين ومكتسباتهم التي تحققت في ظل الإسلام.

وقد أرسل بنو أمية، الذين كان يوجههم مروان وابنه عبد الملك، كتاباً إلى يزيد يستغيثون به فيه، وحدد عبد الملك موعداً لحامل الكتاب يلقاه فيه في مكان معين إذا ما عاد بجواب الرسالة التي جاء فيها: (أما بعد، فإنا قد حُصرنا في دار مروان بن الحكم، ومنعنا العذْب، ورمينا بالجَبوب، فيا غوثاه، يا غوثاه)[2].

وقد أخبر رسول مروان وابنه، يزيد بأن الناس كلهم أجمعوا على بني أمية، (فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة..)[3].

عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد: لا طاقة لنا بغزو المدينة

وتلفت أنظارنا هنا ظاهرة مهمة وهي: عدم قبول عمرو بن سعيد، والي الدولة السابق على الحجاز، وعبيد الله بن زياد والي العراق، بغزو المدينة ومكة بعد ذلك

(١) الطبري ٣/ ٣٥٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٥٢.

واعتذارهما ليزيد عندما كلفهما بذلك[١]، ولعلهما حسبا أنهما سيجاذفان إذا ما قبلا تلك المهمة، وربما حسبا أن سحب الثورة قد أخذت لتتجمع ضد يزيد في معظم أرجاء العالم الإسلامي وأخذت بوادر النقمة الشعبية تلوح في الأفق، وربما تنجح الثورة عسكرياً هذه المرة، ولم يكن امتناعهما لأنهما لم يكونا مقتنعين بضرورة قمع تلك الثورة، إلا أنهما أرادا أن يقوم غيرهما بذلك.

وقد التجأ يزيد إلى مسلم بن عقبة المري، وهو شيخ كبير مريض حاقد على أهل المدينة بشكل لا يوصف، حتى إنه قال قبيل موته بعد واقعة الحرة المروعة التي استباح فيها المدينة: (اللهم إني لم أعمل عملًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحب إلي من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة)[٢]، وكأن الله ورسوله ﷺ أوصياه باستباحة المدينة وإجبار أهلها على مبايعة يزيد على أنهم عبيد له.

وصية معاوية بشأن المدينة: «..ارمهم بمسلم بن عقبة»

وقد كان معاوية يدرك، إن الأمة التي استسلمت له وقبلت أن تبايع يزيد، ربما ستتراجع عن ذلك بعد غيابه وموته، وكما توقع أن تظهر بوادر ذلك في الكوفة وأوصى يزيد بإرسال عبيد الله بن زياد والياً عليها لقمع أي تحرك محتمل، فإنه احتمل أن تثور المدينة أيضاً بوجه يزيد، وقد أوصاه أن يرسل مسلم بن عقبة لقمعها أيضاً، وقد روى لنا (. . أن معاوية لما حضرته الوفاة، دعا يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفت نصيحته. .)[٣].

وهكذا رمى أهل المدينة بمسلم تنفيذاً لوصية والده الماكر الذي كان يتوقع

(١) قال له عمرو بن سعيد: قد كنت ضبطت لك البلاد، وأحكمت لك الأمور، فأما الآن انصارت إنما هي دماء قريش تهراق بالصعيد، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك، يتولاها منهم من هو أبعد منهم مني. . .
وقال ابن زياد: لا أجمعهما للفاسق أبداً، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغز والبيت المصدر السابق ٣/ ٣٥٢/ ٣٥٢.

(٢) الطبري ٣/ ٣٦٠.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٥٩ والعقد الفريد ٥/ ١٢٨ وابن كثير ٧/ ٢٢٤ والزوائد ٧/ ٢٥٠ وفتح الباري ١٣/ ٧١.

رفض الناس لولده وثورتهم عليه، وقد استطاع مسلم بن عقبة بمعونة بني أمية المحصورين في المدينة الذين أعطوا أهلها عهداً بألا يدلّوا مسلم على ثغراتها ثم نقضوا عهدهم، فعل ذلك عبد الملك بن مروان. ثم بفعل سياسة التهديد والعطاء التي اتبعها مع جنده[1]، أن يدخل المدينة بأولئك الجند الذين كانوا يتفوقون بعددهم على المحاربين أهل المدينة كثيراً، بعد دفاع مستميت من قبل أهلها وفي مقدمتهم أولئك الرجال الذين قابلوا يزيد فهالتهم تصرفاته الماجنة البعيدة عن أدنى حدود الأدب والأخلاق الإسلامية، حتى خافوا أن يرموا بالحجارة من السماء إن هم سكتوا عنه.

الأمويون ومروان: نقض العهود

لم يكن بوسع مسلم بن عقبة أن يتغلب على أهل المدينة لولا نقض بني أمية العهد الذي قطعوه على أنفسهم أن لا يبغوهم غائلة، ولا يدلوا لهم على عوده ولا يظاهروا عليهم عدواً، وجعلوا ذلك شرطاً للسماح لهم بالخروج من المدينة، غير أن عبد الملك بن مروان قدّم خطة كاملة يستطيع بموجبها مسلم أن يقتحم المدينة ويتغلب على المعركة.

---

(١) عندما صدر أمر يزيد لمسلم بالتوجه نحو المدينة، خرج مناديه فنادى: (أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساته، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل) الطبري ٣/ ٣٥٣

وقد نادى مسلم في أهل الشام عند اشتداد القتال عندما قتل غلامه وحامل رايته:

(يا أهل الشام، أهذا القتال قتال قوم يريدون ان يدفعوا به عن دينهم، وإن يُعزّوا به نصر أمامهم، قبحّ الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبي وأغيظه لنفسي، أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا العطاء، وأن تجمّروا في أقاصي الثغور، شدّوا مع هذه الراية، ترّح الله وجوهكم إن لم تعتّيبوا فمشئ برايته، وشدّت تلك الرجال أمام الراية، فضرع الفضل بن عباس، فقتل وما بينه وبين المناب مسلم بن عقبة إلا نحو من عشر أذرع.. المصدر السابق ٣/ ٣٥٥.

نفس المصدر ٣/ ٣٥٤ وقال لهم محرضاً: (يا أهل الشام، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عددا، ولا أوسعها بلدا، ولم يخصصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فخيّر الله بهم، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة، يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفلج..) نفس المصدر ٣/ ٣٥٦.

قال له عبد الملك: (. . أرى أن تسير بمن معك، فتنكب هذا الطريق إلى المدينة، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها نزلت، فاستظل الناس في ظله، وأكلوا من صقره، حتى إذا كان الليل أذكيت الحرس الليل كله عقباً بين أهل العسكر، حتى إذا أصبحت، صليت بالناس الغداة، ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار، ثم أدرت بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً، ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم وطلعت الشمس، طلعت بين أكتاف أصحابك، فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها، ويصيبهم أذاها، ويرون، ما دمتم مشرقين، من ائتلاق بيضكم وحرابكم، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحكم، ما داموا مخرّبين، ثم قاتلهم، واستعن بالله عليهم، فإن الله ناصرك، إذ خالفوا الإمام، وخرجوا من الجماعة، فقال له مسلم: لله أبوك! أي امرىء ولد إذ ولدك، لقد رأى بك خلفاً. .).

عبد الملك بن مروان: أعدّ الخطة لمسلم بن عقبة لغزو المدينة إباحة الدماء والأعراض وقتل الصحابة

وقد نفّذ مسلم خطة عبد الملك، واستطاع التغلب على أهل المدينة بعد قتال ضار، وقد (أباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس، ويأخذون الأموال، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة، فدعا الناس للبيعة، على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية، يحكم في دمائهم وأموالهم، وأهليهم ما شاء)[1].

(. . . فمن امتنع من ذلك قتله)[2]، (قتل فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم، ونهبت المدينة، وافتض فيها ألف عذراء. .)[3] (. . من بنات المهاجرين والأنصار. .)[4] (فقيل إن الرجل من أهل المدينة كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرة)[5] (وقتل يومئذ من المهاجرين

---

(١) الطبري ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩ وابن كثير والعقد الفريد ٥/ ١٣٠ وابن الأثير ٣/ ٤٦٠.

(٢) ابن الأثير ٣/ ٤٦٠.

(٣) تاريخ الخلفاء/ السيوطي ١٩٤/ ١٩٥.

(٤) الفصول المهمة/ الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي وابن كثير ٨/ ٢٣٩ والحقائق الكبرى ٣/ ٢٤٠ ط ٥ ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٥) ابن الطقطقي/ الفخري ص ١٠٧.

والأنصار وأبنائهم وسائر المسلمين اللائذين بضريح سيد النبيّين ﷺ ١٠٧٨٠ رجلًا، ولم يبق بعدها بدري)[١] (وقتل من النساء والصبيان عدد كثير، وكان الجندي يأخذ برجل الرضيع فيجذبه من أمه ويضرب به الحائط فينتثر دمه على الأرض وأمه تنظر إليه..)[٢].

(ولم يترك أولئك الغزاة حرمة من حرم الإسلام إلا وانتهكوها، حتى إن المرأة والفتاة كانتا تلوذان بمحراب رسول الله ﷺ، فلا يتورع الغزاة من أن يرتكبوا معهن في مسجد الرسول ومحرابه ما يشتهون)[٣].

و(كان مسلم بن عقبة يقول: من جاء برأس فله كذا وكذا، ومن جاء بأسير فله كذا وكذا، وجعل يغري قوماً لا دين لهم، فقتلوا ما لا يحصى ولا يعد)[٤]، وقتل يوم الحرة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون ولم يبق بعد ذلك بدري)[٥].

وكما فعل ابن زياد برؤوس الحسين وأصحابه عليهم السلام، عندما بعث بها على الحراب إلى يزيد، قام ابن عقبة بفعل مماثل، إذ احتزّ رؤوس قادة الثورة في المدينة وأرسلها إليه أيضاً وأصحابه، (..فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعري يوم أُحد:

شماتة بأصحاب الرسول

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً   ولقالوا يا يزيد لا تشل

فقال له رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين؟

قال: بلى نستغفر الله.

---

(١) الفصول المهمة ص ١١٧ نقلاً عن ابن قتيبة في الأمان والسياسة.

(٢) و(٣) الفصول المهمة ص ١١٧ والانتفاضات الشيعية عبر التاريخ/ هاشم معروف الحسيني/ دار الكتب الشعبية/ بيروت/ لبنان ط ١/ ٤٢٥.

(٤) و(٥) معالم المفتي ٢/ ٣١٧ عن كتاب المحن ١/ ١٥١.

قال: والله لأساكنتك أرضاً أبداً، وخرج عنه)[1].

إباحة المدينة: هل كان مجرد خطأ

ونعود إلى ما ذكره المؤرخون حول إباحة المدينة، وتعليق بعض السلف على ذلك، (أباح مسلم بن عقبة الذي يقول فيه السلف، مسرف بن عقبة ـ قبحه الله من شيخ سوء ما أجهله ـ المدينة ثلاثة أيام، كما أمره يزيد، لأجزاه الله خيراً، وقتل خلقاً من أشرافها وقرائها وانتهب أموالاً كثيرة منها، ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكر غير واحد، أباح المدينة يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال، ووقعوا على النساء، حتى قيل أنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج.

وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف مما لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بقبض قصده وحال بينه وبين ما يشتهيه، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر)[2].

لقد انتفضت المدينة، غير أن انتفاضتها قمعت بقسوة، ولربَّ من يتساءل عن مشروعيتها ويقيسها بالمكاسب التي ربما تكون قد حققتها. كما يقيس نجاحها بذلك أيضاً، وطالما أن الثورة قد فشلت عسكرياً، وبقي يزيد في الحكم خليفة (وأميراً للمؤمنين)، فإنه لا بد أن يكون على حق، ومن ثاروا عليه على باطل، ما داموا لم يستطيعوا تحقيق نصر عسكري وما داموا قد قتلوا وأرسلت رؤوس قادتهم إلى يزيد.

وبعد أن (جازفوا) بالتعرض لقوة أكبر من قوتهم، وهي قوة الدولة الأموية الكبيرة المستطيلة الممتدة.

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٣٠ وقد ورد في عدة كتب تاريخية موثوقة إنه قالها عند ورود رأس الحسين وأصحابه عليه السلام إليه في الشام، ومن المرجح أنه أخذ يردد الأبيات ثانية عند ورود رؤوس ثوار المدينة. . . .

(٢) ابن كثير ٨/ ٢٢٣ - ٢٢٥.

معاوية: عرّاب غزو المدينة رغم تحذيرات رسول الله ﷺ

وإذا ما نظرنا نظرة جدية إلى الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ بشأن المدينة وأهلها[1]، فإن جريمة يزيد ومعاوية ـ المسبب الحقيقي للكارثة التي لحقت بالمدينة لأنه هو الذي أوصى بإرسال مسلم بن عقبة لإباحتها ـ تتضاعف مرات عديدة، لأن الذي فعل بالمدينة ما فعل، وهي المدينة المقدسة ذات المكانة الخاصة من رسول الله ﷺ الذي حذر بشدة وبشكل صارم من إخافتها ونيلها بسوء، لا بد أن يكون مستعداً لهتك أعراض جميع المسلمين واستباحتها إذا ما خرجوا عن طاعته وسلطانه.

كيف يستطيع أحد ـ مهما حاول تبرير أعمال معاوية وتوصيته ليزيد لإرسال مسلم بن عقبة لحرب المدينة ـ أن يوفق بين (اجتهاداته) و(اجتهادات) يزيد من بعده لغزو المدينة، وبين أحاديث الرسول ﷺ الواضحة بخصوص ذلك؟ أكان مقدراً أن تكون حياة معاوية وأفعاله، سلسلة من (الاجتهادات) المخالفة لنصوص القرآن ورسول الله ﷺ..؟ وهل تحصى مخالفات معاوية التي أعطاها أعوانه وتابعوهم اسم (الاجتهاد)، مع أنها كانت تبدو عبثاً واضحاً وخرقاً صريحاً للإسلام..؟

لقد كان أمراً مفزعاً أن يقوم يزيد بما قام به في المدينة، وبذلك وسع الباب الذي فتحه والده لهتك حرمة المسلمين وأعراضهم وحرياتهم[2]، وإنه لأمر رهيب أن

---

(١) قال رسول الله ﷺ : (من أخاف أهل المدينة، أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا) أخرجوا أحمد من حديث السائب بن خلاد بطريقين ـ ص ٥٦ ج٤ ـ مسند أحمد وابن كثير ٨/ ٢٢٦.

وقال ﷺ : لا يريد أحد بالمدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح. (رواه البخاري الصحيح ١/ ٣٢٢.

وقال ﷺ : (من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء) البخار الصحيح ١/ ٣٢٢ وصحيح مسلم ٤/ ١٢١.

وقال ﷺ : (من أخاف أهل المدينة أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين). رواه أحمد/ كنزل العمال ١٢/ ٢٣٨.

وقال ﷺ : (من أخاف أهل هذا الحي من الأنصار، فقد أخاف ما بين هذين)، ووضع يديه على جنبيه. ابن كثير البداية والنهاية ٨/ ٢٢٣ عن الدارقطني..

(٢) كانت السابقة في ذلك لمعاوية الذي سبئ نساء همدان، فأقمن في السوق، وكشف عن سوقهن، فأيتهن كانت أعظم ساقاً اشتريت على عظم ساقها، فكن أول مسلمات سبين في الإسلام الفصول المهمة ص ١٣٣ عن ابن عبد البر في/ الاستيعاب..

يتوقع أحد من المسلمين أن يحدث له ما حدث لأهل المدينة من قبل وأن يستباح ماله وعرضه ودينه.

ولا بد أن المدينة كانت مستهدفة بالحقد الأموي، وإذ أن أبا سفيان لم ينجح في اقتحامها وإباحتها، واكتفى معاوية ـ عندما أرسل بسر بن أبي أرطأة إليها بقتل العديد من أهلها وإهانتهم ـ فإن يزيد قد حقق كل ما كان البيت الأموي يطمح لتحقيقه وفعله بأهل المدينة، وأثبت أنه جدير حقاً بالانتماء لذلك البيت المعادي للإسلام منذ البداية.

هل مشكلة المسلمين الآن لعن يزيد؟ المائعون الراتعون

ومع ذلك يأتي المائعون الراتعون في نعيم (أولياء الأمور وإن كانوا فسقة) من (الخلفاء) و(أمراء المؤمنين) ممن هم على شاكلة (أمير المؤمنين) يزيد ليعلنوا معارضتهم لمن قد يقوم بتوجيه اللوم إلى يزيد أو لعنه (لئلا يجعل لعنه وسيلة إلى أبيه أو أحد من الصحابة)[1].

أما أبوه، فإنه ـ دون شك ـ لا يستحق ذلك. . !! فكأنه لم يعد لهذه الجريمة بالذات ولم يبيّت لها مسبقاً لأنه كان يعلم حق العلم أن هذه الأمة لا بد أن ترفض يزيد وتتصدى له بالسيف بعد أن تدرك الخطأ الفادح الذي استدرجت إليه فبايعته.

هل يزيد من الصحابة؟

ولا ندري ما علاقة الصحابة بيزيد، ثم ألم يقتل هو منهم في هذه الواقعة أكثر من ثمانين شخصاً حتى لم يبق بدريّ؟

كيف يكون لعن يزيد وسيلة للعن الصحابة؟ أترى أنه صحابي أيضاً كأبيه الصحابي. . !!

وهذه من ألاعيب معاوية القديمة التي مرّرها من خلال رواة الأحاديث المأجورين الذين ادعوا أن كل من عاصر الرسول ﷺ ولو لساعة واحدة ولم تكن معه صحبة حقيقية، إنما هو صحابي، ويكفيه أنه عاش في عصره، ولا بد أن تعود إلى ذاكرتنا محاولاته الدؤوبة لتمرير مخططاته وخلط أوراقه مع أوراق من سبقوه من

---

(١) ابن كثير ٨/ ٢٢٧.

الخلفاء، ويصور كل رافض له على أنه رافض دائمي حتى من سبقه منهم، وقد أراد بذلك وبالحديث الذي مرّره بخصوص عدم التعرض لصحابة الرسول ﷺ باعتبار أنهم كالنجوم الزاهرة «بأيهم اقتديتم اهتديتم» منع نقده والتعرض له. إضافة لمحاولاته تأكيد صحبته للرسول ﷺ وإنه من كتاب الوحي وخال المؤمنين.. مع أنه لم يكن سوى كاتب عادي لمدة محدودة من الزمن.. أما خؤولته للمؤمنين فما نحسب إلا أنها من دعاباته التي كان مولعاً ببثها ونشرها.

تأول فأخطأ.. هل هذه فرحة

ويروح أولئك الراتعون في خيرات الدولة ونعيمها وبحبوحتها يخففون من آثار الكارثة التي حلت بالمسلمين في واقعة الحرة، ويحملون (الرافضة) مسؤولية شن حملة ظالمة على يزيد الذي لم يكن (زنديقاً)، وكان مجرد فاسق وعابث وشارب للخمر وتارك للصلاة، (...ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة لم يذكروا عنه، وهم أشد الناس عداوة له إلا ما ذكروه عنه من شرب الخمر وإتيانه بعض القاذورات، ولم يتهموه بزندقة كما يقذفه بذلك بعض الروافض)[1] أما هم، فقد (حملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات على أنه تأول فأخطأ، وقالوا: إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدم الحرام ونهب الأموال وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن وغير ذلك مما كل واحدة منها من الفساد إضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا...)[2].

وهكذا فإن المسؤول الوحيد عما وقع لأهل المدينة هم أهل المدينة، ولا شأن

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٢٣٥ ومع ذلك يقول عنه: (وقد روي ان يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرده، وما من يوم إلا يصبح فيه مخموراً. وكان يشد القرد على فرس مسرحه بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه. وقيل إن سبب موته انه حمل قرده وجعل ينقزها فعضته، وذكروا عنه غير ذلك، المصدر السابق /٨/ ٢٣٩.

(٢) نفس المصدر ٨/ ٢٢٧.

لأحد سواهم بذلك، وأخرجوا لنا قصة جعلوا ابن عمر بطلًا لها ورووا لنا عن لسانه أحاديث ادعى أنه سمعها من رسول الله ﷺ، ولربما ادعى ذلك فعلًا لكسب ودّ يزيد أو دفع أذاه.

(لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهّد ثم قال: أما بعد، فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله أن يبايع رجل رجلًا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته. . .)[1].

ويروون عن ابن عمر أيضاً قوله عن رسول الله ﷺ: (من نزع يداً من طاعة، فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية)[2].

وهكذا جعلوا ليزيد الحق فيما فعل. ولعلهم حمّلوا ابن عقبة وحده مسؤولية ما وقع لأهل المدينة، الذين كانوا مسؤولين بدورهم لأنهم غدروا بيزيد الذي بايعوه على بيع الله ورسوله ثم نكثوا بيعتهم لمجرد أنه كان فاسقاً.

ماذا سيقولون لرسول الله ﷺ

لو وقف هؤلاء أمام رسول الله ﷺ وادّعوا ما ادّعوه هنا، هل كانت ستصمد لهم حجة أو كذبة؟ وهل أن مجمل حياة رسول الله ﷺ وسيرته كانت تمهد للقيادات الفاسقة والنحرفة؟ ألا تبدو هذه (الأحاديث) المدسوسة وكأنها موضوعة لتمرير جرائم يزيد وأشباهه ولإبعاد الإسلام والقيادة الشرعية للمسلمين عن الساحة نهائياً؟

هل تحمل المسلمون ما تحمّلوا، وقتل منهم من قتل لتنتهي مسيرة خاتم الديانات هذه النهاية المفجعة، وليكون يزيد وريث آلاف الأنبياء والرسل وممثل رسول الله ﷺ نفسه وخليفته. . ؟

كيف حصل أن راجت أمثال هذه (الأحاديث)، إن لم تكن الأجواء التي قيلت وانتشرت فيها مشابهة لتلك التي كانت سائدة أيام يزيد، وكان همّ الحكام منع الناس

(١) و(٢) نفس المصدر السابق ٨/ ٢٣٦.

من الخروج عليهم وانتقادهم، أليس هذا هو الأمر الواقع.؟ من يجرؤ في ظل حكام كهؤلاء أن يكذّب ابن عمر ما دام من مصلحتهم أن يصدّق الناس جميعاً بذلك...؟

هل يبدو أن هذا الأمر ممكن الحدوث في منطق الإسلام ومنطق رسول الله ﷺ؟ أن تقبل الأمة الفاسق والظالم والجائر والمنحرف لمجرد أنها تخاف الفتنة والهرج..؟ وهل فتنة أشد من أن يكون رأس هذه الأمة وإمامها مثل يزيد..؟ ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ نفسه يطلب منها أن تطيعه وتخضع له وتسلمه قيادها وكل مقدراتها؟

كيف نستطيع أن نفهم هذا الأمر. رسول الله ﷺ يدعو ليزيد.!

هل إن علماءنا يناقشون هنا موضوعاً جدياً. أم أنهم يعبثون..؟

ولنظل نستمع إلى أقوال أولئك العابثين اللاعبين.

لماذا تساهمون في الجريمة وأنتم لم تشهدوها؟

(..وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد لما بلغه خبر أهل المدينة، وما جرى عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه فرح بذلك فرحاً شديداً، فإنه كان يرى أنه هو الإمام وقد خرجوا عن طاعته وأمروا عليهم غيره، فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة كما تقدم، وقد جاء في الصحيح: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان.

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حلت بفناهم ركبها	واستجر القتل في عبد الأشل
قد قتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	ملك جاء ولا وحي نزل

فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن كان لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه ليشنع به عليه..)[1].

(١) نفس المصدر ٨/ ٢٢٧.

ونتساءل: هل كان إنذار يزيد أهل المدينة حجة عليهم ليكفّوا عن ثورتهم ضده لمجرد أنهم كانوا قد بايعوه في عهد أبيه في ظل الإرهاب والقسر والرشوة؟ وهل إن مجرد طلب الحاكم الفاسق الظالم الخارج عن الإسلام، أن تكف الأمة عن ثورتها واحتجاجها عليه وانتقاد تصرفاته وتصرفات عماله يبرر له أن يفعل ما فعل يزيد بأهل المدينة؟

هل المشكلة فيما قاله يزيد أو فيما فعله؟

ولنفترض أن يزيد لم يقل هذه الأبيات ـ مع أن العديد من المصادر التاريخية الموثوقة قد روت لنا أنه قال ذلك ـ هل يخفف هذا من جريمته مع أهل المدينة، ناهيك عن جرائمه الأخرى مثل قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وضرب الكعبة الشريفة بالأحجار، وهل يبرءه ذلك عن ذنوبه العديدة الأخرى..؟

(والغريب المنكر من هذا كله هو تجاوز الحد والغلو في الإثم، فقد كانت السياسة تقتضي أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى طاعته، فأما المثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين وحده، وإنما تنكرها السياسة أيضاً. وتنكرها السنة العربية المعروفة، وهي بعد ذلك تحفظ الصدور وتملأ القلوب ضغينة وحقداً. وقد أحفظ يزيد أهل الجماعة أنفسهم...)[1].

خصال يزيد: هل كانت تؤهله لحكم الأمة الإسلامية؟

وإذا ما أراد أحد أن يقف في صف يزيد فإنه لا يستطيع أن يقول فيه أحسن مما يقال فيه هنا، مع أن هذا لا يشرّف صاحبه ولا يسعده، إن كان يشعر حقاً أنه ينتمي للإسلام ويحمل هويته، فقد (كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات وإماتتها في غالب الأوقات)[2].

لا شيء ذو خطر كبير يدعو للقلق من سلوك قائد الأمة الإسلامية وإمامها وقدوتها..! فهل كانت الأمة لا تجد فيها أحداً لا يملك هذه الصفات الفريدة كحد

---

(١) الفتنة الكبرى ـ ٢/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) ابن كثير ٨/ ٢٣٣.

أدنى، لتلجأ إلى يزيد، ويزيد وحده لتنصبه خليفة للمسلمين. . ؟ وهل كانت هذه مواصفات (الخلفاء) من قبله، حتى تقر كمواصفات نموذجية ليزيد ولكل (خليفة) مرتقب؟

مواصفات خليفة أم عامل صغير من عمال الخراج

ونعيد هنا ما سبق أن أشرنا إليه من قبل: إننا نتكلم عن خليفة للمسلمين لا عن ساق للنبيذ في حانة من حانات الخمارين أو نديم للسكارى والعابثين والماجنين في عصر جاهلي بعيد عن قيم الإسلام وتصوراته ومواصفاته وأخلاقه، إننا نتحدث عن قائد المسلمين وقدوتهم ومثلهم الأعلى الشاخص الحي الماثل أمامهم وممثل وخليفة رسول الله ﷺ.

هل يريد من يتكلم بهذه الطريقة العابثة اللاهية عن يزيد أن يثير أعصاب المسلمين. . ؟ هل يوجد حقاً من يفكر بهذه الطريقة، اللهم إلا إذا كان من يفعل ذلك قد تعرض لعملية غسيل دماغ كبرى زُجّ فيها (السلف الصالح) كطرف غير معترض على يزيد، بل وراغب فيه باعتباره يحقق (وحدة الأمة) ويمنع الهرج والفوضى، وغالباً ما يجد في جعبته من هؤلاء السلف من يفعل ذلك ويقول به ما دام قد عاش في بحبوحة الدولة الغاشمة واستمتع بخيراتها وما منحته إياه من امتيازات، أو كان من أولئك الذين يرون مصلحتهم الوقوف في صف الدولة الظالمة، ولا يهم إذا ما ظلم غيره أو قتل أو أبيح عرضه أو ماله. . ألسنا نجد في كل وقت العديد من أمثال هؤلاء؟

ثورة المدينة ــ استنكار لتمادي الدولة في الانحراف

كانت ثورة المدينة أحد ردود الفعل المفاجئة على سلوك القيادة الأموية المنحرفة بقيادة يزيد، وكانت ثورة متأخرة لم تستطع أن تكون بمستوى ثورة الحسين التي ألهبت المشاعر ولفتت الأنظار إلى الأخطار المحدقة بالأمة نتيجة وجود قيادة منحرفة كقيادة يزيد. . ومع أن المدينة قد أدركت أن عملها هذا جاء في وقت متأخر، ورغم هزيمتها العسكرية وما لحق بها من شر وأذى على يد يزيد وقواده وأعوانه، فإنها جعلت الأمة على يقين من انحراف القيادة الأموية نهائياً وإن لا أمل في إصلاحها، وإنها قد برهنت بأعمالها المشينة أنها بعيدة عن الإسلام، بل إنها لا تمت إليه بأية صلة رغم ادعاءاتها الطويلة العريضة بأنها الممثل الوحيد للإسلام والجهة الوحيدة المخولة بالتصرف في شؤون الأمة والذي ينبغي عليها أن تقبله وتعلن تعلقها به.

لقد برزت حالات فردية نادرة أظهر فيها الثوار حماساً منقطع النظير للتصدي للجيش الأموي المبعوث من الشام، وعبروا عن انتمائهم الحقيقي للإسلام عندما أقدموا على الموت بنفس الحماس الذي أقدم عليه أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، وأثبتوا أن الحالات البطولية النادرة ممكنة التكرار في أي وقت، وأن من تصدوا للظلم والانحراف والفساد في عهد قريب من عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يستطيعون القيام بذلك مرات ومرات وإن امتد الزمن وبعدت المشقة عندما يشتري الظلم والانحراف والفساد في مجتمعهم وفي مجتمعات المسلمين عموماً.

أسفر الانحراف.. لا داعي للتستر

غير أن حقيقة مهمة تبرز أمامنا، ونحن نتحدث عن الحقبة التاريخية التي وقعت فيها ثورة المدينة، وهي: إن الانحراف أسفر عن وجهه نهائياً الآن، ولم يعد قادة الدولة وفي مقدمتهم يزيد يرون أي حرج من إظهار ممارساتهم الشاذة التي لا تمت للإسلام بصلة بل وتلك التي يستهجنها ويدعو للابتعاد عنها. حتى ليذهب قائدهم إلى حد التمثل بأقوال أحد أعداء الإسلام القدامى التي يكذب فيها مسألة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويمكن القول: إن الانحراف قد (ازدهر) وبلغ ذروته في أعقاب إقدامه على جريمة الطف في كربلاء، وذلك ما توقعه الحسين عليه السلام عندما خاطب الجيش الذي أرسل لقتاله: (... أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله، فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي...)[1]...

رأت الدولة أن جريمتها مرت دون عقاب، وحزمت أمرها على قمع أي صوت معارض آخر قد يجرؤ على انتقادها أو المطالبة بدم الحسين عليه السلام، وبدا الأمر لها وكأنها قد نجحت بإسكات آخر صوت معارض لها عندما قتلت الحسين، رغم علمها بمكانته في الأمة ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأي امرىء مثل الحسين في مكانته حتى لا يتوقع أن يحمل به ما حل به عليه السلام إن هو هاجم الدولة واعترض على تصرفات قادتها وسلوكهم المشين..!

(١) اللهوف/ ص ٥٠.

بعد الطف: تمادي دولة الظلم في الجرائم

كان الحسين عليه السلام يتوقع أن تتمادى دولة الظلم الأموية في جرائمها وانحرافها وأن تقدم على سفك المزيد من الدماء بعد أن لم تهب قتله ورأته أمراً عادياً وبعد أن تمر الجريمة دون ردع قوي من قبل الأمة؛ وهو ما حصل فعلًا، مرت الجريمة دون عقاب وبدا أقطابها سعداء بما حققوه وبدوا مستعدين لارتكاب المزيد من الجرائم وحمامات الدم إذا ما بدا لأحد أن يقف في وجوههم ويعترض مسيرتهم التي بدت قوية كاسحة.

في ذلك الظرف، وفي غمرة شعور يزيد وأقطاب حكمه بالنشوة والقوة واستتباب الأمور لصالحهم، أعلن أهل المدينة ثورتهم ضده، وهو توقيت بدا غير موفق في ذلك الحين، لأن المدينة لم تكن تتمتع بالقوة التي كانت تتمتع بها الشام المتلهفة والمندفعة للبطش بكل أعدائها، والمدينة ـ لا شك ـ كانت في مقدمة قائمة الأعداء.

لم تكن الثورة مدروسة، كما أن نتائجها المتوقعة لن تبدو بمثل النتائج التي حققتها أو سوف تحققها ثورة الحسين، وكل ما حققته هو أنها أثبتت صحة ما رآه الحسين عليه السلام في دولة الظلم الأموية اليزيدية.

لقد أراد الحسين عليه السلام كشف انحراف تلك الدولة وابتعادها عن الإسلام وعداوتها له، وكان ثمن ذلك دمه ودماء أصحابه الزكية، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً، ونجح بعزل جماهير الأمة عن القيادة المنحرفة، وإن بدت تلك الجماهير في الظاهر غير معترضة على ممارساتها وشذوذها.

إباحة المدينة كشف واقع القيادة الأموية

إن تنكيل يزيد بأهل المدينة بتلك الصورة المروّعة التي تبعث الألم والإشمئزاز في نفوس المسلمين على مر الأيام، كشف عن واقع القيادة الأموية المتسلطة على رقاب الناس، فهل حصل أن اغتصبت الآلاف من نساء المسلمين على أيدي أفراد الجيش الذي كان من المفترض أن يدافع عنهن ويحمي أعراضهن لأن ذلك كان ضرورياً لبقاء الإسلام والدولة الإسلامية. أم أن ذلك قد حدث وحدث معه المزيد من سفك دماء النساء والأطفال ـ الذين لم يشاركوا في القتال دون شك ـ لأن إرادة شريرة أرادت إرهاب الأمة إلى الأبد والتلويح لها أن ما يحصل مع أهل المدينة يمكن أن يحدث بسهولة لكل من تحدثه نفسه بالوقوف بوجهها، ولأن تلك الإرادة الشرّيرة

أرادت إشعار الجميع أن دولة الظلم التي ولدت في أيام معاوية وجدت لتبقى وتعيش في عهد يزيد وفي العهود اللاحقة وأنها ستتصدى بمثل العنف الذي تصديا به للأمة المسلمة في عهديهما. ؟

ولئن وجد معاوية نفسه غير قادر ـ عندما أرسل بسر بن أبي أرطأة لغزوها ـ على استباحتها بالشكل الذي حققه يزيد، لأنه كان يحاول الظهور بمظهر الحريص على الإسلام وكان يخدع بذلك فئات عديدة من المسلمين، فإنه وجد أن يزيد المكشوف للأمة والذي فرض عليها وأصبح خليفة له، كان يستطيع تحقيق ما عجز هو عنه، وهكذا أوصاه أن يرمي المدينة بمسلم بن عقبة، وربما كانت له وصايا سرية أخرى لم تكشف للناس، وكانت حجته التي أعدّها وراح يرددها وراءه فقهاء الدولة المأجورون وواضعوا الحديث وصنّاعه. لماذا تحرشتم بيزيد وأنتم تعلمون فسقه وعدم تورعه عن فعل أي شيء مع أن رسول الله ﷺ أوصاكم بعدم التعرض للحاكم الفاسق لما ينشأ عن ذلك من شرور وأذى ومنكرات وتفرقة.

وهكذا حُمّل أهل المدينة مسؤولية ما حصل لهم وقد استمعنا إلى طرف من الآراء التي رددت أكاذيب محدّثي معاوية وأظهرت أهل المدينة بصورة المجرمين الناكثين الغادرين وبررت ليزيد فعلته، وحمّلت مسؤولية القذارات التي فاحت رائحتها فأزكمت الأنوف، مسلم بن عقبة وجنده، أما يزيد فخرج من المسألة كلها بريئاً نقي الثوب[1] رغم كل ما فعله في سنوات حكمه الثلاث القصيرة.

مهمة الأئمة عليهم السلام : تعبئة الأمة ضد الانحراف

كانت مهمة الأئمة عليهم السلام تسير منذ البداية، ومنذ أن تسلم زمام قيادة التجربة الإسلامية أناس غيرهم لم يعدّوا إعداداً خاصاً من قبل الرسول ﷺ، لمنع الانحراف

(١) ومن الطريف ان يذهب بعض أعوان الدولة، وهو قاضي البحرين، أبو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدي إل حد إدخال يزيد الجنة وحسم المسألة نهائياً، فقد حدث عنه ابن عساكر (من لفظه وكتبه لي بخطه قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: أنت قتلت الحسين؟ فقال: لا. فقلت له: هل غفر الله لك؟ قال: نعم، وأدخلني الجنة. قلت: فالحديث الذي يروى عن رسول الله ﷺ إنه رأى معاوية يحمل يزيد فقال: رجل من أهل الجنة يحمل رجلاً من أهل النار..؟ فقال: ليس بصحيح) ابن كثير ٨/ ٢٤٠ وهكذا أدخلهما كليهما الجنة بضربة معلم حاذقة ماهرة....

الموجود في تلك التجربة وإرجاع المسيرة إلى وضعها الطبيعي (وذلك بإعداد طويل المدى، وتهيئة للظروف الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ذلك، فحتى كانت الظروف الموضوعية مهيئة لذلك، كان الأئمة عليهم السلام على استعداد لأن يمارسوا إرجاع التجربة إلى الوضع الطبيعي..)[١].

لماذا لم يتزعم الإمام زين العابدين عليه السلام ثورة المدينة..

وهنا يثار سؤال: لماذا لم يتزعم الإمام زين العابدين ثورة المدينة، ولم يشارك بها على الأقل وترك المدينة قبيل المواجهة مع جند يزيد؟

وهو سؤال شبيه بذلك الذي أثير حول عدم قيام الإمام الحسن عليه السلام بثورة ضد معاوية، وقد تناولنا الجواب عنه في هذا الكتاب، وقد رأينا أن الحسين عليه السلام لم يقم هو أيضاً بثورته ضد معاوية، لأن الظروف الموضوعية لم تكن مهيئة لذلك، ولم تكن الأمة مستعدة للتجاوب معهما لخوض تجربة الثورة.

وعلى ذلك فإن مهمتهما في ذلك الوقت كانت مكرسة لـ(تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً للأمة نفسها، بغية إيجاد تحصين كاف في صفوفها لكي يؤثر هذا التحصيف في مناعتها، وفي عدم انهيارها بعد تردي التجربة وسقوطها، وإيجاد قواعد واعية في الأمة وإيجاد روح رسالية فيها وإيجاد عواطف تجاه هذه الرسالة في الأمة...)[٢].

أما في عهد يزيد وبعد أن أسفر الانحراف عن وجهه ـ ومع وجود الناصر، المتمثل بأهل العراق الذين أبدوا استعدادهم أمام أبناء الأمة كلها للمسير وراء الحسين عليه السلام ومناهضة دولة يزيد، فإن الإمام الحسين عليه السلام رغم معرفته بالنتائج المتوقعة من وراء ثورته ومسيره للعراق، كان يرى أن السبيل الوحيد أمامه هو إكمال هذا المسير وعدم التراجع عنه مهما بدت الصعوبات والمخاطر كبيرة ـ وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في هذا الكتاب ـ لأنه لو تراجع لتحمل المسؤولية التاريخية لسقوط الأمة كلها، ولقيل بعد ذلك إن أهل الكوفة كانوا صادقين في مزاعمهم لنصرته، غير أنه هو الذي لم يقبل ذلك ورضي أن يضع يده بيد يزيد أو يهرب إلى مأمنه في

(١) أهل البيت/ الشهيد المصدر ١٣١.
(٢) المصدر السابق ص ١٣١.

الأرض، ولفسح المجال لدولة الظلم الأموية للتحدث عن مشروعية وجودها وبقائها والتمادي في عبثها إلى أقصى حد.

وكان الإمام زين العابدين شاهداً رئيسياً على ما حصل لوالده وأصحابه في واقعة الطف، وكان يتابع مجريات الأحداث متابعة دقيقة ويرى الظرف الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام بثورته، وقد تحمل هو وحيداً مسؤولية إعادة موكب النساء والأطفال سالماً إلى المدينة ولقي مشاق حجه عديدة.

وخلال مقابلاته مع ابن زياد ويزيد واستماعه لأقوالهما وما تمثل به يزيد من شعر ينكر فيه رسالة الإسلام جملة وتفصيلًا، أدرك أن دولة الظلم هذه، من خلال شعور قادتها بالنشوة والنصر، ستقدم على ارتكاب المزيد من الجرائم لتثبيت نفسها، وإنها ستعمد إلى معاقبة آلاف الناس، ومدن بأكملها إذا ما خرج بعضهم عليه.

اليد التي امتدت لقتل الحسين عليه السلام لم تتورع عن غيره

إن اليد التي امتدت للحسين عليه السلام بتلك الجرأة لم تكن لتتورع عن ضرب غيره مهما بلغ مركزه، وهو لن يبلغ مركز الحسين على أية حال.

وهكذا فإن الإمام زين العابدين رأى أن الدور الذي كان جديراً أن يمارسه في تلك المرحلة هو تعميق الرسالة فكرياً وروحياً للأمة وتحصينها وحفظها من الانهيار.

وهكذا جعل من نفسه مدرسة تلقّى عنها آلاف الطلبة علومهم الإسلامية وتحلقت حوله مجموعة منهم أشرنا إلى بعضهم في هذا الفصل، وقد كانت تلك العلوم كفيلة بترسيخ وتوضيح نهج الرسول وآل بيته عليهم السلام بعيداً عن مطبّات مرتزقة الدولة من (العلماء والفقهاء والمحدثين..)، وكانت أساساً لجامعة إسلامية كبرى ازدهرت في عهدي الباقر والصادق عليهما السلام وبقية أئمة آل البيت، وكانت كفيلة بحفظ تراث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام من الضياع والاندثار.

كما كانت حياته طافحة بالدعاء والمناجاة الحميمة لله سبحانه وتعالى وهو أمر من شأنه ضخّ قوة روحية كبرى يتحصن بها المسلم من الانحراف والخطأ، ويشكل مراجعة يومية مستمرة يقوّم بها نفسه ويحميها من الزلل والظلم، ويدرك معها أن القوة الوحيدة التي يجب الخضوع لها واحترامها هي القوة الإلهية المطلقة العادلة التي جسدها الإسلام المحمدي لا الإسلام الأموي الذي يقوم على حماية العصبة الحاكمة

من آل أبي سفيان وأعوانهم، وإن الحاكم الجدير بالاحترام والحب هو الذي يقترب من خط محمد وآله عليهم السلام، ويعاملهم بالاحترام الجدير بهم.

وقد أشرنا في هذا الفصل إلى نهجه بتذكير الناس بثورة الحسين ومحاولة ربط الناس بها من خلال قيامه بعقد مجالس العزاء بين خاصته وفي بيوت آل أبي طالب، وقد أخرج تلك المجالس من الطابع الشخصي ـ باعتبار أنه هو الذي أصيب بمصيبة والده عليه السلام إلى الطابع الجماهيري العام عندما جعل قطاعات واسعة من المسلمين تتعاطف مع الحسين وتحزن عليه وتذرف الدموع في مناسبات ذكرى استشهاده، وكان ذلك الربط العاطفي كفيلًا بجعلهم يستعيدون فصول تلك الثورة والظرف الذي تمت فيه، بل وضرورة قيامها على يد الحسين عندما كانت الإجراء الوحيد الذي كان يستطيع القيام به لمواجهة الانحراف.

الإمام زين العابدين عليه السلام: حياة حافلة بالعطاء

ونظرة سريعة إلى حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ترينا أنها كانت مزيجاً من ذلك كله ومن فعاليات أخرى حافلة بالعطاء والعمل اليومي الدؤوب الذي ترك طابعه وآثاره فيما بعد وجعل المسلمين ينظرون إليه بتقدير واحترام جديرين به رغم أنه لم يتزعم قيادة التجربة الإسلامية، وكان هاجس دولة الظلم في عهد يزيد وفيما بعد إقصاءه عن الحكم والعمل على جعله بعيداً عن الوصول إلى سدّته وتحجيم دوره ليقتصر على الممارسات الشخصية التي اعتقدت أنها لن تضرها ولن تنال منها.

وكان شأنه شأن الأئمة الآخرين من آل البيت عليهم السلام الذين كانوا (بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً، فكلما كان الانحراف يطغى ويشتد وينذر بحظر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة، بإرادة صلبة لا تلين وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فإن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الأحايين بدلًا من مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة، غير أن تلك المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملًا إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ

على مثله وقيمه. لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة، فكان لا بد للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقي المشرق لها وأن يؤكدوا عملياً وباستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم الواقع. وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف وإن تشوّهت معالم التطبيق.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى...)[١].

إن تأكيد الإمام زين العابدين في عمله اليومي والاستراتيجي على تحصين طليعة واعية من الأمة بالعلوم والدعاء والبناء العقائدي ومقاطعة الزعامات المنحرفة جعل بعض الباحثين يعتقدون.

بين استلام السلطة وبناء القواعد الشعبية المؤمنة

(إن أئمة الشيعة الإمامية في أبناء الحسين عليه السلام، قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء السياسية، وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا)[٢] مع أن حياتهم كانت حافلة بالممارسات الاجتماعية الهادفة التي كان من شأنها تعميق ممارسة عملية التغيير التي بدأها رسول الله ﷺ لتكميل بناء الأمة على أساس الإسلام... (فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عليهم السلام عن الجانب الاجتماعي إلا إذا تنازلوا عن التشيع.

غير أن الذي ساعد على تصور اعتزال الأئمة عليهم السلام وتخليهم عن الجانب الاجتماعي من قيادتهم، ما بدا من عدم إقدامهم على عمل مسلح ضد الوضع القائم)[٣]، وهو أمر له مبرراته، فاستلام الحكم دون وجود قواعد شعبية واعية صلبة، تدرك هدفه وتؤمن بنظريته في الحكم وتعمل على حمايته وتصمد بوجه أعدائه، من شأنه خلق مأساة جديدة لا مبرر لها يكون شخوصها هو وما تبقى من عائلته وأنصاره وتلامذته المقربين.

---

(١) أهل البيت/ ١١ ـ ١٥.
(٢) بحث حول الولاية/ السيد محمد باقر المصدر ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م ـ دار التوحيد ٤٩.
(٣) المصدر السابق ص ٥١.

كانت ثورة المدينة رد فعل سريع غاضب على سلوك يزيد، ولم يكن للثوار خطط مدروسة أو منهج ثابت لمواجهة دولة الظلم القوية المزدهرة المنتشية (بنصرها) على الحسين وأسلوب قمعها لثورته، وكان هم الثوار أن يستشهدوا لأنهم اعتقدوا أنه لم يعد بوسعهم السكوت عن الممارسات المنحرفة أكثر من ذلك.. خصوصاً وأنهم لم يبادروا من قبل بالثورة، وربما كان الشعور بالذنب أحد العوامل التي دفعتهم للثورة بعد أن تقاعسوا قبل ولم يبدوا أي رد فعل ولو كان ضعيفاً ضد دولة الظلم.

كانت نتائج ثورة المدينة متوقعة، وكان يزيد سيستنفر أعوانه لقمعها بأشد الأساليب وحشية، وكانت إجراءات الثوار لا تتسم بالحذر والصلابة الكافيين تجاه الطابور الأموي المتبقي بالمدينة ولم تقم حتى بتشديد الرقابة عليه.

(إن أهل المدينة لما بايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد بن معاوية، وثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش، فكانوا نحواً من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم، فحاصرهم الناس فيها مصاراً ضعيفاً)[1] مما جعلهم ينجحون بإرسال ممثل عنهم إلى يزيد وتدبير خطة ناجحة لإدخال جنوده إلى المدينة واقتحامها بسهولة.

ولم يكن أحد ليحذر أهل المدينة في ثورتهم، وسيحملهم الجميع مسؤولية ما حل بهم[2]... وكان الإمام زين العابدين، لو أنه شارك بتلك الثورة، لحمل كامل المسؤولية عما وقع لأهل المدينة وله أيضاً إذ سيكون في مقدمة المقتولين الذين تستباح حرمتهم ولقيل لنا: ألم يكن في ثورة أبيه عليه السلام وما حل به زاجراً له..؟

وبقتله ستزداد المأساة اتساعاً إذ ستختفي القيادة المؤهلة لتحصين الكتلة العقائدية ولا تقطع خط أهل البيت الذي كان من المفترض استمراره وديمومته لبناء هذه الكتلة على الدوام ودعمها بعناصر البقاء والديمومة، وتربية الأمة على تخليص

(١) الطبري ٣/ ٣٥٢.

(٢) ومن الغريب إن الضمير (الإسلامي) الموالي لدول الظلم لم يهتز لتلك المأساة، وقد استمعنا إل العديد من الآراء التي حملتهم المسؤولية وما حل بهم على يد أعوان يزيد وحاولت تبرءته منها باعتبار إنه مجرد حاكم فاسق ولم يكن زنديقاً، وإنه قد أنذرهم بعدم الثورة عليه ولم تستبح المدينة إلا بعد انتهاء من الأنذار.

التجربة الإسلامية من أيدي المنحرفين وأعداء الإسلام وتحريك ضميرها وإرادتها والاحتفاظ بهما (بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين)[1].

ملاحظات جديرة بالنظر

ومع ذلك لم يشر أي نص تاريخي إلى لجوء أهل المدينة للإمام زين العابدين لتزعم ثورتهم، وحتى لو فعلوا ذلك وأبدوا استعدادهم لجعله يستلم الحكم في المدينة، فلعلهم لن يكونوا مستعدين للسير وراءه إلى نهاية المطاف ولن يمكنوه من تحقيق عملية التغيير إسلامياً، وربما ستنهار القاعدة الشعبية التي ستنضم إليه لأنها لا تعي كل أهدافه ونظرياته ولن تصمد بوجه العواصف مرتقبة وردود الفعل العنيفة من قبل الدولة.

ومع أن الإمام زين العابدين عليه السلام لم يشارك بتلك المواجهة العسكرية التي قمعت بسرعة وبشدة إلا أنه لم يشارك الآخرين بإدانتها، وكان قلبه يفيض حزناً وأسى على الثوار وهم يلاقون البلاء الشديد مع أهل المدينة على يد أعوان الطغمة الحاكمة وقد بذل جهده لتخليص العديد منهم مع عوائلهم وقد روي أنه ضم إليه أربعمائة امرأة (منافية: من آل عبد مناف) مع أزواجهن أو أبنائهن إلى أن تفرق الجيش الأموي وقام بنفقتهن وإطعامهن خلال تلك الأيام واستمر فيما بقي من أيام حياته يعول مائة عائلة من فقراء المدينة، في كل بيت جماعة، كان يفعل ذلك في السر.

أخلاق أهل البيت عليهم السلام

ويدل حادث فريد على كرم أخلاقه واستجابته المطلقة للخير، فقد سأله عدو آل البيت اللدود مروان بن الحكم، عندما أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد منها، أن يضم إليه عياله بعد أن رفض ذلك ابن عمر، فقبل الإمام بذلك وخرج بحرمه وحرم مروان حتى وضعهم بينبع ولا بد أنه أخذ معه عوائل أهل المدينة الذين أشرنا إليهم سالفاً، وأرسل ولده عبد الله مع عائشة بنت عثمان، زوج مروان، إلى الطائف محافظة عليها هناك وفي الطريق، إذ أن عموم أهل الحجاز في المدينة ومكة كانوا ضد الحكومة الأموية وآل أمية عموماً.

---

(١) بحث حول الولاية ص ٥٣.

وقد بهر موقفه هذا مروان، فهذه الأخلاق الفريدة لم تكن تخطر بباله على الإطلاق، خصوصاً وإن العداوة القديمة المتأصلة بين بيتيهما جعلته لا يطمع باستجابة الإمام لمطلبه في حماية عائلته[١]. .

بين زين العابدين ومسلم بن عقبة

وقد روى عوانة بن الحكم، قال: (لما أتي بعلي بن الحسين إلى مسلم قال: من هذا؟ قالوا: هذا علي بن الحسين، قال: مرحباً وأهلًا، ثم أجلسه معه على السرير وألطفه، ثم قال: إن أمير المؤمنين أوصاني بك قبلًا، وهو يقول: إن هؤلاء الخبثاء شغلوني عنك وعن وصلتك، ثم قال لعلي: لعل أهلك فزعوا؟ قال: إي والله، فأمر بدابةٍ فأسرجت ثم حمله فردّه عليها. . .)[٢].

وقد روي أيضاً: (إن مسلم بن عقبة، أتي بعلي بن الحسين، فتبرأ منه ومن آبائه، ثم أقعده وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفّعه فيه، ثم انصرف عنه، فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذي قلت؟ قال: قلت: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وإله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك من نحره، أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه).

وقيل لمسلم بن عقبة: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتى رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك الرأي مني، لقد مُلِءَ قلبي منه رعباً)[٣].

---

(١) يذكر الطبري في تاريخه نقلاً عن محمد بن عمر قوله: (. . وكان مروان شاكراً لعلي بن الحسين، مع صداقة كانت بينهما قديمة) ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤ وليس هناك ما يشير إلى هذه الصداقة، بل إن مروان كان من أشد الحقودين على أمير المؤمنين عليه السلام وكانت له مواقف معروفة بذلك وكان يحرض عليه عثمان واشترك ضده في حرب الجمل وصفين بعد ذلك كما حاول تحريض الوليد بن عتبة على الحسين عليه السلام وأبدى فرصته وشماتته عند رؤية رأس الحسين عند يزيد، ولا نعتقد ان الأيام امتدت بعد ذلك بما فيه الكفاية لعقد مثل تلك الصداقة، غير ان كرم الإمام واخلاقه الرفيعة جعلته يقدم على حماية أهل عدوه.

(٢) الطبري ٣/ ٣٥٨.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٨٥.

(فضل) مروان

غير أن رواية أخرى أرادت أن تنسب لمروان فضلًا وحرصاً على رد الجميل لزين العابدين عليه السلام، وأرادت بنفس الوقت أن تظهره بمظهر الخائف الذي ترعد كفّاه من الرعب، وبمظهر الموالي للدولة الممالىء لها ضد أعدائها والذي كاتب يزيد في السر لكي يحافظ على حياته ولا نعتقد أن هذه الرواية تنسجم مع الموقف العام لزين العابدين عليه السلام الذي يتقاطع بشكل تام مع مواقف يزيد وأعوانه.

قال لنا عبد الملك بن نوفل بن مساحق.: (ثم إن مروان أُتيَ بعلي بن الحسين، وقد كان علي بن الحسين، حين أخرجت بنو أمية منح ثقل مروان وامرأته وآواها، ثم خرجت إلى الطائف، فهي أم أبان ابنة عثمان بن عفان، فبعث ابنه عبد الله معها[١]، فشكر ذلك له مروان، وأقبل علي بن الحسين يمشي بين مروان وعبد الملك يلتمس بهما عند مسلم الأمان، فجاء حتى جلس عنده بينهما، فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك من مسلم، فأتي له بشراب[٢]، فشرب منه مروان شيئاً يسيراً، ثم ناوله علياً، فلما وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فأرعدت كفه ولم يأمنه على نفسه، وأمسك القدح بكفه لا يشربه ولا يضعه.

فقال: إنما جئت بين هؤلاء لتأمن عندي، والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك، ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك، وأخبرني أنك كاتبته، فذلك نافعك عندي، فإن شئت فاشرب شرابك الذي في يدك، وإن شئت دعونا بغيره.

فقال: هذه التي في كفي أريد. قال: اشربها، ثم قال: إليَّ هاهنا، فأجلسه معه...)[٣].

لا شك أن علي بن الحسين قد أحضر أمام ابن عقبة، وأن هذا كان حاقداً عليه، وربما اعتقد يزيد أن لا خطر منه على دولته بعد أن قتل أبيه تلك القتلة الفظيعة، خصوصاً وأنه لم يقم بنشاط سياسي ظاهر مناهض لدولته فأوصى ابن عقبة بعدم قتله، وقد استجاب هذا لأوامر سيده فلم يقتل الإمام رغم كراهيته له ولأهل بيته.

---

(١) من المعلوم إن لزين العابدين ولدٌ وُلد قبل واقعة الطف بثلاث سنين وهو محمد الباقر عليه السلام فيكون عمره في واقعة الحره ست سنين.

(٢) المراد بالشراب هنا ما يتخذ من الثمار والفواكه والعسل ولا يقصد به الخمرة أو النبيذ. مع أن الأمويين لم يكونوا يتودعون عن تعاطيهما في مجالسهم الخاصة وخصوصاً يزيد.

(٣) الطبري ٣/٣٥٨.

وإذا ما حاول أحد مؤاخذة الإمام زين العابدين عليه السلام، كما فعل آخرون مع الإمام الحسن، بحجة أنه هادن دولة الظلم ولم يشهر سيفه عليها، بغض النظر عن الظروف والملابسات التي كانت تحيط بذلك ـ وقد استعرضناها في دراستنا هذه ـ فإن عليه أن يلتفت إلى نقطة جديرة بالاهتمام وهي: بقاء المنزلة الرفيعة للإمام في نفوس أهل المدينة وأهل الحجاز عامة وعدم مؤاخذتهم إياه على عدم المشاركة السياسية الواضحة بمعركة الحرة رغم أنهم أقرب عهداً منه وأشد فهماً ووعياً لملابسات الحادث وظروفه وتفاصيله. . . وكان أحرى بهم أن يقفوا منه موقفاً سلبياً ولقاطعوه لو أنهم لمسوا منه تقصيراً أو تهاوناً ولو أنهم لم يفهموا موقفه فهماً صحيحاً.

وقد تجلى احترامهم الكبير له ولمنزلته حضور مئات العلماء والتابعين مجالسه ودروسه وإجماعهم وإجماع من عاصره على تقديره والإشادة به.

كما تجلى ذلك في أكثر الأماكن حساسية وخطراً ـ في بيت الله العتيق ـ وقد حجّ، وحجّ ذلك الموسم هشام بن عبد الملك الذي لم يستطع رغم جنوده وخدمه الوصول إلى الحجر الأسود واستلامه، حتى إذا جاء زين العابدين عليه السلام تنحى له الناس حتى استلمه، وقد تساءل هشام عن هوية ذلك الذي هابه الناس وتنحّوا له بذلك الاحترام الملفت للنظر، وقد رد الفرزدق على تساؤل هشام بقصيدة مشهورة من عيون الشعر العربي لا زال الناس يتداولونها إلى يومنا هذا[1].

لا بد من النظر قبل النقد

على أن آخرين ممن ينظرون إلى الأمور بمعزل من مسبباتها ونتائجها الطبيعية وينصبون من أنفسهم حكاماً ونقاداً على أعمال الناس دون وعي أو معرفة أو كتاب مبين، أدلوا بدلوهم في هذا المضمار أيضاً، فقد (لقي عبادُ البصري عليَّ بن الحسين في طريق مكة، فقال له: يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه وإن الله عز وجل يقول: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن

---

(١) ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وقد حبه هشام على قصيدته هذه، ثم أطلق سراحه فيما بعد.

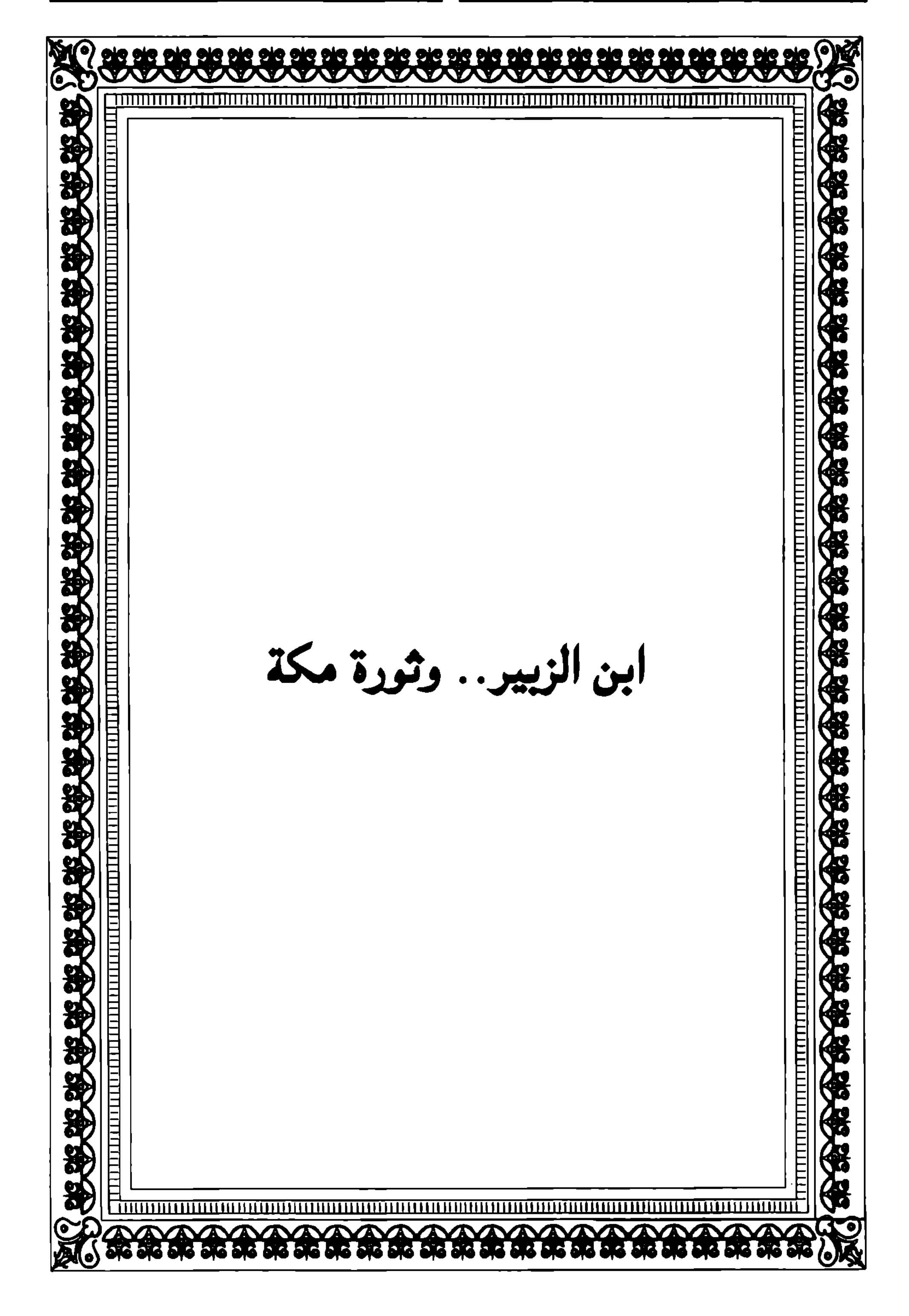
لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. إلى قوله وبشر المؤمنين، فقال علي بن الحسين: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد أفضل من الحج)[١].

فلم تكن حول الإمام طليعة عقائدية واعية ثابتة مدركة ذات امتداد وتأثير واسعين، وكانت المدينة معرضة لأن تدمر وتستباح لأنها خرجت عن طاعة يزيد وأمره، لقد كشفت واقعة الطف نواياه الحقيقية ولم يستسلم الحسين عليه السلام له لأنه أدرك أنه يريد منه استسلام العبيد وولاء العبيد ونوم العبيد، لم يطلب منه أن يستسلم ويضع يده في يده لنصرة الإسلام وعزّه وإعلاء شأنه، وهكذا صرح الآن بما لم يصرح به من قبل: أراد الناس أن يبايعوه على أنهم خول له وعبيد، فلم يجد ما يدعوه للتكتم على نواياه بعد أن وجد نفسه قوياً بمواجهة الأمة المظلومة المستضعفة. فهل يُواجه هذا الحاكم بالطريقة التي واجهه فيها أهل المدينة؟ أم أن لذلك أسلوباً آخر ينسجم مع ذلك الظرف الدقيق الذي كانت تمر به الأمة..؟ أسلوب يبتعد عن المواجهة المسلحة، لأن العدو هو الذي كان يريد تلك المواجهة ويسعى لها لأنه أحكم قبضته وأكمل استحكاماته.

وإلى هذا الأسلوب البعيد عن المواجهة المسلحة والصراع السياسي المكشوف لجأ الإمام زين العابدين، وهو ما أشرنا إليه في هذا الفصل.

---

(١) سير الأئمة عليهم السلام السيد محسن الأمين ٣/ ٢٠٧ عن المناقب لابن شهراشوب والاحتجاج للطبرسي. وتمام الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة ١١١.



ابن الزبير.. وثورة مكة

ابن الزبير.. وثورة مكة

ابن الزبير: استغل القضية الجماهيرية ضد يزيد لصالحه

مكة لا تعني ابن الزبير، وثورة أهلها بوجه النظام الأموي لا تعني أنها استجابت له شخصياً لأنه الشخص الوحيد المؤهل لقيادتها، بل لأنه الشخص الوحيد الذ كان موجوداً على ساحتها في ذلك الحي بعد غياب الإمام الحسين عليه السلام ورفض الشخصيات الموجودة فيها بالقيام بأي عمل لمواجهة الدولة.

قضية أموية وشعارات علوية

ومهما تكن طموحاته وتطلعاته الشخصية، فإن ابن الزبير قد دفع الشعارات التي من شأنها أن تدعم موقفه وتقوّيه أمام الأمة، وتبنّى في البداية ـ ولكن بأسلوب مراوغ ملتو ـ نفس القضية التي دفعها الإمام الحسين[1]، وإن كان قد تم ذلك بدوافع مغايرة

(١) فقد روي أنه حاول التحدث باسم نخبة من الشخصيات التي طلب منها معاوية مبايعة يزيد، فقال لمعاوية: (نخيّرك بين إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار: إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله، قبضه الله ولم يستخلف! [أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر]، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فما صنع أبو بكر، عهد إلي رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الادنين من كان لها أهلاً، وإن شئت فما صنع عمر، صيرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم وترك ولده وأهل بيته، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً.) مروج الذهب ٥/ ١٢٠(١٢١ وابن الأثير ٣/ ٣٥٤.
ولا شك أن معاوية كان يعلم ما في هذا الكلام من المغالطات والأكاذيب التي لم تكن سوى مناورةً لجأ إليها ابن الزبير مع مناورات أخرى منها قوله لمعاوية: (إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهلمّ ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيكّما نسمع ونطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبدا) تاريخ الخلفاء ١٨٤ كما كان معاوية يعرف حقيقة دوافعه وحرصه على أن يؤول الأمر إليه، والعديد من جوانب أخلاقه ومنها بخله وحرصه رغم محاولاته التظاهر بالزهد والورع وكثرة العبادة وهكذا أوصى ابنه يزيد بالحذر من ابن الزبير والإيقاع به وقتله إذا استطاع ذلك، وقال في وصيته: (. . فأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إربا . .) ابن الأثير ٣/ ٣٦٩ وقال لابن الزبير: (إنما أنت ثعلب روّاغ كلمّا خرج من جحر دخل في جحر . .) السيوطي ١٨٥.

لدوافع الإمام عليه السلام، وكانت قضية انحراف الدولة التي كان ينبغي أن تكون دولة إسلامية حقاً، واستخلاف يزيد، هو ما طرحه داعياً إلى إيقاف ذلك كله، والعودة إلى بعض الصيغ التي اتبعت في عهود بعض الخلفاء السابقين، وهي صيغ لم تكن تحظى بقبول وترحيب جميع المسلمين وكانت لها ملابساتها الخاصة، وكان معوية يرى معها أنه يستطيع أن (يجتهد) بدوره ويخرج على المسلمين بصيغة مبتدعة جديدة، ما دام الآخرون قد (اجتهدوا)، وهكذا خرج بمقولته الشهيرة: (إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم وابني أفضل من أبنائهم) (وابني أحق) وكان يعرض بذلك بأبناء بعض الخلفاء والصحابة المشهورين، وعرض المسألة على أنها مسألة منافسة على السلطة لا غير، رأى أن الغلبة لا بد أن تكون فيها لابنه خصوصاً وأنه هو ـ معاوية ـ يتربع على سدة الحكم بعد معارك طاحنة، حسب أنه قد انتصر فيها بدهائه وذكائه.

وقد رأينا ملابسات استخلاف يزيد ودعوة معاوية لذلك وبذله جهوداً كبيرة طوال عدة سنوات، نجح بعدها في تهيئة الجولة وترويض الأمة المسلمة المستضعفة لقبول ذلك، بعد أن أسكت الأصوات المعارضة وجعلها ترضخ لما قرره ورآه[١].

وقد رأينا كيف امتنع الحسين عليه السلام عن مبايعة يزيد بعد هلاك معاوية وكيف خرج إلى مكة متنكباً الطريق الأعظم. أما ابن الزبير فقد خرج بدوره من المدينة بعد مطالبته بالبيعة من قبل وكيل يزيد على المدينة سالكاً طريقاً جانبية لتفادي الصدام مع أعوان السلطة.

(١) فقد روي أنه جمع ابن الزبير وابن عمر وابن أبي بكر في مجلس عام ووضع على رؤوسهم حراساً مسلحين أمرهم بقتلهم إذا ما عارضوا كلامه، ثم صعد المنبر وألقىٰ خطبة جاء فيها: (إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا إن ابن عمرو وابن أبي بكر وابن الزبير لن يبعايعوا يزيد، وقد سمعوا وأطاعو وبايعوا له، فقال أهل الشام: والله لا نرضى حتى يبايعوا له على رؤوس الأشهاد، وإلاّ ضربنا أعناقهم، فقال: سبحان الله، ما اسرع الناس إلى قريش بالشر، لا أسمع هذه المقالة من أحد منكم بعد اليوم، ثم نزل. فقال الناس: بايع ابن عمرو وابن أبي بكر وابن الزبير، وهم يقولون: لا والله ما بايعنا فيقول الناس بلى وارتحل معاوية فلحق بالشام) السيوطي ١٨٤ وواضح من هذه الرواية إن الحسين عليه السلام لم يكن معهم كما حاول البعض إدعاء ذلك. كما إن سكوتهم ـ حذر الموت ـ والذي دفع المسلمين لمبايعة يزيد يدل على عدم توجههم الصادق لنصرة الاسلام وإلا لستمروا على موقفهم السابق مهما كانت العواقب. وقد دلت الأحداث اللاحقة على تخاذل ابن عمرو واستسلامه وسعي ابن الزبير للدعوة إلى نفسه وعدم مبدئيته وصدقه في العديد من الأمور والمواقف.

وجود الحسين عليه السلام في مكة سلب منه الأضواء

وفي مكة ـ إمام قائد الأمة الحقيقي، الحسين بن علي عليه السلام ـ لم يستطع أن يجعل الناس تلتف حوله وتطمئن إلى دوافعه ونواياه، فهو لا يمتلك الرصيد الذي يمتلكه الإمام.

وقد وجد ابن الزبير أنه ليس بمستوى الإمام حقاً، وإنه في موقف لا يستطيع معه أن يكون أي رصيد شعبي أو أن يحشد أية جماعة إلى صفه مما جعله يخفي نواياه الحقيقية التي أعلنها فيما بعد، وهي المطالبة بالخلافة لنفسه، فوجود الإمام هناك كان يضعف مركزه ويجعل الناس لا يبايعونه ولا يتابعونه، فعندما أقبل الإمام الحسين إلى مكة (. . . أقبل أهلها يختلفون إليه ويأتونه، ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق، وابن الزبير بها قد لزم الكعبة، فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف، ويأتي حسيناً فيمن يأتيه، فيأتيه اليومين المتوالين، ويأتيه بين كل يومين مرة، ولا يزال يشير عليه بالرأي، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير، قد عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام حسين بالبلد، وأن حسيناً أعظم في أعينهم وأنفسهم منه، وأطوع في الناس منه)[1].

وقد كشف حوار دار بينه وبين الإمام الحسين عن تلهفه لرحيل الإمام عليه السلام حتى يخلو له الجو ويمهد لحملة يقوم فيها بالدعوة لنفسه.

حسب أنه يخدع الحسين عليه السلام بتشجيعه على ترك مكة

قدم إليه بعد خروج ابن عباس منه (. . فحدثه ساعة ثم قال: ما أدري ما تركُنا هؤلاء القوم وقد كففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم. خبرني ما تريد أن تصنع؟

فقال الحسين: لقد حدثت نفسي بإتياني الكوفة، ولقد كتبت إلي شيعتي بها، وإشراف الناس واستخير الله.

فقال له ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها[2]. ثم خشي

---

(١) الطبري ٣/ ٢٧٧.

(٢) وورد في تاريخ الاسلام للذهبي ٢/ ٢٦٨ وانه قال له: (ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك؟ فوالله لو إن لي مثلهم ما توجهت إلا إليهم).

أن يتهمه، فقال: أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك ونصحنا لك.

فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشاً به تستحل حرمتها فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش.

قال: فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تعصى.

قال: ولا أريد هذا أيضاً.

ثم إنهما أخفيا كلامهما فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: أتدرون ما يقول؟

قالوا: لا ندري جعلنا الله فداءك.

قال: إنه يقول: أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس، ثم قال له الحسين: والله لأن أقتل خارجاً منها بشبر أحبُّ إليَّ من أن أقتل فيها، ولأن أقتل خارجاً منها بشبرين أحبُّ إليَّ من أن أقتل خارجاً منها بشبر، وأيم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم، والله ليعتدن عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت.

فقام ابن الزبير فخرج من عنده)[1].

محاولة ماكرة لخلط الأوراق

كان ابن الزبير ـ بمحاولة ماكرة منه ـ يريد خلط أوراقه مع أوراق الحسين عليه السلام باعتبار أن كليهما من (أولاد المهاجرين) و(ولاة الأمر).

ولم تفت كلماته الإمام الحسين، الذي كان يشعر أنه أشد الناس رغبة لخروجه من مكة وترك الجو له... ولا بد أن حديث أبيه أمير المؤمنين عليه السلام هو علم من العلم الذي زوده به رسول الله صلى الله عليه وآله... (إن لها كبشاً تستحل به حرمتها).

لم يرد للكعبة أن تكون ساحة معارك ولم يرد لها أن تحرق أو ترمى بالأحجار وتسال على أرضها دماء المسلمين، وإذ أن دولة الظلم الأموية لا تتحرج من ذلك ولا ترى منه بأساً، فإن على من له حريجة في الدين ويرى للكعبة حرمة وقداسة أن لا يفسح المجال لها وأن يتجنب الكعبة.

---

(١) ابن الأثير ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠ والطبري ٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥.

هكذا أكد الإمام الحسين لابن الزبير، ولم يكن في كلامه ما يمكن تأويله أو تجاهله... لم يخرج الإمام لتكوين دولة أو اقتسام مغانم، وكان يعلم أنه مقتول ومعتدى عليه ولو كان في مكان خفي أو جحر هامة لوجده أعداؤه وقتلوه، غير أنه كان يريد أن ينتصر للإسلام ويواجه أعداءه بدمه ودماء أصحابه، ولم يكن أمامه طريق آخر لذلك. إما أن تكون الكعبة المكان الذي ستسال عليه الدماء، فذلك ما رفضه بشدة، فالكعبة يجب أن تظل مكاناً آمناً ومثابة للناس كما أراد الله ورسوله... ومن أجدر بالالتزام بأوامر الله ورسوله من الحسين الذي يذهب إلى حد تقديم دمه في سبيلهما.

ولم يبد أن ابن الزبير كان يتحرج مما كان يتحرج منه الحسين ويرفضه، فالأمر لديه سيان ما دام يسعى لمملكة معاوية والاستيلاء عليها.

الإمام الحسين عليه السلام.. لم تنطل عليه نوايا ابن الزبير

كان الإمام الحسين ـ بما له من معرفة بابن الزبير وطموحاته ومواقفه في السابق ـ يدرك كل ما تنطوي عليه كلماته وكان يعلم رغبته الشديدة لخروجه من مكة، وقد صارح جلساءه ممن حضروا حديثه مع ابن الزبير برأيه حول ذلك بقوله: (ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لن يعدلوه بي، فود أني خرجت منها لتخلو له)[1].

وبذلك نرى أنه كان متنبهاً لما كان يسعى له ابن الزبير ويخطط له، وليس من المعقول أن يكون قد خدع به وبما حاول تزيينه له، كما اعتقد البعض.

«..يا لك من قبرة بمعمر..»

وقد أوحت لهم كلمات ابن عباس ـ عندما حاول منح الإمام من الخروج إلى العراق بقوله: (أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك)[2]، وقوله لابن الزبير: (قرّت عينُك يا بن الزبير، ثم أنشد قائلًا:

(١) المصادر السابقة.
(٢) ابن الأثير ٣/ ٤٠١ والطبري ٣/ ٢٩٥.

(يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئتِ أن تنقّري)[1]

وهكذا نعلم أن ابن الزبير لم يكن له أثر في دفع الإمام إلى الخروج أو إبقائه في مكة لأن الأسباب والدوافع الكافية قد توفرت لديه وجعلته يقر والخروج دون الالتفات إلى بعض (النصائح) والإنذارات الموجهة إليه، لأنه رأى أن ذلك أمر لا بد منه كما أنه الأمر الوحيد الذي لا بد له من القيام به.

هل أدرك ابن عباس ما لم يدركه الحسين عليه السلام

وكلام ابن عباس ـ على رواية الطبري ـ يؤكد أنه قد أدرك عزم الإمام على الخروج وأنه لا يمكن أن يتوقف عن ذلك أو يؤجله لأي سبب من الأسباب وذلك فإنه يتيح فرصة ذهبية لابن الزبير الذي سيظل بمفرده في مكة في غياب (منافسه) القوي، ونعيد هنا، وأية الطبري عن عقبة بن سمعان، (. . قال ابن عباس: لقد أقررت عين ابن الزبير تنجليتك إياه والحجاز والخروج منها، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك، والله الذي لا إله إلا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك)[2].

ولم تكن تلك المرة الأولى التي يحذر فيها ابن عباس الإمام من الخروج، وبالتأكيد فإنه يعلم حق العلم أن إصراره على ذلك لم يكن بدافع من قناعة الإمام (بنصائح) ابن الزبير، التي تخلى عنها حالًا، عندما علم أنه قد كشف بها نواياه الحقيقية وتقدم (بنصائح) جديدة دعا فيها الإمام للبقاء في مكة وقتال يزيد فيها.

ولعل ابن الزبير أدرك أن الحسين عليه السلام إذا ما قتل في العراق، فإن يزيد لن يتورع عن قتاله وقتله هو، حتى ولو كان عائذاً بالبيت الحرام، خصوصاً وإن الإمام ألمح إلى أنه سيقتل حتماً وسيُعتدى عليه كما اعتدت اليهود في السبت.

فيزيد لم يطلب البيعة على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وحتى سيرة (الخلفاء) من قبله، وإن ادّعى في الظاهر أنه يطلب ذلك، وإنما طلب البيعة حاكماً مطلقاً لا حق لأحد أن يشاركه في السلطان والرأي وأراد الناس أن يكونوا عبيداً له، وإذ أنه لم

(١) و(٢) المصدر السابق.

يكشف نواياه في البداية فإنه كشفها في واقعة الحرة، وكان جزاء الذين أرادوا مبايعته على كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله أن ضربت أعناقهم صبراً.

ماذا لو بقي الحسين عليه السلام في مكة

وبقاء الحسين عليه السلام في مكة سيتيح ليزيد الاعتداء لا عليه وحده شخصياً وإنما على حرمة البيت المقدس أيضاً، وهكذا خرج على رؤوس الأشهاد من أهل مكة وزوارها وحجيجها، حاملًا قضية الأمة كلها لافتاً نظرها إلى خروجه المتحدي، مصرحاً أمامهم أنه سائر للموت والشهادة وأنه آثر ذلك على أن لا يظل بمكة ـ التي لا تزال حرماً آمناً ـ فتستباح حرمتها تقبله، أما ابن الزبير فكان يرى فيها درعاً قد يحميه بعض الوقت ويمنع عنه أعداءه.

وإذا ما كان ابن الزبير قد سر بخروج الإمام من مكة، فإن أعداداً غفيرة من أهل مكة وحجيجها قد افتقدوه وحزنوا لذهابه، وإن لم يجدوا في أنفسهم القوة اللازمة لمتابعته ومرافقته إلى ساحة النزال المقبلة في العراق، والموت معه هناك، ولم يذهب معه الأمن امتلك قناعة أكيدة بضرورة مواجهة دولة الظلم، فليس من الهين على كل شخص أن يمضي إلى حد الموت بنفس الجرأة التي مضى إليها الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ما لم يكن متيقناً أن المهمة التي يمضي إليها هي أثمن من حياته. . . وهذا ما رآه الحسين وأصحابه فعلًا حينما حثوا الخطى نحو العراق.

ما الذي كان يمنع ابن الزبير، لو كان ـ كما حاول أن يبيّن للإمام ـ يتبنّى نفس قضيته، وهي إزالة الانحراف وإيقافه ومنع الأمة من الاستسلام والهزيمة، من المضي معه، وهو يعرف صدق نواياه وتوجهاته، ولو أنه فعل ذلك لكان قد سجل موقفاً كبيراً لن تنساه له الأمة، ولعلمت أنه دافعه كان حقاً القضاء على الانحراف، على أننا قلنا إن الدوافع لم تكن واحدة، غير أننا لا بد أن نذكر في هذا البحث أن ابن الزبير كان له حضور كبير في أحداث مكة، وأنه كان بغياب الحسين عليه السلام، الشخصية الرئيسية التي أثرت في تلك الأحداث فيما بعد. . . وإذ لم يستطع الإقدام على الذهاب مع الحسين عليه السلام لاختلاف قضيتهما ودوافعهما، فإنه استطاع أن يكتسب رصيداً لدى البعض باعتباره أحد المعارضين الصامدين بوجه السلطة، وقد أتاح له استشهاد الحسين وأصحابه فرصة ذهبية للتنديد بيزيد وأركان حكمه، ودعوة الأمة للالتفاف حوله، وكانت الفائدة ذات أثر مزدوج لابن الزبير عندما قتل الإمام الحسين، فقد خلا

له الجو أولًا من الإمام وذهب مَن لا يستطيع منافسته أو الصمود بوجهه، واستغل قضية استشهاده ليعرضها على الأمة كدليل على وحشية النظام واستبداده واستهتاره بالقيم والمثل الإسلامية الخيرة.

بعد واقعة الحرة: أدرك المسلمون حقيقة الخطر الأموي

بعيد واقعة الحرة قدم على ابن الزبير (كلّ أهل المدينة، وقد قدم عليه نجدة بن عامر المنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت)[(١)].. وقد قاتلوا جيش الشام الذي كان يقوده حصين بن غير السكوني بعد هلاك مسلم بن عقبة المري بعد خروجه من المدينة[(٢)]، واستمر القتال حتى الليل في اليوم الأول منه في آخر المحرم، وقد بقوا يقاتلون جيش الشام بقية المحرم وصفر وربيع الأول حتى جاءهم نعي يزيد لهلال ربيع الآخر.

في بداية ربيع الأول، سنة أربع وستين (قذفوا البيت بالمجانيق، وحرّقوه بالنار وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطّارة مثل الفنيق المزبد   نرمي بها أعواد هذا المسجد

..وجعل عمرو بن حوط السدوسي يقول:

كيف ترى صنيع أم فروة   تأخذهم بين الصفا والمروة

يعني بأم فورة المنجنيق)[(٣)].

ويدل تهديدهم لهذا الرجز (الفكاهي) على أنهم لا يرون للبيت حرمة وأنه مجرد أحجار لا قيمة لها، ويذهبون إلى حد التغزل بأحجارهم التي يرمون بها (أعواد هذا المسجد) الذي خُص بالكرامة وسعوا هم لامتهانه والنيل منه، ولا نعتقد أن شاعراً

---

(١) الطبري ٣/ ٣٧١. وابن الأثير ٣/ ٤٦٤

(٢) وقد أوصى حصين بقوله: (.. أنظر يا برذعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به، عمّ الأخبار ولا ترع سمعك قريش أبداً، ولا تردن أهل الشام عن عدوّهم، ولا تقيمن إلا ثلاثا حتى تناجز ابن الزبير الفاسق، ثم قال: اللهم إني أعمل عملاً قط بعد شهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحب ألي من قتلي أهل المدينة ولا ارجحى عندي في (الآخرة) المصدر السابق الطبري ٣/ ٣٦٠ وابن الأثير ٣/ ٤٦٣.

(٣) الطبري ٣/ ٣٦١ وابن الأثير ٣/ ٤٦٣.

جاهلياً مستهتراً يجرؤ على ترديد ما ردده غزاة البيت المسلمون!، فله حرمته في نفوس الجاهليين أيضاً وله قداسته التي حرصوا على أن تظل قائمة، غير منتهكة.

ابن الزبير: دعا لنفسه بعد غياب الحسين عليه السلام عن الساحة

أظهر ابن الزبير الدعوة لنفسه بعد قتل الحسين عليه السلام، فقد قام إثر ذلك (.. في أهل مكة وعظّم مقتله، وعاب على أهل الكوفة خاصة، ولام أهل العراق عامة، فقال: إن أهل العراق غُدُرٌ فجرٌ إلا قليلًا، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق؛ وإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولّوه عليهم، فلما قدم عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سميّة سلماً فيمضي فيك حكمه، وإما أن تحارب، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتل حسين! لعمري لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وناهٍ عنهم، ولكنه ما هم نازل، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع. أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً، لا، ولا نراهم لذلك أهلًا. أما والله لقد قتلوه طويلًا بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل. أما والله، ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

كلمة حق أريد بها باطل

كانت كلمة حزينة جديرة بمحبّ للحسين غيور على قضيته.. ولا شك أنه أراد استمالة المسلمين بإظهار حزنه الشديد عليه وتبيان صفاته العظيمة والمهمة الكبيرة التي تصدى لها وقدّم دمه لأجلها، ولعله كان يبدو في تلك اللحظات كما لو كان يريد السير على نفس خطه، وإنه لم يرد إلا ما أراده وسعى إليه.

وقد (ثار إليه أصحابه فقالوا له: أيها الرجل أظهر بيعتك، فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر، وقد كان يبايع الناس سراً، ويظهر أنه عائذ بالبيت،

(١) مريم: الآية ٥٩.

فقال لهم: لا تعجلوا، وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة، وقد كان أشد شيء عليه وعلى أصحابه، وكان مع شدته عليهم يواري ويرفق.

وعلا أمر ابن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: أما إذ هلك الحسين عليه السلام، فليس أحد ينازع ابن الزبير)[1].

وكان موقف عمرو بن سعيد من ابن الزبير قد أزعج يزيد فاستبدله بالوليد بن عتبة، وعندما عاتبه على موقفه من ابن الزبير أجابه عمرو: (. . .إن جل أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه وهووه وأعطوه الرضا، ودعا بعضهم بعضاً سراً وعلانية، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرني ويتحرز مني، وكنت أرفق به وأداريه لأستمكر منه فأثب عليه، مع أني قد ضيقت عليه، ومنعته من أشياء كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلا معونة، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالاً لا يدَعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إليَّ باسمه واسم أبيه، ومن أي بلاد هو، وما جاء به وما يريد، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغراً، وإن كان ممّن لا أتهم، خلّيت سبيله. .)[2].

وقد علم ابن الزبير أن يزيد قد عزل عمرو بن سعيد عن الحجاز بسببه، وقد أصبح أكثر حذراً من خليفته الوليد بن عتبة، فعندما (ولي الوليد الحجاز أقام يريد غرة ابن الزبير فلا يجده إلا متحرزاً ممتنعاً.

ثورة نجدة بن عامر النخعي في اليمامة

وثار نجدة بن عامر النخعي باليمامة حين قتل الحسين، وثار ابن الزبير بالحجاز، وكان الوليد يفيض من المعرَّف ويفيض معه سائر الناس، وابن الزبير واقف في أصحابه، ونجدة واقف في أصحابه، ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه.

وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن أكثر الناس أنه سيبايعه. . .)[3] كان نجدة بن عامر الحنفي أحد الخوارج الذين لا يرون قتال أمير المؤمنين عليه السلام

(١) الطبري ٣/٣٤٦ - ٣٤٧ وابن الأثير ٤٤٦ - ٤٤٧.
(٢) الطبري ٣/٣٤٩.
(٣) المصدر السابق ٣/٣٤٩-٣٥٠ وابن الاثير ٣/٤٤٩.

ويخطئون من قاتله وقد عزم مع جماعة من أصحابه على التوجه إلى المدينة لحمايتها من جيش الشام، فسبقهم إليها، فذهبوا إلى مكة وقد توقعوا ذهابه إليها.

وقد أراد نجدة وأصحابه امتحان ابن الزبير، فإن كان على رأيهم بايعوه.. (فلما صاروا إلى ابن الزبير عرفوه بأنفسهم، فأظهر لهم أنه على رأيهم، حتى أتاهم مسلم بن عقبة وأهل الشام، فدافعوهم، ولم يبايعوا ابن الزبير)[1].

في الجولة الأولى من الحوار، وقد دخلوا عليه وهو متبذل وأصحابه متفرقون عنه قالوا له: (إنا جئناك لتخبرنا رأيك، فإن كنت على الصواب بايعناك، وإن كنت على غيره دعوناك إلى الحق. ماذا تقول في الشيخين؟ قال: خيراً.

قالوا: فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد[2]، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس، وآثرهم بفيء المسلمين، وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير نائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه، وقد بايعا علياً، وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصوا حبها أن يقرن في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فإن أنت قلت كما تقول فلك الزلفة عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت أحكامه وأفسدت إمامته، خذلك الله وانتصر منك بأيدينا)[3].

---

(١) الكامل للمبرد ٣/ ١٥٥.

(٢) المقصود به الحكم بن أبي العاص ـ والد مروان ـ الذي طرده رسول الله ﷺ إلى الطائف فرده عثمان أيام خلافته وآواه.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٥ - ١٥٦ ومروج الذهب ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ومذاهب الخوارج مذاهب عجيبة غريبة، وكان مبدأ أمرهم إن أجبروا أمير المؤمنين عليه السلام على قبول التحكيم رغم انه رفض ذلك في البداية، وعندما أخل الحكمان بالحكم وكان لصالح معاوية طلبوا من الإمام رفضه، فلم يتسن له ذلك بعد ظهور الفتن والخلافات بين جيشه، وقد حاربهم الإمام، وأعد حملة كبيرة لقتال معاوية وأهل الشام، إلا أنه اغتيل على يد خارجي في مؤامرة غامضة، وقد نهى الإمام عن قتالهم بعد وفاته، عالماً أن القوى التي ستتصدى لهم لن يكون دافعها الحفاظ على الإسلام وإنما على عروشها.

ابن الزبير: أموي من لون آخر

وإذ أن ابن الزبير لم يستطيع إبداء رأيه الصريح وهو غير مستعد لمواجهتم إذا ما قاتلوه، فإنه حاول مداراتهم وأجابهم أجوبة فضفاضة ودعاهم لملاقته عشاء وليفصل لهم رأيه في كل ما طرحوه من أمور وآراء، وعندما حضروا في الموعد المحدد خرج إليهم وقد لبس سلاحه مما لفت نظر نجدة الذي قال لأصحابه: (هذا خروج منابذ لكم)[1]، وحاول في هذه المقابلة الثانية تبرير أعمال عثمان وبدا أنه كان متحيزاً له بشكل واضح، وأشاد بأبيه وطلحة وعائشة وبعد هلاك يزيد قال له نافع بن الأزرق: (يا بن الزبير، اتق الله ربك، وابغض الخائن المستأثر ـ يريد بذلك عثمان ـ وعاد أول من سن الضلالة، وأحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب، فإنك إن تفعل ذلك ترض ربك، وتنج من العذاب الأليم نفسك وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم، واذهبوا فيّ الحياة الدنيا طيباتهم وعرضوا عليه (نافع وأصحابه) رأيهم في عثمان قائلين: (ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان فحمى الأحماء وآثر القربى، واستعمل الفتن ورفع الدره، ووضع السوط ومزق الكتاب وحقر المسلم وضرب منكري الجود، وآوى طريد الرسول ﷺ وضرب الاسبقين بالفضل، وسيّرهم وحرمهم، ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش، ومجان العرب، فسارت إليه طائفة من المسلمين أُذ الله ميثاقهم على طاعته. لا يبالون في الله لومة لائم، نقتلوه، فنحن لهم أولياء، ومن ابن عَفّان وأوليائه براء. فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ وقد رد عليهم ابن الزبير قائلًا (وقد فهمت الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق أعلم بابن عفان وامره مني. كنت معه حيث نقم القوم عليه، واستعتبوه، فلم يدع شيئاً استعتبه القوم فيه إلا أعتبهم منه. ثم أنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون انه كتبه فيهم، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم: ما كتبته، فأن شئتم فعاتوا بينتكم، فإن لم تكن حلفت لكم، فوالله ما جاؤوه ببيّنة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتله. وقد سمعت ما عتبه به، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهل، وإن أشهدكم ومن حضر أني وليّ لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه وعدو أعدائه. قالوا: فبريء الله منك يا عدو الله. قال: فبريء الله منكم يا أعداء الله..) الطبري ٣/ ٣٩٨ وابن الأثير ٣/ ١٩٠.

---

(١) المصدر السابق.

ولعله ما كان بإمكاني أي أموي الدفاع عن عثمان بأفضل ما دافع عنه ابن الزبير، وإذ أنه كان على الخط المعادي لأهل البيت منذ البداية ومن المناوئين لهم، فإنه اعتقد أنه يستطيع استقطاب بقية السائرين على هذا الخط واستمالتهم، وهم شرائح كبيرة أعدها معاوية وربّاها وضلّلها في حملة دؤوبة مدروسة طوال حوالي ربع قرن؛ وبالفعل كان معظم هؤلاء أميل إليه بعد هلاك يزيد، وكاد الأمر أن يستتب له لولا أن تغلب مروان وولده عبد الملك عليه في النهاية.

وكان ابن الزبير بعثمانيته يصنع القواعد ويمد الجسور بينه وبين كل (العثمانيين) بما فيهم الموالين للخط الأموي برمته؛ فعندما سيصير خليفة، وهو قد دعا إلى نفسه فعلًا، فإن الأوضاع لن تتغير وإن الموالين للخط الأموي سيظلون في مراكزهم ولن تتأثر مكاسبهم أو امتيازاتهم التي تحققت في ظل النظام السابق، وكل ما في الأمر أنهم سيعيشون في ظل حاكم (عثماني)، أموي بعد أن كانوا يعيشون في ظل حاكم أموي (عثماني)، كانت الأموية، وستعود العثمانية، ومنبعهما واحد وتوجههما واحد، وإن كانت الأموية أقل حياء وأكثر تجاهراً بالمنكر وجرأة على ارتكابه، وهكذا وجدنا ترحيباً بابن الزبير لدى أوساط الأمويين وفي مقدمتهم حصين بن نمير، قائد جيشهم في منكة، حال هلاك يزيد، وكاد مروان وكبار آل أمية يبايعونه لولا قدوم عبيد الله بن زياد وتحريضه مروان على طلب الأمر لنفسه.

منهج ابن الزبير: عداوة أهل البيت عليهم السلام

وأثبت ابن الزبير بادعائه سلامة خط عثمان ودفاعه عنه إنه إنسان دون مبادىء وإنه لم يكن سوى ساع للحكم والسلطان، فليس من المعقول وقد كان في مركز أتيح له فيه الاطلاع على العديد من خفايا الأمور والأحداث، أن يجهل الانتهاكات الكبيرة التي حدثت في عهد عثمان والتي كان السبب في معظمها عدوه اللدود مروان[1].

كما أثبت أنه على خطه الأول في عداوة أهل البيت وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام، فهو (من المبغضين لأهل البيت. فكان يقال من علي بن أبي طالب في خطبه. .)[2] وبذلك يمهد لنيل ود أهل الشام وكسب رضاهم منذ البداية.

---

(١) (روى هشام بن عروة عن أبيه قال: كان عثمان استخلف عبدالله بن الزبير على الدار يوم الدار فبذلك أدع ابن الزبير الخلافة) مروج الذهب ٥/ ١٦٦.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٩٧.

كان واضحاً للجيل الذي عاصر ابن الزبير أنه لم يكن يستهدف من حركته تصحيح الانحراف وتقويم الأوضاع وإعادتها حتى إلى ما كانت عليه في عهدي الشيخين... وإنه كان يعد بالسير على خط عثمان، فقد زيّن للناس سيرته وكان مدافعاً قوياً عنه، كان ـ بكلمة ـ أحد الساعين للسلطان وكان توجهه دنيوياً بحتاً وإن غلّفه بالدين وجعل الكعبة حصناً له.

لقد أدرك ابن عمر وابن عباس وأبو برزة الأسلمي وجميعهم في مكة، إن ابن الزبير كان يسعى للدنيا ويقاتل عليها...

ورغم أن ابن عمر كان يتحاشى الصدام مع أية جهة ذات نفوذ، فإنه صرّح برأيه حول بيعة ابن الزبير، حينما طالبته بها زوجته (صفية بنت أبي عبيدة الثقفي) أخت المختار وقال لها: (أما رأيت بخلاف معاوية التي كان يحج عليها، فإن ابن الزبير لا يريد غيرها)[1]، فابن عمر وإن كان يتظاهر بالابتعاد عن الحياة العامة فإنه كان خبيراً بقومه يرصد تصرفاتهم ويتابع تحركاتهم، وله في خلفياتهم وماضيهم معرفة كبيرة.

شهادة (أبو برزة الأسلمي) بحق ابن الزبير: «إن ذاك الذي بمكة، والله ان يقاتل إلا على الدنيا..»

أما أبو برزة الأسلمي ـ أحد الصحابة المعروفين فقد كان يتذمر من الصراع الذي يشهده بين يزيد وابن الزبير، ويرى أنهما يسعيان للدنيا، وإن الضمانة الوحيدة لسلامة المسلمين هي التمسك بالخط الذي سار عليه أهل البيت مع أنه لم يذكر اسمهم صراحة لجلّاسه.

روى البخاري عن أبي المنهال قال: (لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، انطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي، حتى دخلنا عليه في داره. فقال أبي: يا أبا برزة، ألا ترى ما وقع فيه الناس؟

فقال: إني احتسبت عند الله، كأني أصبحت ساخطاً على إحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة، والقلة والضلالة وإن الله أنقذكم

---

(١) الانتفاضات الشيعية ص ٤١٣.
وقال ابن عباس بعد وفاته (.. ما زلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلات معاوية الشهب) العقد الفريد ٥/ ١٦٨

بالإسلام، وبمحمد ﷺ، حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم. إن ذاك الذي بالشام والله أن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله أن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة، والله أن يقاتل إلا على الدنيا)[١].

وقد روى الحاكم تكملة لأقوال أبي برزة قائلًا: (... فقيل له: فما تأمرنا؟ قال: لا أرى غير الناس إلا عصابة ملبدة، خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم)[٢].

بين ابن الزبير وابن عباس عندما قطع ابن الزبير ذكر رسول الله ﷺ في الصلاة

أما الموقف بين ابن الزبير وابن عباس ـ الذي لم يبايعه أيضاً ـ فكان متوتراً على الدوام وقد جرت خصومات وألقيت خطب وبلغ العداء بينهما أن ابن الزبير قطع ذكر رسول الله ﷺ في خطبة وهاجم بني هاشم[٣]، وقد جرت بينهما خصومات ومساجلات عديدة بسبب رفض ابن عباس ابن الزبير وتنديده به[٤]، كما كان ينتقص ابن عباس[٥] كما كان الجو متوتراً بين ابن الزبير وبين محمد بن الحنفية بعد أن رفض هذا الأخير مبايعته وأبى ابن الزبير إلا ذلك وألقى خطبة نال فيها من أمير المؤمنين ورد عليه ابن الحنفية بخطبة أخرى في المسجد الحرام، واستمر الموقف كذلك حتى بعد وفاة يزيد واشتداد أمر ابن الزبير، وقد ذهب إلى حد سجنه مع جماعة من بني هاشم رفضوا مبايعته كذلك في أحد سجون مكة ناوياً إحراقهم فيه لولا أن خلصهم المختار بن عبيد الثقفي[٦].

ولا بد للمرء أن يتساءل: فما فرق ابن الزبير عن غيره من الأمويين وقد تولى عثمان؟ ولا بد أننا قد أشرنا إلى بعض دوافعه من ذلك، ولا نرى بأساً من الإشارة إلى بعض مواقفه وأقواله، ومنها نرى أنه طالب ملك لا مدافع عن الإسلام كما ادعى ذلك وحاول الظهور بمظهر الإنسان الورع التقي الذي لزم البيت للعبادة والنسك، ولم ينس

---

(١) صحيح البخاري ط/ ٢٣٠ ك الأحكام.

(٢) المستدرك/ للحاكم ٤/ ٤٧١.

(٣) ابن أبي الحديد/ شر نهج البلاغة ٥/ ٨٢١.

(٤) المصدر السابق ٥/ ٨١٨.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٩٧.

(٦) تاريخ اليعقوبي ٢٦١ - ٢٦٢ ومروج الذهب ٢ - ٨٦.

التاريخ محاولته الوقوف مع الخوارج وادعاءه أنه منهم، حتى إذا تولى عثمان تفرقوا عنه (. . .لما سمع ابن الزبير للخوارج في القول، وأظهر أنه منهم قال له رجل يقال له قيس بن همام بن رهط الفرزدق:

يا ابن الزبير أتهوى عصبة قتلوا ظلماً أباك ولما تُنزع الشُكك

ضحّوا بعثمان يوم النحر ضاحية ما أعظم الحرمة العظمى التي انتهكوا

فقال ابن الزبير: لو شايعتني الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها، فتفرقت الخوارج عن الزبير لما تولى عثمان. . .)[1].

كما لم ينس محاولاته استمالة المختار بن عبيد الثقفي ثم تخليه عنه ومحاربته بعد أن اعتقد أن الأمور كادت أن تستتب لصالحه.

ابن الزبير: تكلف في العباس لكسب الناس

ومهما يتحدث نقلة الأخبار والمؤرخون عن صفاته الحسنة، فإنك تلمح تكلفاً من جانبه لعرض مثل هذه الصفات على الناس، فبها يستطيع استمالتهم بعد أن لم يجدوها في قادة الدولة ورعاة الناس وساستهم.

ترك يزيد الصلاة وشرب الخمر وتمادى في الاستهانة بالحرمات والحدود، وأبرز ابن الزبير نفسه كأكبر حريص على إقامة الشعائر التعبدية الظاهرية بشكل لا يقدر عليه كل إنسان. . (قال عمرو بن دينار: ما رأيت مصلياً أحسن صلاة من ابن الزبير، وكان يصلي في الحجر ـ والمنجنيق يصيب طرف ثوبه ـ فما يلتفت إليه.

وقال مجاهد: ما كان باب من العبادة يحجز الناس عنه إلا تكلفة ابن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت فجعل يطوف سباحة. . وكان صواماً قواماً، طويل الصلاة وصولًا للرحم عظيم الشجاعة، قسم الدهر ثلاث ليال: ليلة يصلي قائماً حتى الصباح، وليلة راكعاً، وليلة ساجداً حتى الصباح. . .)[2].

ولعله أراد بهذا التكلف الذي ألزم به نفسه أن يظهر كبديل مقبول لآل البيت عليهم السلام الذين اشتهروا بالعبادة والعلم، لم يتكلفوا بذلك ولم يتظاهروا به، وكان

(١) الكامل في الأدب للمبرد ٣/١٥٨.

(٢) السيوطي/تاريخ الخلفاء ١٩٧ - ١٩٨.

سلوكهم أصيلًا منسجماً مع استجابتهم للإسلام وفهمهم له. . . إضافة لما أراد إبرازه من تناقض بين إداءاته العبادية الطقوسية التي تستغرق وقتاً طويلًا منه والإداءات العبادية الطقوسية للحكام التي بلغت الحضيض ولم يعودوا يكلفوا أنفسهم مشقة التظاهر بها أمام المسلمين.

وقيل إنه (أول من كسا الكعبة الديباج، وكان كسوتها المسوح والأنطاع)[1] فهل كانت تغيب عن ذاكرته تحذير الحسين عليه السلام له أن لا يكون سبباً لانتهاك حرمتها، وقيامه بتركها وقد رفض أن تكون درعاً له، وقوله له: إنه يحب أن يقتل خارجاً عنها. لأنه حُدِّث أن كبشاً سيقتل بها ولا يحب أن يكون ذلك الكبش؟

ما قيمة أن يكسوها بالديباج أو أن يوسع بناءها وقد جعلها هدفاً من أهداف العدو المرصودة بالشر والعدوان، وكان السبب أن يقدم أعداء الإسلام على ضربها وحرقها كلما أرادوا ذلك؟

هل إن الديباج الذي كسا به الكعبة يزيل المرارة من نفوس المسلمين وهم يرون بيت الله العتيق ينتهك بتلك الطريقة الفظة الغليظة المستهينة التي لا تقيم أي وزن للحرمات والمقدسات.؟

أقدم كثيرون على كسوة الكعبة الشريفة بالديباج وبأرقى أنواع الأقمشة، قام بذلك عبد الملك بن مروان وملوك أمية من ولده وملوك بني العباس، فهل كانت تلك مآثر تذكر لهم، وقد انتهكوا الإسلام وحرمة المسلمين.؟

دينه كره محمد وآله ﷺ

كان ابن الزبير أحد الذين نصبوا العداوة لأهل البيت ولأمير المؤمنين عليه السلام خاصة، حتى إنه هو الذي حرض أباه الزبير على منابذته ومناوئته، مما لفت ذلك نظر أمير المؤمنين عليه السلام فقال في ذلك قولته المعروفة: (..ما زال الزبير رجلًا منا أهل البيت، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا)[2]. . . وقد أدى ذلك إلى أن يقتل الزبير بيد

---

(١) المصدر السابق ١٩٨ وذهب آخرون ـ كالواقدي ـ إلى نسبة قول للباقر عليه السلام إن أول من كسا الكعبة الديباج يزيد بن معاوية، وهو أمر لا يشرفه حتى ولو كان قد قام به فعلاً، فما أهمية ذلك وهو قد أقدم على انتهاك حرمتها وقد ضربها بالاحجار وأحرق أستارها..؟ وقيل إن أول من كساها بالديباج عبد الملك بن مروان المصدر السابق ٢٠٤.

(٢) مروج الذهب ٥/ ٦٤ - ٧٥.

عمرو بن جرموز المجاشعي غيلة بعد أن أدرك خطأه واعتزل يوم الجمل.. وقد كاد عبد الله بن الزبير نفسه أن يقتل في تلك المعركة بيد مالك الأشتر لولا أن عفا عنه مالك[1].

ودوافع كراهية ابن الزبير للنبي ﷺ ولأمير المؤمنين وأولاده من بعده تكاد تكون معروفة لدى الجميع[2] تضاف إليها رغبته في استمالة كل المناوئين له عليه السلام بما فيهم السائرين على خط الحزب الأموي كما أسلفنا...

تحذيرات الرسول ﷺ من ابن الزبير: «..ويل للناس منك وويل لك من الناس..»

غير أن المؤرخين وكتاب السيرة أسهبوا في الحديث عن شخصية ابن الزبير وحياته... فقد ذكر هو نفسه أن الرسول ﷺ قد حذّر منه كما حذّره هو نفسه.

(أخرج أبو يعلى في مسنده عن ابن الزبير أن النبي ﷺ احتجم، فلما فرغ قال له: يا عبد الله، اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد، فلما ذهب شربه، فلما رجع قال: ما صنعت بالدم؟ قال: عمدت إلى أخفى موضع فجعلته فيه، قال: لعلك شربته؟ قال: نعم. قال: ويل للناس منك وويل لك من الناس. فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم)[3].

ومهما يكن من أمر هذه الرواية التي كان مصدرها وراويتها الأول هو ابن الزبير نفسه، فإنها تشير إلى أمور عديدة... منها أنه أراد أن يبين للناس أنه قوي قوة استثنائية لا يبلغها أحد من الناس[4]، وأن لا أحد يستطيع أن ينال منه لأن قوته مستمدة

(١) المصدر السابق.

(٢) (لما توطد لابن الزبير أمره وملك الحرمين والعراقين، أظهر بعض بني هاشم الطعن عليه وذلك بعد موت الحسن أو الحسين، فدعا عبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفيه وجماعة من بني هاشم إلى بيعته، فأبوا عليه، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر، واسقط ذكر النبي ﷺ من خطبته فعوتب في ذلك فقال: والله ما يمنعني من ذكره علانية أني أذكره سراً وأصلي عليه. ولكن رأيت هذا الحي من بني هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم، وأبغض الاشياء إلي ما يسرهم. ثم قال لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار، فأبوا عليه. فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن...) العقد الفريد ٥/ ١٦١.

(٣) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ١٩٨.

(٤) مع أنّ المؤرخين رووا أنّ محمد بن الحنفية كان يتمتع بقوة بدنية تتفوق على قوته كثيراً مما أثار حسده وغيظه عليه.

عن رسول الله، وقد جرت دماؤه في عروقه! ولا ندري لم لا تكون كذلك في أجسام كل الذين جرت دماء النبي في عروقهم، لا الدماء التي نبذها جسمه ورماها بعد الحجامة.

وتعيد قصته إلى الأذهان قصة معاوية التي احتفظ بقلامات من أظفار رسول الله ﷺ وشعره، وقد أمر بسحقها ووضعها في عينيه وفمه لتنجيه من الهلاك ومن النار بزعمه، ناسياً أنه انتهك حرمة الرسول ﷺ وحاربه وكان من أشد أعداء الذين ينتمون إليه انتماء صحيحاً وهم من لحمه ودمه، فلا ندري كيف يعتقد من يقدم على قتال آل الرسول ﷺ وسفك دمائهم، أن أظفاره وما فضل من شعره ستنجيه من الهلاك.

وإذا ما كان ابن الزبير قد ولد بعد عشرين شهراً من الهجرة[1]، فلا بد أنه كان طفلًا صغيراً حتى وفاة النبي ﷺ نفسه، ولا يعلم أحد كيف توصل إلى إدراك ما سينجم عنه شربه لدم رسول الله ﷺ الذي أمره أن يهرقه.

ثم ألا يدل عصيانه لأوامر رسول الله ﷺ وهو لا يزال صبياً صغيراً على استعداد لعصيانه في كل ما أمر به ونهى عنه..؟

أول ما أفصح به وهو صغير: السيف

لعل هذه القصة من موضوعات ابن الزبير نفسه أراد نشرها بين الناس للغاية التي ذكرناها أو لأمر ما أضمره في نفسه.

(أخرج عن هشام بن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمي عبد الله بن الزبير - وهو صغير - السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكوننّ لك منه يوم ويوم ويوم)[2].

ولا بد أن خبراً ما عن رسول الله ﷺ بشأن ولده قد وصل إليه فصرح بما صرح به بشأن هذا الغلام الجامح الطموح الذي كان له من السيف يوم في الجمل كاد أن يقتل فيه وآخر في حصار مكة الأول في دولة يزيد ثم ثالث في دولة عبد الملك في حصار مكة التالي.. وقد قضى عليه الحجاج في هذا اليوم الثالث.

---

(١) المصدر السابق ١٩٧.

(٢) نفس المصدر ١٩٩.

وقد روى لنا المؤرخون قصصاً عديدة عن بخل ابن الزبير ومنها قصص طريفة ذكرت لغرابتها[1]، وقد عدّ من البخلاء المشهورين، كما ذكرت عن ذلك أبيات من الشعر اشتهرت وذاعت بين الناس[2]. . . وهي صفة لا يحملها إنسان يريد التقرب إلى الله حقاً، كما أنها غير لائقة بمن يتصدون لقيادة الناس وتزعمهم، فكيف بمن يدعي خلافة رسول الله ﷺ . .

بخيل حسود

وقد انزعج مصعب من بخل أخيه عبد الله فكتب إليه: (. .من سألك شيئاً فاكتب إليَّ به، فإن أعطيته كان حمده لك، وإن منعته كان ذمّه علي.

فلم يكتب لأحد إليه إلا أعطاه، فأمسك عن الكتابة لأحد إليه)[3].

وقد رويت قصص عن حسده، وخصوصاً لابن الحنفية الذي تفوق عليه بقوته البدنية. . .

ورويت قصص عن سوء خلقه وخصوصاً مع أهل العراق بعيد قتل المختار، وقد حسب أن الأمور قد استتبت لصالحه نهائياً وأصبح بإمكانه القضاء على خصومه في الشام. . (قتل مصعب من أصحاب المختار ثلاثة آلاف، ثم حج في سنة إحدى وسبعين فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ومعه وجوه أهل العراق. فقال: يا أمير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق، ولم أدغ لهم نظيراً، فأعطهم من المال، قال: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلاً من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم.

فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق، وقد حرمهم عبد الله بن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم، فراسلوا عبد الملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله)[4].

ولا شك أن ابن الزبير لم يكن يتمتع بكياسة وحسن تصرف في المواقف الحاسمة، وإذ أن بخله غلبه، فلم ير لأحد من وجوه أهل العراق حقاً في أعطياته،

---

(١) نفس المصدر ١٩٩.

(٢) راجع العقد الفريد ٧/ ١٩٦ - ١٩٧ و٨/ ١٢ وراجع المصدر السابق ١٩٩.

(٣) البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ١٩٦.

(٤) العقد الفريد ٥/ ١٥٤.

فإنه أراد تلافي ذلك بتوجيه الذم إليهم وتحميلهم مسؤولية ما حدث من مشاكل، ولعله دغدغ بذلك مشاعر أهل الشام.

وإذ لم ير أهل العراق إلا وجهاً أموياً ادّعى كره آل أمية، وإذ أنه وعد بالسير على خط عثمان وتبنى الدفاع عنه، فإنهم رأوا أن الأمر سيان أن يحكمهم ابن الزبير أو ابن مروان، وليكن الذي يدفع لهم ويعاملهم بأكثر قدر من الاحترام هو الجدير بمبايعتهم وولائهم الذي أصبح سلعة في سوق الحكم والمصالح بعد غياب القيادة الحقيقية عن الساحة.

كاد أن يتغلب لولا مشورة ابن زياد على مروان

ولا نريد استقصاء قضية ابن الزبير إلا إلى المدى الذي يفيدنا في هذا البحث، كالحوادث التي رافقت حياته وكان له دور بارز فيها تحتاج إلى دراسة واسعة قد يتصدى لها بعض المختصين ليعرضوا علينا دوافع هذا الرجل الطموح الذي سعى لنيل منصب (الخلافة) بجد ومثابرة وعناد وكان سبباً لحرف أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام ثم مقتله فيما بعد، وكان سبباً لأكبر انتهاك نال الكعبة على يد الحكام الأمويين رغم تحذيره من القيام بالقتال هناك. غير أننا لا بد أن نشير إلى بعض الحوادث التي رافقت خروج ابن الزبير وأهل مكة على حكومة يزيد والمطالبة لنفسه بالخلافة بعد هلاكه ومنها ضرب الكعبة من قبل حصين بن نمير، وموت يزيد ودعوة حصين إياه للذهاب معه إلى الشام وإعلان نفسه خليفة هناك، وعزم مروان ووجوه بني أمية على مبايعته، وهروب عبيد الله بن زياد من البصرة إلى الشام وتحريضه مروان على المطالبة بالخلافة لنفسه بعد أن كاد يستسلم لابن الزبير الذي بويع بالخلافة في معظم الحواضر الإسلامية المهمة، ثم استتاب الأمر في النهاية لعبد الملك بعد موت مروان والقضاء على منافسيه في الشام والعراق.. ثم القضاء على ابن الزبير وضرب الكعبة ثانية بشكل أشد على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

على أن ما يلفت نظرنا في كل تلك الوقائع، أن الحروب المعلنة بين الفرق المتصارعة لم تعد ترفع فيها الشعارات الإسلامية البراقة التي كانت ترفعها في السابق في محاولة لإيهام الأمة أن هدفها الكبير هو حماية الإسلام وتأمين وحدة المسلمين، كما فعل ذلك معاوية وجماعة من الطامحين للحكم، فلم تعد المسألة تعرض الآن كمسألة إسلامية وخلافة إسلامية بقدر ما أصبحت قضية ملك عقيم لا يريد أحد أن

يتنازل عنه للآخرين. . . وأصبح همّ المتكلمين عن الشرعية أن يبيّنوا (شرعية) حكم من بويع أولًا، وعدم شرعية منافسيه لأنهم لم يسبقوه إلى ذلك وشرعية حكمهم بعد أن مات هذا، وأصبحنا نسمع أقوالًا وفلسفات غريبة طلع بها علينا أناس مرموقون من السلف الصالح الذي ظل يحظى بمكانة مرموقة لدى أجيال عديدة من المسلمين إلى يومنا هذا.

يقول السيوطي في (تاريخ الخلفاء)، عند استعراض أمر ابن الزبير:

(. . .وكان ممن أبى البيعة ليزيد بن معاوية، وفر إلى مكة، ولم يدع إلى نفسه، لكن لم يبايع، فلما مات يزيد بويع له بالخلافة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان. . . ولم يبق خارجاً إلا الشام ومصر، فإنه بويع بهما معاوية بن يزيد، فلم تطل مدته، فلما مات أطاع أهلهما ابن الزبير وبايعوه، ثم خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ثم مصر، واستمر إلى أن مات سنة خمس وستين، وقد عهد إلى ابنه عبد الملك.

بين الذهبي وابن خلدون.. حكايات وأساطير

والأصح ما قاله الذهبي أن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغ خارج على ابن الزبير، ولا عهده إلى ابنه بصحيح، وإنما صحت خلافة عبد الملك من حين قتل ابن الزبير، وأما ابن الزبير فإنه استمر بمكة خليفة إلى أن تغلب عبد الملك فجهز لقتاله الحجاج في أربعين ألفاً، فحضره بمكة أشهراً، ورمى عليه بالمنجنيق. . . فظفر به وقتله وصلبه. .)[1].

وإذا كانت بداية عبد الملك غير مشروعة عندما خرج على ابن الزبير، فكيف صحت خلافته بعد أن تغلب عليه بعد ذلك. .؟ لا شك أن من يقول بذلك يريد أن يقول أيضاً: إن الحق مع القوي وإن لا شريعة أو قانون إلا شريعة القوة أو قانونها.

وإذ تغلب من تغلب. . فلا بأس أن نذهب إلى حد تمجيده وتبرئته من العيوب والمساويء وتحسين صورته، لأن قانون الغلبة هو السائد ومن يحكمون الآن لا يختلفون عمّن حكموا من قبل.

يقول ابن خلدون عن مروان وابنه اللذين عدّا باغيين على ابن الزبير قبيل مقتله، ربما حتى برأي ابن خلدون نفسه، مبرراً سعيهما لاستلام الحكم (. . .وكذلك كان

(١) السيوطي / ١٩٧ - ١٩٨.

مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً، لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق إلا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد..)[1]...

وإذا كانت (الضرورات) التي تحمل مروان وابنه على انتهاج مذهب أهل البطالة والبغي كثيرة ما داما يريدان توطيد سلطانهما، فلا بد أن يقال إنهما كانا يخشيان افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد كما يقول ابن خلدون، ولا بد أن تسوى المسألة بهذه الطريقة الساذجة ويطوى الملف باعتبار أن الجميع كانوا عادلين متحرين لمقاصد الحق، وإنهم اجتهدوا، فأصاب من أصاب منهم وأخطأ من أخطأ والجميع في نهاية المطاف مثابون مأجورون وفي جنات النعيم.. أما الملايين من أبناء الأمة الذين كانوا ضحايا مباشرة وغير مباشرة لصراعاتهم وأطماعهم، فلا بد أنهم هم الذين سيكون حسابهم عسيراً وسيلقون أشد الجزاء والعقوبات في نار جهنم إذا ما (أخطأوا) أو رفضوا الانصياع للسلطان (العادل المجتهد المتحري مقاصد الحق والعدالة)... فجهنم ليست إلا لأمثال هؤلاء..!

أما (أقطاب) الحكم فلا بأس أن يحارب بعضهم بعضاً ويبغي بعضهم على بعض، ما داموا يتحرون مقاصد العدل والحق، ولا بأس أن يسب بعضهم بعضاً أو يُخطِّئه أو يكفِّره أو يشن الحرب عليه.

ويهمنا أن نذكر هنا أن يزيد أصبح لا يذكر بعد موته ـ حتى من قبل الحكام الأمويين أنفسهم إلا بكل سوء، وقد تنكر له من كان يدين له بالولاء بالأمس كمروان وعبد الملك ابنه، وقد عملوا على فضح أعماله وكأنهم لم يكونوا راضين بل ومشاركين في جرائمه وانحرافاته[2].

---

(١) ابن خلدون/ المقدمة ٢٢٨.

(٢) مع أن تلك شهادات حق أريد به باطل.. وإذ أصبح يزيد حفرته وخبراً من أخبار الماضي فإن الطعن عليه من قبل عبد الملك وعبيد الله بن زياد وأمثالهما أصبح وسيلة للتقرب من الناس يريدان بها توطيد سلطانهما.. ولسنا بحاجة لذكر دوريهما في قمع ثورة الحسين وأهل المدينة وموالاتهما ليزيد والعمل على التقرب منه بكل طريقة ولو على حساب أرواح الناس ومصائرهم، على أننا لا ننكر أهمية شهادات حقيقية كشهادة عمر بن عبد العزيز بن مروان، وقد أشرنا إليها في كتابنا هذا..

مسلم بن عقبة المري: بذّاء فاحش، عبد فرعون

سار مسلم بن عقبة إلى مكة، بعد أن أباح المدينة ـ كما رأينا ـ وقد هلك في الطريق، وكان مريضاً، وقد عيَّن محله الحصين بن نمير بأمر مسبق من يزيد ليكمل المسير إلى مكة ويفعل فيها فعله في المدينة.

وقد دل سلوك مسلم بن عقبة على قناعة وإيمان مطلقين بمعاوية وابنه يزيد، وتحيز ظاهر إليهما، رأى معه أنه قد قام بفعل يرضي الله ما دام أنه سيرضي سيده يزيد. . . وقد رأينا أنه قد عمد إلى ألفاظ نابية وسلوك خشن أراد أن يظهر به ازدراءه للإسلام ورسوله ﷺ حتى أنه أمر أفراد جيشه بربط خيولهم بمسجد رسول الله ﷺ، وقد عرضت لقطات تجسد بذاءته وفحش قوله مع أهل المدينة ومع قادته ومع وجوه بني أمية الموجودين في المدينة، وقد كان عادلًا في توزيع شتائمه وبذاءاته عليهم جميعاً دون استثناء، حتى أنه سمى وكيله لغزو مكة حصين بن عمير برذعة الحمار.

يتباهى باستباحة المدينة: «..لم أعمل عملًا أحب إليّ من قتلي أهل المدينة..»

وقد استمعنا لوصيته إياه حين استخلفه، وكلماته التي ختمها بها (. . اللهم إني لم أعمل عملًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحب إليَّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة)[1].

وقد بدا أنه كان مسروراً بفعلته مع أهل المدينة الذين كان يحقد عليهم ذلك الحقد الشديد لمجرد أنه لمس ذلك الحقد لدى معاوية ويزيد والأمويين، ولم تكن تخفى عليه المشاعر الحقيقية لأسياده.

لا حرمة للكعبة: «..كيف ترى صنيع أم فروة.. تأخذهم بين الصفا والمروة»!

وقد دارت معركة بين قوات حصين من أهل الشام وبين قوات ابن الزبير وأهل مكة ونجدة الخارجي ومن التحق بهم من أهل المدينة. . وكان الدفاع عن مكة وبيتها الحرام هدفاً مشتركاً للمدافعين وإن تباينت أهدافهم الأخرى. وإذ أن أهل المدينة والخوارج انسحبوا بعد انتهاء المعركة الأولى بعد وفاة يزيد، فإن ابن الزبير بقي وحده هناك يحاول استقطاب الناس حوله وقد أظهر أمره وطلب من الناس مبايعته.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٠/ ٣٦١ وابن الأثير ٣/ ٤٦٣ - ٤٦٤.

استمرت تلك المعركة الأولى عدة أشهر، رمى أهل الشام خلالها (البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمي بها أعواد هذا المسجد

وجعل عمرو بن حوط السدوسي يقول:

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم بين الصفا والمروة

يعني بأم فروة المنجنيق)[1].

(وكان حصين بن نمير قد نصب المجانيق على أبي قبيس وعلى قعيقعان، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت... وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية، فكلما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط، فجاء رجل من أهل الشام بنار في طرف سنانة فأشعلها في الفسطاط، وكان يوماً شديد الحر، فتمزق الفسطاط، فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب والسقف، وانصدع الركن واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض..)[2].

(نصب أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج، فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت، ورمي مع الأحجار بالنار والنفط، ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات وانهدمت الكعبة واحترقت البنية)[3].

أحرق الكعبة فأهلكه الله

وانتهت هذه المعركة والحصاد الأول بهلاك يزيد، الذي قصمه الله قصم الجبابرة على حد تعبير ابن كثير. وقد عرض حصين بن نمير على ابن الزبير أن يبايعه ويخرجا معاً إلى الشام وقال له بعد أن انفردا عن أصحابهما... (... أنا سيد أهل الشام لا أدافع، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك، فتعال أبايعك الساعة، ويُهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة، وتخرج معي إلى الشام، فإني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز.

(١) المصدر السابق.

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٤١.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٨٦.

فقال: لا والله لا أفعل ولا آمن من أخاف الناس وأحرق بيت الله وانتهك حرمته.

قال: بل فافعل على أن لا يختلف عليك اثنان. فأبى ابن الزبير.

فقال له حصين: لعنك الله ولعن من زعم أنك سيد، والله لا تفلح أبداً. اركبوا يا أهل الشام. فركبوا وانصرفوا)[١].

حسب أنه قوي.. فهدّد وأوعد

وبذلك فإن ابن الزبير قد ضيع فرصة كبيرة على نفسه بعدم قبول ما عرضه عليه ابن نمير، ولم تكن غايته من ذلك الرفض الاقتصاص من المجرمين الذين أباحوا المدينة وضربوا مكة، وإنما حسب نفسه القوة الوحيدة المسيطرة على الساحة، ويؤيد ما نقوله هنا ندمه بعد ذلك على الذي صنع حيث أرسل ابن نمير بعد خروجه. . . (أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلًا، ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم. فقال: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدتُ هناك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس، فما أنا صانع؟)[٢].

وقد أثبت ابن الزبير بتسرّعه في الإجابة وحسم الموقف خطلًا في الرأي وبعداً عن الكياسة، فمن كان في مثل موقفه وعلى مثل رأيه لا يتورع عن الوصول إلى غايته بأية طريقة، غير أن تقديره للأمور لم يكن سليماً وكان قاصراً في سياسته وتبصره ونظرته للأمور وقد أدرك ذلك سعيد بن عمرو الذي كان حاكماً لمكة من قبل يزيد

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٤٢ والطبري ٣/ ٢٦٣ وقد أورد أنه قال لحصين: أنا أهدر تلك الدماء، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة. وأخذ الحصين يكلمه سراً وهو يجهر جهراً. وأخذ يقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين بن نمير: قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أريباً. قد كنت أظن أن لك رأياً. إلا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً. وأدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكه).

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٦٣

وروى ابن الأثير ٣/ ٤٦٧ أن حصين أجاب ابن الزبير بقوله: (قبح الله من يعدك بعد ذاهباً وآيباً، قد كنت أظن أن لك رأياً وأنا أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة).

وقال عن موقف ابن الزبير هذا: (ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام إلا تَطيّرٌ... وإن عبد الله، والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان)[1].

بين حصار وحصار.. كادت الأمور أن تستتبّ له

وقد وقعت أحداث عديدة بين حصار مكة الأول سنة أربع وستين وحصارها الثاني الذي انتهى عام ثلاث وسبعين وقتل فيه ابن الزبير، وقد كادت الأمور تستتب لصالحه وكان مؤيدوه حتى في الشام نفسها أكثر عَدداً وعُدداً وقد دانت له الحجاز والعراق وقسم من بلاد الشام وجل أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم.. وقد كان الضحاك بن قيس في دمشق والنعمان بن بشير وهو على حمص وزفر بن الحارث وهو على قنسرين ونائل بن قيس وهو على فلسطين، إلى جانبه. ولو أن حصير بن نمير انحاز إليهم ـ وكان قد دعا ابن الزبير للقدوم معه لمبايعته ـ ثم رأى بعد ذلك أن تكون الخلافة لمروان ابن الحكم، لكان ميزان القوى الأموي قد مال لجانبه، فقد تدهورت أوضاع بني أمية وارتكبوا ووقعوا في إشكال شديد حتى إن مروان نفسه لم يفكر بالأمر نفسه وقرر مبايعة ابن الزبير لولا أن ثناه عن ذلك عبيد الله بن زياد وقد قدم من البصرة.

كانت (جرأة) أهل الشام على دماء الناس مقرونة بجرأة (الخليفة الحاكم) وإرادته، وكانت جرأتهم على دماء أهل الحجاز خاصة واستباحتهم المدينة وضربهم البيت المقدس دون وجل أو تردد وإنشادهم الرجز بلا مبالاة وكأنهم يقومون بضرب معبد وثني يدل على عدم وجود أية روابط روحية قائمة على أساس الإسلام بينهم وبين بقية المسلمين، وإن ولاءهم كان لشخص الخليفة الأموي وحده، وقد كانوا نتاج تربيته وإعداده دون شك، كما رأينا عند دراسة (معاوية).

لم يكونوا يحملون قضية يدافعون عنها، بل كانوا يحملون ولاء أعمى لولي نعمتهم وآلههم ومصدر (رزقهم وكسبهم وحياتهم)، وقد قاتلوا تحت شعور الخوف من زوال كل ذلك إذا ما ترددوا في طاعته أو طاعة ولاته وقواده.. وهو ما كان معلوماً لديه ولدى أعوانه مثل ابن عقبة الذي هددهم تهديداته المشهورة في واقعة الحرة، والذي لوّح لهم بالعطاء وزيادة الأرزاق قبل استنفارهم لتلك الواقعة الهمجية.

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٣.

ذلة بعد عنجهيّة

ولو أن ذلك الجيش الذي أباح المدينة وضرب مكة يدافع عن قضية من قضايا الإسلام الحقيقية ويشعر بالانتماء الحقيقي له، لما شعر بالذل أمام أهل المدينة عند عودته إلى الشام بعيد ورود أخبار هلاك يزيد، فقد (اجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أُخِذ بلجام دابته ثم نُكس عنها، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون، وقالت لهم بنو أمية: لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام، ففعلوا، ومضى ذلك الجيش حتى دخل الشام)[1].

لقد نسي يزيد ودولته التي مهدها له معاوية حالًا، بل إن أقرب المقربين إليه عرّضوا ثبلبة كما فعل ابن زياد الذي أراد أن يدلي بدلوه ويدعو أهل البصرة لنفسه ـ كما ذكرنا ـ، وإذ أنه فشل في مهمته فإنه هرب إلى الشام ومروان يريد أن يركب إلى ابن الزبير فيبايعه بالخلافة ويأخذ منه الأمان لبني أمية، فأقنعه بالتخلي عن ذلك والدعوة لنفسه. .

مسرحية أخرى لمروان: «لما رأيت الأمر أمراً نهبا يسّرت غسّاناً لهم وكلبا»

وقد فعل مروان ذلك، وأعد مع أعوانه مسرحية أخرى كتلك التي أعدها معاوية لمبايعة يزيد واستأثر بالأمر دون أولاد يزيد، بعد أن تخلى أولهم، معاوية بن يزيد عنها وعرض ثبلب والده أيضاً.

ولا شك أن مروان عندما يرى أمثال ابن زياد يتطلعون لمنصب الخلافة، يرى أنه أجدر الناس بذلك خصوصاً وأنه ينتمي للبيت الأموي المالك، وقد بويع بالخلافة سنة أربع وستين، وقد قال حين بويع له:

(لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يسّرت غسانا لهم وكلبا

والسكسكيين رجالًا غلبا ... وطيئاً يأباه إلا ضربا

والقين يمشي في الحديد نكبا ... ومن تنوخ مشمخراً صعبا

لا يأخذون الملك إلا غصبا ... فإن دنت قيس فقل لا قربا)[2]

---

(١) الطبري ٣/ ٣٦٤ وروى ابن الأثير. . . (. . فاجترأ أهل المدينة على أهل الشام، فكان لا ينفرد منهم أحد إلا أخذت دابته. . وخرج معهم بنو أمية من المدينة إلى الشام، ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد) ابن الأثير ٣/ ٤٦٨.

(٢) ابن الأثير ٣/ ٤٨٠.

تلاقفوها يا آل مروان

وأصبح الذي سعى له معاوية ومهد له لقمة سائغة في فم مروان وآله بعد ذلك وإلى زوال الحكم الأموي. . .

وكانت وقعة كبيرة وبين الضحاك بن قيس ـ داعية ابن الزبير الذي بايعه جل أهل دمشق من أهل اليمن وغيرهم، انتصر فيها مروان عليه بخديعة أخرى من خدعه المشهورة. .

ولم يدم حكم مروان سوى أشهر عديدة ـ كلعقة الكلب أنفه، على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام ـ قتل بعدها خنقاً بيد زوجته أم خالد بن يزيد، إثر إهانة ألحقها بخالد في مجلس الأمويين، تولى ابنه عبد الملك بعده الحكم، وقد خاض معارك عديدة مع أعدائه ومنافسيه على السواء في الشام والعراق والحجاز. . وقد حاصر قائد عبد الملك الحجاج بن يوسف مكة سنة اثنتين وسبعين وقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعد حصار دام ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة. وبعد أن تخلى عنه أصحابه وبعض أقاربه وأولاده.

شارك الحجاج في القتال بنفسه، رفع حجر المنجنيق فوضعه فيه، عندما تردد أهل الشام في القتال بعد أن رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة ونزلت عليهم الصواعق.

وقد أعطى الحجاج الناس الأمان فخرج إليه نحو من عشرة آلاف متخلين عن ابن الزبير (وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابناه حمزة وخبيب)[1].

وبقي ابن الزبير في جماعة قليلة من أصحابه وأبى أن يستسلم وقاتل بشجاعة وجلد وصبر، ولم يقدر عليه أعداؤه إلا بعد أن رمي بآجرة فأصابته في وجهه فأرعش لها ودمى وجهه[2]. . . وقد قُطع رأسه وأرسل إلى المدينة فنصب فيها. . . وقيل إن الحجاج (. . حزَّ رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة)[3].

ونستعيد ما قاله ابن عباس عندما عثر على خشبة ابن الزبير التي صلب عليها:

---

(١) الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٤١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) العقد الفريد ٥/١٦٦.

(. . أما والله ما عرفته إلا صوّاماً قواماً، ولكنني ما زلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلات معاوية الشهب)[1].

ذبح (الكبش) فهدأت مكة

هدأت مكة بعد أن ذبح (الكبش)، واستسلمت ثانية لحكم الأمويين، ولم يعد أحد يفكر بابن الزبير، لأنه لم يحمل قضية المسلمين ولم يسعَ لمقاومة الانحراف إلا بانحراف مماثل. . وكانت شعارات أصحابه في بعض مراحل القتال في مكة أو الكوفة (يا لثارات عثمان) تؤكد نزعته الأموية العثمانية مقابل النزعة الأموية (المعاويّة) أو المروانية وكلها تعود لمصب واحد اتخذ اتجاهه المنحرف أيام عثمان. . . وهو اتجاه أحنق المسلمين وجعلهم يقدمون على معاقبة الخليفة وقتله.

لم يكن ابن الزبير يريد سوى أن يكون واجهة جديدة تحل محل الواجهات القديمة، أما المحتوى فيبدو أنه لم يكن يسعى لتغييره أو استبداله بمحتوى جديد، وإذ أنه سعى لنفسه ولمصلحته فقط فإن قضيته انتهت بموته دون أن يحزن عليه أحد ودون أن يؤثر في مجال الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي، ودون أن يكون رائد مدرسة في علوم الإسلام. . . وكل ما كان يؤثر عنه ـ ولعله يولد في نفسه أشد السرور إذ يرى الناس يراقبونه ـ هو اشتهاره بطول الصلاة والمظاهر الشكلية للعبادة. . .

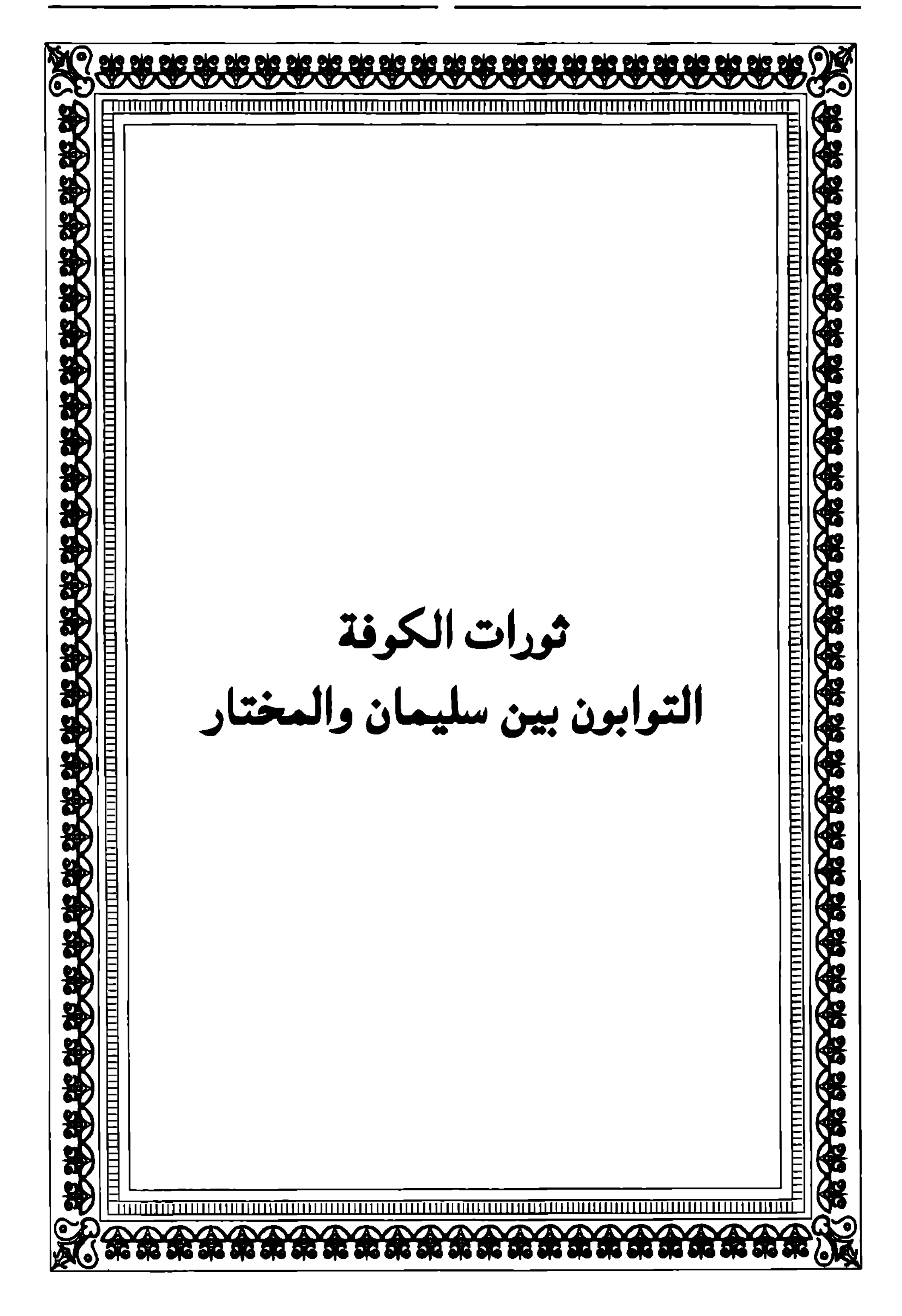
وقد تمادى الحكم الأموي في استهتاره عقيب التغلب عليه، حتى إن الحجاج ختم على أيدي وأعناق بعض الصحابة احتقاراً لهم لأنهم كانوا مقربين من رسول الله ﷺ.

ربما استغل ابن زبير غضبة الأمة المسلمة لمقتل الحسين عليه السلام، وتزعّم من يريد الدفاع عن الكعبة لأنها بيت الله المقدس، إلا أن نواياه الحقيقية كطالب للخلافة والملك بدت واضحة بعد ذلك. . .

وقد طال النزاع بعد ذلك بين الأمة وبين الأمويين وكانت لها جولات عديدة معهم سقطت في نهايتها لتبدأ جولات جديدة من أنماط عديدة من الحكام، من النماذج المعادة المكررة تتخذ اسم (أمير المؤمنين) تارة و(خليفة الله) تارة أخرى و(ولي أمر المسلمين) تارة ثالثة. . وتتكرر الأسماء والواجهات ويظل الانحراف هو الأساس في خضم عملية التزوير المستمرة للإسلام وأحكامه.

---

(١) المصدر السابق ٥/١٦٨.



ثورات الكوفة
التوابون بين سليمان والمختار

ثورات الكوفة
التوابون بين سليمان بن صرد الخزاعي
والمختار بن أبي عبيد الثقفي

رد فعل أهل الكوفة

كان رد فعل العراقيين في الكوفة على استشهاد الإمام الحسين وأصحابه سريعاً. . وقد تمثل رد الفعل ذاك بثورات من الندم والغضب على أنفسهم وعلى من شارك بشكل فعلي بهذه المجزرة وقام بأي دور فيها، مهما كان بسيطاً، سواء قام بالقتل أو الجرح أو النهب أو التمثيل بالجثث أو غير ذلك.

وقد بدا موقفهم العاطفي المنحاز لآل البيت عليهم السلام بعد عودة بقايا موكب الحسين عليه السلام وفيه نساؤه وأطفاله إلى الكوفة بمعيّة جيش ابن سعد، حيث تجمعوا على جانبي الطرقات يبكون ويأسفون على ما حل بالحسين وأصحابه في المجزرة التي نظمها ابن زياد في كربلاء، ويبدون استعدادهم للوقوف إلى جانب من يريد أن ينهض مرة أخرى ضد حكم يزيد.

وقد رأينا أن ردود الفعل الأولية الحزينة والشاجبة لما قام به يزيد وأعوانه، والتي تحدث المؤرخون عنها بإسهاب، لم تكن رهينة بأهل الكوفة وحدهم وإنما انتشرت في كافة أرجاء العالم الإسلامي، وشملت حتى أناساً مقربين من يزيد نفسه وأفراداً من عائلته. . وإن يزيد نفسه رغم سعادته الغامرة بمصرع الحسين والمظاهر الاحتفالية التي أمر بإقامتها في دمشق، أجبر نزولًا على الموقف الغاضب لفئات عديدة من أبناء الأمة، على أن يدعي تنصله من الجريمة، وينفي عدم قيامه بإعطاء الأوامر بقتل الحسين، ويحمّل ابن زياد مسؤولية ذلك ويقوم بشتمه في مجلسه، مما جعل بعض الباحثين والكتّاب القدماء والمحدثين يصدقون ادّعاءاته بخصوص براءته من دم الحسين، ويحاولون إيهام الناس بأن ندمه ذاك كان حقيقياً، وإنه لو كان حاضراً في كربلاء لما سمح لأحد بقتله. . ومن ثم راحوا يشجبون الطعن فيه أو تناول سلوكه المشين بأي شكل من الأشكال، كما رأينا فيما سبق، وهي محاولات يبدو التكلف

فيها ظاهراً إذ ما من شيء في يزيد يشجع على الدفاع عنه والوقوف إلى جانبه. . وقد رأينا كيف أنه تمادى في جرائمه ضد قطاعات أوسع من المسلمين واستباح مدينة رسول الله ﷺ نفسها، وهي جريمة لا بد أن يندى لها جبين كل غيور خجلاً وقلبه حزناً وألماً، ولا بد أن يجد أن وراءها من لا يقيم وزناً لشريعة أو قانون[1] . . .

يزيد: بين التبرئة من دم الحسين عليه السلام ودخول الجنة

ويبدو أن هؤلاء قد تناولوا المسألة من جانبين. فالقسم الأول منهم برأ يزيد نهائياً من دم الحسين، واستند إلى أقواله التي ذكرناها في هذا الفصل، والتي قال فيها إنه لم يكن راغباً بقتل الحسين، والقسم الثاني برر قيام يزيد بجريمة القتل بحرصه على المحافظة على وحدة المسلمين واجتماعهم وعدم السماح للفتن والمشاكل بالظهور، وإنه قد (اجتهد) في أمر القضاء على الحسين، كما أن الحسين قد (اجتهد) في الخروج عليه، رغم أن من يخرج عليه يكون مخطئاً لما روي عن نهي رسول الله ﷺ من الخروج على الإمام الفاسق! وأظهر هذا القسم موقفاً متحيزاً ناشئاً عن عوامل عدة منها تبني مواقف مسبقة قائمة على فهم قاصر لطبيعة الدولة الأموية وتصوراتها بخصوص السياسة والحكم والخلافة، وهي تصورات بعيدة عن تصورات الإسلام الحقيقية وإن حاولت عرضها على أنها هي التصورات الصحيحة. . وذلك في حملة مدروسة دؤوبة جند لها معاوية كل إمكانات دولته. . ومنها أمور أخرى تتعلق بقصور واضح في فهم طبيعة الإسلام ومناقشة مسائله بوجهات نظر غير إسلامية وبأدوات غريبة عنه. . . وربما تأثر بعض الباحثين بنظريات المستشرقين التي غالباً ما تكون

---

(١) صنف عبد المغيث بن زهير الحري - (وكان من أعيان الحنابلة، قد سمع الحديث الكثير) - كتاباً في فضايل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي) ابن الأثير ١٠/ ١٦٥ وروى ابن تيميه أن قوماً من الجمهور اعتقدوا أن يزيد كان من أولياء الله، وأن من توقف فيه أوقفه الله على نار جهنم (الرسائل الكبرى - ابن تيميه - الرسالة ٧ ج ١ ص ٣٠٠). وفي إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري ٦/ ٢٣٠ عن المهلب أنه كان يقول بثبوت خلافة يزيد وأنه من أهل الجنة.
وقال القاضي أبو بكر بن العربي ما معناه: إن الحسين قتل بشرع جده - مقدمة ابن خلدون ٢٤٠ وراجع ذكرناه بخصوص حرص بعض الناس على تبرئة يزيد وإدخاله الجنة في نهاية المطاف. وقد ذهب بعض المعاصرين إلى اعتياد يزيد أحد قادة المسلمين الكبار وانه أحد الممهدين لقيام دولة العرب الكبرى. .

بعيدة عن الفهم الواقعي للإسلام، وربما اندفع بعضهم في حملات مغرضة مقصودة تهدف إلى تهديم الإسلام وزرع الفرقة والشقاق بين المسلمين وخصوصاً في القرن الأخير الذي ظهرت فيه النزعة القومية على يد جماعة من المسيحيين العرب في كل أنحاء البلاد العربية وخصوصاً في مصر والشام.

تلاوموا بعد قتل الحسين عليه السلام... واتفقوا على قتل قتلته

وكان لا بد أن يتطلع من ندم على تخاذله أو سكوته أو بعده عن نصرة الحسين أو الذب عنه إلى شركاء يبثهم غضبه وحزنه، ولا بد أن يتطلع إلى استجابة مماثلة من شريك مماثل، وهكذا تجمعت مراجل الغضب الشخصي لتكون مرجلًا شعبياً ضخماً انفجر في مراحل عديدة تهيأت الظروف فيها لذلك بعد أن لم يتحمل عبء الضغط الشعبي الكبير المتصاعد المتفجر على الدوام.

وكان رد الفعل قد بدأ ـ كما قلنا ـ بين جنود ابن زياد أنفسهم، ومنذ الانتهاء من مجزرة الطف مباشرة، فعندما (قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة، فدخل الكوفة، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله، أو القتل فيه...)[1].

وقد نستنتج من هذا النص أن ثمة موالين عديدين لآل البيت وللحسين خاصة ثبتوا على ولائهم وحبهم لهم غير أن الفرصة لم تتح لهم لنصرته إما لأنهم سجنوا أو اختفوا أو انسحبوا تحت تأثير أقاربهم وزعمائهم... وإن غالبيتهم لم يشاركوا الجيش الذي أعده ابن زياد لقتل الحسين، ولو أنهم شاركوا في قتله لما رفعوا دعوة الثأر له وقتل من قتله ولم يتبين لنا ـ من خلال استعراض الأسماء البارزة لقادتهم، واستعراض مسيرتهم الملحمية لمقاومة الدولة الأموية ثانية ـ إن أحداً منهم كان مشاركاً بالقتال ضد الحسين، غير أنهم حمّلوا أنفسهم مسؤولية التراجع والاختفاء. وحتى أولئك الذين سجنوا لم يكونوا يريدون ـ وقد أفرج عنهم ـ أن يضيع دم الحسين عليه السلام هدراً، وأن تضيع قضيته لمواجهة دولة الظلم دون أن تنال من تلك الدولة وتقضي عليها أو تضعفها.

(١) الطبري ٣/ ٣٩٠ وابن الأثير ٣/ ٤٨٦.

(شيعة الحسين)... بين الواقع وما رسمته الريشة الأموية

وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى أمر ذي حساسية بالغة، وقد يكون له أثر كبير في تشكيل تصورات بعض المؤرخين وتكوين بعض الأفكار الخاطئة لديهم عن طبيعة دورهم في بعض الأحداث، وهي مسألة (شيعة الحسين) التي أخذوا يذكرونها متزامنة مع أحداث الكوفة والطف و(شيعة علي أمير المؤمنين)، التي شايعته خاصة في عهده و(الشيعة) بشكل عام وكأنهم فئة من الأمة لها تصورات وآراء خاصة بها بعيدة عن تصورات وآراء عموم المسلمين وإن تلك التصورات والآراء الغريبة! لم يقرّها أو يقبل بها حتى أمير المؤمنين نفسه! وإن مصدرها يهودي يدعى عبد الله بن سبأ، أو أنه كان ابن يهودية..!

وما دام عدد هذه الفئة قليل بالنسبة لعموم المسلمين (أبناء السنة والجماعة!)، وتصوراتها وآراؤها في العديد من الأمور والمواقف تتعارض مع بعض آراء وتصورات الأغلبية فلا شك أن عوامل الخطأ والانحراف تكمن فيها هي.

وإذا ما علمنا أن معظم اللوحات التي رسمت للشيعة ولأمير المؤمنين والأئمة من أهل البيت عليهم السلام هي من إبداع الريشة الأموية المعادية لأمير المؤمنين والإسلام، وقد عملت مؤسسات دولة الظلم المتعاقبة على عرضها، علمنا كيف حصل ذلك التشويه والتزوير لها، سواء في ظل الحرب التي خاضها أمير المؤمنين وطلائع أهل العراق وصفوة الصحابة معه، أو بعد ذلك عندما استتبت الأمور لصالحهم، حيث وضعوا كل مناصري أمير المؤمنين في معسكر وبقية المسلمين الآخرين، حتى الذين لا يميلون إليهم ولكنهم لم يكونوا ذوي مواقف حاسمة، في معسكر آخر، وكان بقية المسلمين الآخرين يتفقون في الرأي والمواقف اتفاقاً تاماً ولا يوجد بينهم أي نزاع أو خلاف وكأنهم فرقة واحدة وأهل مذهب واحد. وفي حملة الترويج لصحة (اجتهادات) معاوية التي لم تبن على أي أساس من التشريع أو الفقه الإسلامي، عرضوه وكأنه لم يكن باغياً على أمير المؤمنين وخارجاً عليه، وكأنه ممثل الشرعية الإسلامية التي تمثل أغلبية المسلمين، وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى به خاصة وأوصى بأتباعه وطاعته وأتباع وطاعة خلفائه من بعده، وكأنه لم يقم بعشرات الانتهاكات المعروفة والمكشوفة والمتعمدة للإسلام.. فاعلًا ذلك باستهتار لا يجرؤ عليه أشد المعادين المجاهدين بعداوتهم للإسلام والمسلمين.

وكان تصوير حق معاوية وشرعيته في الحكم! يقوم على أساس القدرات التي أبداها على لمّ شمل الأمة! وجمعها حول عرشه، والقضاء على أعدائه، فكأنه بذلك أثبت حقه وصدقه ما دامت الأمة قد انقادت له في النهاية واستسلمت وأقرت كل ما كان يقوم به... ولا يهم كيف فعل ذلك، ولا تهم الأساليب التي لجأ إليها، والتي غالباً ما تموه وتخفى عن الأمة، ما دام قد نجح في حماية عرشه وإقام دولة أموية قوية...

رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام منهج واحد

ولا جدال في أن منهج أمير المؤمنين عليه السلام هو منهج رسول الله ﷺ نفسه. وإذا ما أردنا التعرض للأحاديث الصحيحة الثابتة لدى المسلمين والواردة عن رسول الله ﷺ وفيها يؤكد على حبه وتقديره الشديدين لعلي عليه السلام واعتباره على الحق يدور معه أنى دار ويطلب من المسلمين موالاته وحبه، فإن رسول الله ﷺ يكون بالمعنى اللغوي شيعة لعلي، كما أن علياً نفسه كان أول شيعته وأنصاره ﷺ وأول من استجاب له وصلى معه، وكان نتاج تربيته وإعداده منذ طفولته المبكرة.

كما أن أولئك الذين عرفوا منهج أمير المؤمنين وتطابقه مع المنهج النبوي وتطابق التصورات والأفكار والمواقف، وفهمه الاستثنائي للرسول ﷺ ووعيه الحاد لكل ما كان يقوم به، والذين استمعوا إلى أقوال الرسول ﷺ وشهاداته وشهادات القرآن بحقه، وهم مجموعة من الصحابة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالعدالة والكفاءة وكانوا في مقدمة أنصار رسول الله ﷺ نفسه وكانت لهم مواقف معروفة لنصرة الإسلام إلى أن استشهدوا أو توفوا، يرون أنهم بوقوفهم إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام، يكونون شيعة لرسول الله ﷺ نفسه وللإسلام، ما دام أمير المؤمنين هو الممثل الواقعي والجدير بحمل راية الرسول ﷺ... ومواقف هؤلاء الصحابة العدول وشهاداتهم وكونهم شيعة لعلي ينبغي أن يلتفت إليه بوضوح ويؤخذ بنظر الاعتبار[1]...

---

(١) ذكر الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي قدس الله سره في كتابه القيم (الفصول المهمة في تأليف الأمة) أسماء الصحابة الذين كانوا يشايعون أمير المؤمنين عليه السلام وعدّ منهم أكثر من مائتين (ص ١٩٠ ـ ٢٠٠) وهو جهد كبير لا بد من متابعته لنجد مئات أخرى من صحابة الرسول ﷺ شيعة لعلي، عدا من لم يتطرق التاريخ لذكرهم. =

انحازوا إلى المنهج العلوي المحمدي وتركوا المنهج الأموي

لذلك فإن الكلام هنا عن قيام الشيعة في الكوفة بالتلاوم أثر مقتل الإمام الحسين عليه السلام ينبغي أن لا يفهم منه أن أولئك الشيعة كانت فئة قد اختارت الانفصال عن الإسلام لرسم منهج خاص بها قائم على تصورات وقيم خاصة، بل إن الأمر يعني من واقع حالهم والتزامهم وتمسكهم الكبير بالإسلام وسلوكهم الشخصي الدال على ذلك، إنهم كانوا مجموعة من المسلمين الواعين غير المتأثرين بالتصور والدجل الأموي المنحرف، والذين طالبوا بالعودة إلى خط رسول الله صلى الله عليه وآله وخط أمير المؤمنين عليه السلام الذي عاش بين ظهرانيهم وأرشدهم إلى ذلك الخط المستقيم، والعودة إلى التصورات والقيم الإسلامية الأصيلة التي جسدها الأئمة الثلاثة من أهل البيت وعرضوها خير عرض بسلوكهم المتوافق والمتطابق مع سلوك رسول الله صلى الله عليه وآله والنابع منه.

غير أن لفظة (الشيعة) بمرور الزمن اتخذت معنى غير المعنى الحقيقي لها، وألصقت بكل أهل الفرق الإسلامية التي لا تتطابق آراؤها مع آراء أهل المذاهب الشائعة، وحتى مع مذهب أهل البيت عليهم السلام أنفسهم، لغرض تشويه مذهب أهل البيت والتقليل من أهميته وصرف أنظار الناس عنه.

لقد اتخذ الأمر بمرور الزمن طابعاً سياسياً واجتماعياً خاصاً، نابعاً من مصالح وأهداف الطبقات الحاكمة التي اعتلت العروش من الأمويين والعباسيين وغيرهم، وأصبح تبني مواقف وآراء ومنهج أمير المؤمنين عليه السلام التي هي مناهج رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، يصور لبقية المسلمين وكأنه أمر يستهدف من ورائه أموراً وأغراضاً خفية لا علاقة لها بالإسلام لا يعلم بها إلا الشيعة أنفسهم، وإن التشيع كان منذ البداية حركة سياسية باطنية وجدت تحت ظروف معينة، وإن مفاهيم الشيعة وآراءهم تختلف عن المفاهيم والآراء الإسلامية الأخرى، وإن أفكاراً وعناصر غريبة يهودية وغيرها قد دخلت فيها.

= (وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة. وقد تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وإسناد السلطة إلى غيره) بحث حول الولاية/ السيد محمد باقر المصدر ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧م ص ٤٦.

دولة الظلم: «فلنشوّه صورتهم ما داموا يريدون الإطاحة بنا»

(. . .والشيء الذي ليس فيه شك. . هو أن الشيعة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي، وإنما وجدت بعد موته بزمن غير طويل.

وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن في قول الله عز وجل من سورة القصص ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1] وفي قول الله عز وجل. . ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[2].

فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما.

فشيعة علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء منهم من قاتل معه ومن لم يقاتل. ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم، وإنما كان لمعاوية شيعته أيضاً، وهم الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم من الذين كانوا يرون المطالب بدم عثمان والحرب في ذلك حتى يقام الحد على قاتليه. .)[3].

كان وجود أمير المؤمنين عليه السلام بين أهل الكوفة التي جعلها عاصمة للمسلمين وإيثاره البقاء هناك لتنفيذ برنامجه التربوي الشامل وتشكيل طليعة عقائدية تكون نواة لأمة إسلامية قائمة على نفس الأسس والقواعد التي وضعها رسول الله ﷺ ودعا إليها. . . واختيار معظم أفراد الجيش من بينهم وقيامه بهم لحرب معاوية والأحزاب، قد جعلهم أقرب الناس إليه وأكثرهم تفهماً لبرنامجه الإصلاحي الشامل وأكثرهم استعداداً للسير وراءه لتنفيذ ذلك البرنامج الكبير الذي يحقق طموح عموم المسلمين ويعيد المياه إلى مجاريها ويرفع عن كواهلهم عبء التفرقة والطبقية الجديدة والتمييز على أساس العرق واللون.

---

(١) القصص ١٥.

(٢) الصافات ٨٣.

(٣) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ٢ ـ ١٧٣ - ١٧٤.

وهذا ما جعل نظام الحكم الأموي بقيادة معاوية يصور أهل العراق وكأنهم نسيج خاص أو كيان خاص يختلف عن بقية المسلمين، وقد جعل هذا النظام من أولوياته العمل على تفتيت أهل الكوفة وزعزعتهم والعمل على التفريق بينهم واستهدافهم بكل أساليب الشر والأذى والاضطهاد، وكان ما كان مما ذكرنا بعضه في هذه الدراسة... وقد رأينا أسباب ذلك ودوافعه..

غير أن المرء يستطيع الرد على هذا الادّعاء الباطل، إذ ما لاحظ عدد الصحابة والتابعين الذين حاربوا مع أمير المؤمنين، ممن هم ليسوا من أهل الكوفة، وكانوا يعتبرون التفافهم حوله وقيامهم بنصرته والقتال بين يديه، نصراً لرسول الله ﷺ؛ فلا فرق في القتال تحت راية محمد ﷺ أو علي عليه السلام ما دام هذا يكمل مسيرة ذاك ويتوخى العدل والصدق في تعامله ومنهجه... (..ومعنى هذا أن علياً لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلمون أثناء خلافته، وإنما كان له أنصار وأتباع، وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصاراً وأتباعاً..)[1].

مهمة الأئمة عليهم السلام: إقامة كيان إسلامي متكامل قائم على الأسس التي أرساها النبي ﷺ

ولو تتبعنا الحوادث التاريخية ابتداء من تلك التي حدثت في نهاية عهد عثمان، وتلك التي حدثت في أيام أمير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام وما رافقها من ملابسات عديدة، وقيام الحسين عليه السلام ضد الدولة الأموية التي يقودها يزيد، رأينا أن الأئمة لم يكونوا يستهدفون إنشاء كيان مستقل عن الأمة أو إنشاء كيان غريب عنها، بل كانوا يستهدفون إعادة بناء كيان الأمة على الأسس الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ بعيداً عن عوامل الانحراف والخطأ. لقد فهم ذلك من ساروا على خط الأئمة عليهم السلام وقاتلوا معهم، وأدركوا أن معاركهم كانت معارك مؤيدي الإسلام وأنصاره وممثليه ضد أعدائه ومناوئيه والذين أرادوا أن يستأكلوا الناس به ويستأثروا بخيرات المسلمين ومكاسبهم التي تحققت لهم في ظل الإسلام...

(١) المصدر السابق ٢/ ١٧٥.

حذار من أئمة الكفر.. فإنهم إن يظهروا يفسدوا الدين والدنيا

وكان أصحاب الأئمة وجنودهم من رهافة الحس وسلامة البصيرة وقوة الوعي ما جعلهم يدركون أن معاركهم مع أعدائهم إنما كانت تستهدف إيقاف الانحراف الذي بدأ يستشري في جسم الأمة نتيجة وجود الطبقة التي بدأت تظهر في عهد عثمان والتي أبت أن تتنازل عن المكاسب التي حققتها في ظله والتي أرادت أن تستأثر بكل شيء.

قال يزيد بن قيس الأرحبي وهو يحرض الناس على قتال أصحاب معاوية في صفين: (إن المسلم السليم من سلم دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه، وأحياء حتى رأونا أمتناه، وإن يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ليكونوا جبابرة فيها ملوكاً. فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً ـ لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفيه الضال، يخبر أحدهم في مجلسه بمثل ديته ودية أبيه وجده، يقول: هذا لي ولا إثم علي، كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله عز وجل، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا، فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لائم، فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وخبرتم، وأيم الله ما ازدادوا إلى يومهم هذا إلا شراً..)[1].

وكان ما قاله الأرحبي هو الحقيقة مع الأسف... إذ لم يكن في سلوك أقطاب الانحراف ما يدل على أنهم سيتراجعون عنه في يوم من الأيام.. بل إنهم كانوا يتمادون في انحرافهم ويستهترون بشكل علني مكشوف بكل قيم الإسلام ومبادئه.

وما قاله الأرحبي كان يؤكده الأئمة عليهم السلام على الدوام ويحذرون الناس من نتائجه الخطيرة ومن الاستسلام له على أساس أنه (واقع) بدأ يثبت وجوده.

لم يكن من سار خلف أمير المؤمنين أو الحسن أو الحسين عليهم السلام يرى أنه شيعة لهم خاصة لأنهم علي والحسن والحسين ولانتمائهم الفريد لرسول الله صلى الله عليه وآله وحسب، بل إن من أصبحوا شيعة وأنصاراً وموالين لهم كانوا يرون أنهم الممثلون الحقيقيون للإسلام والجديرون بحفظه من كل انحراف أو تشويه أو دس، وإنهم الوحيدون القادرون على مواجهة الانحراف المتفاقم وأولئك الذين يحاولون السطو

(١) الطبري ٣/ ٨٥ - ٨٦ وابن الأثير ٣/ ١٧٨.

على الإسلام وسرقة مكاسب المسلمين وجهودهم وتضحياتهم الجليلة العظيمة، كمعاوية وحزبه ومن التفّ حوله.

بين الأكاذيب وثقافة السبّ

ولو درسنا دوافع أصحاب الحسين وأنصاره وشيعته الذين قاتلوا معه واستشهدوا بين يديه وأدّوا دورهم ببسالة منقطعة النظير، وهم المعنيّون أكثر من غيرهم بهذه الدراسة، ومنهم من لم يكن قبل ذلك يتبنى مواقف أمير المؤمنين بل لعله كان يقف على النقيض منها ويعاديها إلى أن استبان له الحق وأدركته بصيرة الإسلام الصافية، لرأينا أنهم ساروا خلفه حتى نهاية المطاف انتصاراً لله ولرسوله ﷺ، ولم يكونوا يتبنون موقفاً فكرياً وعقائدياً مغايراً لما كان يتبناه عموم أبناء الأمة.. ولم يؤاخذوا على شيء من ذلك القبيل خلال حواراتهم ونقاشهم مع أفراد من جيش ابن زياد.. وكان التحيز لصف الحسين يعني لديهم التحيز إلى صف الإسلام.

وطبيعي أن الدولة الأموية التي أمسكت بزمام الأمور حاولت أن تصوّر موقفه وثورته وتعرضهما عرضاً مشوّهاً وكأنه خروج عن ولي الأمر الحقيقي الجدير بالطاعة والاحترام.. وعرضت قضية المنتصرين للحسين وقضيته والمستشهدين بين يديه والسائرين على خطه والموالين له، كقضية ذات مدلولات لا علاقة لها بالإسلام، تماماً كما شوّهوا قضية أمير المؤمنين عليه السلام نفسه وجعلوا جماهير المسلمين في الشام يتبنون ـ بقناعة مطلقة ـ مواقف الدولة المعادي له ويذهبون إلى حد اعتبار سبّه سنّة لا بد منها، وإن تركها جريمة لا تغتفر، كما أسلفنا في فصول هذا الكتاب.

إن الذي يقدم على ترسيخ ثقافة السبّ بين جماهير المسلمين ويحثّهم عليه ضد أقدس شخصية إسلامية بعد رسول الله ﷺ لا يتورّع عن اللجوء إلى أشد الأساليب تضليلًا للتقليل من شأن أعدائه.. وهم بلا شك السائرون على خط أمير المؤمنين، ومن أدركوا أنه الخط الحقيقي الذي يقودهم إلى رسول الله ﷺ نفسه.

التشيع: الرجوع إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ

كان التشيع هو الاتجاه الوحيد الذي دعا إلى الرجوع إلى ما كان يدعو إليه رسول الله ﷺ نفسه، وفي الوقت الذي رفض فيه (الاجتهاد) لنبذ النصوص أو التعليمات النبوية فإنه دعا (لاجتهاد) مغاير يقوم على قابلية استنباط الحكم الشرعي من النصوص التي يرى أن لا حق لأحد برفضها أو إلغائها ما دامت قد وردت في القرآن أو

على لسان الرسول ﷺ . . . (إن الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزاً بل واجباً وجوباً كفائياً هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها. فإن هذا غير جائز والاتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى). بحث حول الولاية ص٤٧.

الشيعة هم أهل السنة: التشيع أطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي ﷺ

إننا إذا ما صورنا، ثورة الكوفة ـ فيما بعد ـ وكأنها ثورة (شيعية) تختص بمذهب معين من مذاهب المسلمين ـ التي لم تكن قد وجدت بعد، رفعنا مسؤولية المشاركة فيها عن غير الشيعة، بل وربما وجدنا لهم عذراً في عدم المشاركة فيها أو المشاركة بقمعها ما دام الأمر أمر فرق إسلامية تختلف فيما بينها بالآراء والمواقف ووجهات النظر. . . وذلك تجنّ واضح على الحقائق لأن المذاهب الإسلامية المعروفة اليوم لم تظهر إلا في وقت متأخر في العصر العباسي. . . فالسنية الإمامية لم يشكلوا مذهباً خاصاً بهم دون عموم المسلمين، وانتماؤهم إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيما بعد عند تبلور المذهب الجعفري وازدهار ورواج علوم أهل البيت عليهم السلام بمواجهة المذاهب والتيارات المختلفة، يعني انتماءهم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وإلى رسول الله ﷺ نفسه. . ف(التشيع لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحي بحت، وإنما ولد التشيع في أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الإمام علي بعد النبي ﷺ قيادته الفكرية وقيادته الاجتماعية للدعوة على السواء. .

فالتشيع إذاً لا يمكن أن يتجزأ إلا إذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي ﷺ وهو مستقبل بحاجة إلى المرجعية الفكرية والزعامة الاجتماعية للتجربة الإسلامية معاً)[1].

لقد سعت الدولة الأموية وشيعتها للنيل من أمير المؤمنين عليه السلام ومن آل البيت عليهم السلام، لأنهم القوة المؤهلة الوحيدة القادرة على التصدّي لانحرافها وكل انحراف قد يحصل في المستقبل وحماية التجربة الإسلامية، فحاولوا إلصاق مختلف التهم بهم وبأنصارهم وشيعتهم، فكانت السبأية هي التهمة الأولى التي ألصقوها

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩.

بالشيعة، يريدون بذلك أن يوهموا الناس أن توجههم منذ البداية لم يكن توجهاً إسلامياً خالصاً، وإنه توجه مستحدث وطارىء وغريب.

ومن العجيب أنهم ذكروا أن ابن السوداء أو عبد الله بن سبأ كانت له اليد طولى في قتل عثمان وتحريض الناس عليه وتشكيل جماعة الشيعة، ولم يذكروا ابن السوداء بعد ذلك على الإطلاق، وكأنه قد اختفى أو ابتلعته الأرض.. (..وأقل ما يدل عليه إعراض المؤرخين عن السبئية وابن السوداء في حرب صفين، إن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء إنما كان متكلفاً منحولاً، قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية. أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم. ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علي في أمر الحكومة، ولكان من الطبيعي بنوع خاص أن يظهر أثره في تكوين هذا الحزب الجديد الذي كان يكره الصلح وينفر منه ويكفّر مَن مال إليه أو شارك فيه.

...إن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً، وإن وجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذي صوّره المؤرخون وصوّروا نشاطه أيام عثمان وفي العام الأول من خلافة علي. وإنما هو شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدّخروه للخوارج)[1].

وقد أصبح من الواضح أن الشيعة المذكورين في هذه الدراسة، يقصد بهم الشريحة الواعية من أبناء الكوفة التي تطلعت للسير على خط أمير المؤمنين عليه السلام الذي يعلمون حقاً أنه الخط الوحيد الموصل إلى خط رسول الله صلى الله عليه وآله والمتصل به... وأخيراً لا يمكن لأحد أن يدعي أن يزيد وأشباهه وشيعته هم ممثلو خط الرسول حقاً، وإنهم شيعته وأنصاره.

اجتماعات في الكوفة

لقد خرج أهل الكوفة (ففزعوا إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة، إلى سليمان بن صِرِد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله،

(١) الفتنة الكبرى ٢/ ٩٠ - ٩١.

وإلى المسيب بن نجبة الفزاري، وكان من أصحاب علي وخيارهم،

وإلى عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي،

وإلى عبد الله بن والٍ القيمي،

وإلى رفاعة بن شداد البجلي،

ثم إن هؤلاء النفر الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد، وكانوا من خيار أصحاب علي، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم)(١).

ولم نقع على خبر أحد من هؤلاء خلال أحداث الكوفة عند مقدم مسلم عليها وما جرى فيها بعد ذلك. . . وتدل بعض الوقائع أن العديدين من أهل الكوفة ومن كان يحتمل أن ينضموا إلى مسلم أو الحسين عليه السلام قد سجنوا أو طوردوا وروقبوا، وربما انسحب بعضهم أو هرب تحت ضغط الرقابة الصارمة التي أقامها ابن زياد عقيب مقدمة المتزامن تقريباً مع مقدم مسلم بن عقيل عليه السلام.

ويدل رد فعلهم السريع لما أصاب الحسين وأهله وأصحابه عليهم السلام في الطف وخطبهم التي ألقوها في بيت سليمان بن صرد أنهم كانوا يحمّلون أنفسهم مسؤولية التقاعس عن نصرة الحسين وإنهم كانوا يشعرون بذنب كبير، لم يكن يكفّره إلا موتهم الميتة التي مات بها الحسين وأصحابه أو قتلُ قَتَلَتِهِ.

لا عذر لنا عند الله ورسوله بالتخلي عن الحسين

بدأ المسيَّب بن نَجَبة الفزاري، صاحب أمير المؤمنين عليه السلام الكلام (فتكلم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله ثم قال: (أما بعد، فإنّا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألّا يجعلنا ممن يقول له غداً: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾(٢) فإن أمير المؤمنين قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا، حتى بلا الله أخيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة نبيّنا صلى الله عليه وآله، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عَوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا،

(١) الطبري ٣/ ٣٩٠.

(٢) فاطر ٣٧.

لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألستنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبيّنا ﷺ وقد قتل فينا ولده وحبيبه، وذريته ونسله، لا والله، لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن. أيها القوم، ولّوا عليكم رجلًا منكم فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه، وراية تحفّون بها...)[1].

وبدا المسيّب كأنه يلوم نفسه وأصحابه وكل أهل الكوفة الذين وعدوا الحسين النصر، ثم تراجعوا بتأثير ضغوط ابن زياد.. ومع أنه لا يبدو من كلامه أن أحداً من الحاضرين وربما من غالبية شيعة آل البيت عليهم السلام قد انحاز إلى صف العدو وشارك في الجريمة، إلا المسيّب كان يعبّر عما كان يجول بأذهان الحاضرين ويحمّل نفسه وأصحابه مسؤولية التخاذل، فلا عذر لهم ما لم يقتلوا قاتليه أو يقتلوا دون ذلك، وهو أمر بدا أن رأيهم قد استقر عليه قبل عقد تلك الجلسة..

سليمان بن صُرَد: الصحابي المحمود في بأسه ودينه، والموثوق بحزمه

وقد تلاه رفاعة بن شداد، فبادر القوم الكلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: (أما بعد، فإن الله قد هداك لأصوب القول، ودعوت إلى أرشد الأمور، بدأت بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على نبيّه ﷺ ودعوت إلى جهاد الفاسقين، وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك، مستجاب لك، مقبول قولك: قلتَ: ولو أمركم رجلًا منكم تفزعون إليه وتحفون برايته، وذلك رأي قد رأينا مثل الذي رأيت. فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضيّاً، وفينا متنصحاً، وفي جماعتنا محباً، وإن رأيت رأي أصحابنا ذلك ولّينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله ﷺ، وذا السابقة والقدم، سليمان بن صُرَد، المحمود في بأسه ودينه، والموثوق بحزمه)[2]. وقد تكلم عبد الله بن والِ وعبد الله بن سعد بنحو من كلام رفاعة وأشادا بفضل المسيب وسابقة سليمان ورضاهما بتوليته، وقد أيدهما المسيب في ذلك وقال: (أصبتم ووفقتم، وأنا أرى مثل الذي رأيتم، فولوا أمركم سليمان بن صرد)[3].

---

(١) الطبري٣/ ٣٩٠ - ٣٩١ وابن الأثير ٣/ ٤٨٦ - ٤٨٧.

(٢) و(٣) المصدران السابقان ٣/ ٣٩١ و٣/ ٤٨٧.

وولوا أمرهم سليمان بن صرد في ذلك المجلس الحاشد الذي ضم أكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم[1]، وكانوا يبدون، رغم الجو الذي لا زال خانقاً ومشحوناً بالعداء لكل من يشايع آل الرسول ﷺ أو يبدي استعداداً لنصرهم أو الأخذ بثأرهم، خصوصاً وإن ابن زياد كان يحسب أنه يجني ثمار نصر كبير أراد أن يتباهى به أمام الجميع وأن يخيف به كل أعداء الدولة، مستعدين لخوض معركة فاصلة ضد الفاسقين على حد تعبير رفاعة بن شداد، وهؤلاء الفاسقون يمتدون على رقعة تتيح لهم قيادة المسلمين، وقد وضعت لهم أحاديث مزورة تمنع الناس من التعرض لهم، وتبيح لهم التصرف بعيداً عن حدود الإسلام وشريعته وأحكامه.

ويبدو أن ذلك لم يكن الاجتماع الوحيد الذي عقدوه لتدبير أمرهم واتخاذ الخطوات المناسبة للقتال، وإنما كانوا يجتمعون كل يوم جمعة يلقي فيهم سليمان بن صرد خطبة مكرورة المضامين والمعاني مشابهة لتلك التي ألقاها في اجتماعهم الأول الحاشد.

«ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل»

كانت خطبة سليمان في ذلك الاجتماع وفيما بعد: (أُثني على الله خيراً، وأحمد آلاءه وبلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله.

أما بعد، فإني والله لخائف ألا يكون أخّرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية، وشمل فيه الجود أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير.

إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنّيهم النصر، ونحثهم على القدوم، فلما قدموا دنينا وعجزنا، وادهنّا وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولد نبيّنا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه، إذ جعل يَستصرِخ فلا يُصرخ، ويسأل النصف فلا يعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودريّة للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. إلا انهضوا فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله. والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله، أو تبيروا.

ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل. كونوا كالأولى من بني

---

(١) المصدر السابق.

إسرائيل إذ قال لهم نبيّهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[1] فما فعل القوم؟

جثوا على الركب والله، ومدّوا الأعناق، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعي القوم إليه. اشحذوا السيوف، وركّبوا الأسنة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[2] حتى تدعو حين تدعون تستنفرون)[3].

إن كلمة هذا الصحابي الشيخ الذي أشرف على التسعين ودعوته لمناجزة قَتَلة الحسين أو الموت دون ذلك جديرة بالتأمل. فلقد شخص بدقّة حال أهل الكوفة من موالي آل البيت عليهم السلام، عندما تعرضوا لضغوط ابن زياد. فقد وضعوا أنفسهم على التل ووقفوا يتفرجون على الموقف ونوا وعجزوا وادّهنوا وتربصوا وانتظروا ما سوف يحدث. وما سوف يحدث كان معروفاً لديهم بالتأكيد، فهم على دراية تامة بنزعة قيادة الانحراف وميلها للبطش والانتقام والكيد.

كيف يمكن تبرير موقفهم المتخاذل هذا فيما بعد وكيف سيواجهون ربهم وحسابه، ونبيّهم وعتابه..؟ كانت كلمة سليمان مشحونة بالولاء التام لآل البيت وقضيتهم والعداء التام لأعدائهم الذين عاملوا الحسين تلك المعاملة القاسية.

وكان تصميمه على مواجهة أولئك الأعداء يبدو تاماً لا رجعة فيه مهما كانت العواقب وكان الموت أقل الأخطار التي كانوا يخشون مواجهتها، وكان الخطر الحقيقي الذي يخشونه حقاً هو مواجهة الحساب العادل على تخاذلهم وتراجعهم وعدم وقوفهم مع الحسين منذ البداية والإستشهاد بين يديه أو تحقيق النصر على عدوه.

كانت وقفة الحسين وأصحابه بوجه آلاف الجند المتحفزين لقتلهم، تشكل إدانة كبيرة لأولئك الذين تخلوا عن نصرته في ذلك الوقت العصيب، فقد رأوا فيها الوقفة التي كان ينبغي أن يقفها كل واحد منهم، وملأت صدورهم بالخزي على موقفهم المتخاذل والندم عليه، وجعلتهم يسعون للشهادة كما سعى إليها أنصار الحسين الذين

---

(١) البقرة ٥٤.

(٢) الانفال ٦٠.

(٣) الطبري ٣/٣٩١ وابن الأثير ٣/٤٨٧ - ٤٨٨.

لم يتراجعوا رغم صعوبة الموقف وشدته تكفيراً عن تقصيرهم وتخاذلهم وخوفهم من ابن زياد.

وقد أثارت كلمة سليمان عواطف الحب والولاء لأهل البيت وجعلت الحاضرين يبدون استعدادهم لبذل أرواحهم وأموالهم لنصرة قضية الحسين ومعاقبة قاتليه وأعدائه، وقد عيّن سليمان، عبد الله بن وال التميمي مسؤولًا عن الأموال التي يتبرع بها الناس لتجهيز ذوي الخلة والمسكنة من أشياعهم. فكان بذلك يمهد لتحرك حقيقي ضد الدولة لا يقتصر على إثارة العواطف وإبداء الندم وحسب وإنما الأعداء لمعركة مقبلة ربما على أنها ستكون خاسرة وإنه سيكون أول المقتولين فيها، لأن دولة الظلم لم تكن لتتنازل بسهولة أمام أي مناوىء لها وستتصدى بعنف وقوة لكل من يريد النيل منها أو الإطاحة بها.

إلى الشهادة: لنلتحق بركب الحسين عليه السلام

وهنا قد يبدو لنا أن دوافع الثائرين لم تكن بمستوى القضية التي حملها الحسين عليه السلام منذ البداية ولم تتح لهم الفرصة للمشاركة فيها. وأن طموحاتهم أصبحت الآن الالتحاق بموكب الشهداء من أصحابه، وإن كانوا في موقف لا يستطيعون فيه النيل من الدولة التي بدت قوية مزدهرة بعد مجزرة الطف أو القضاء عليها. كانوا يريدون تدارك ما فاتهم ولو بذهاب حياتهم وأرواحهم.

غير أنهم خططوا لمعركة مع الدولة في المستقبل ـ في غرة ربيع الآخر سنة خمس وستين، وهي مدة قد تبدو طويلة.. ويبدو أنهم أرادوا الاستعداد لمعركة كبيرة، ومن رسالة سليمان إلى حذيفة بن اليمان بالمدائن ندرك أن موت يزيد لم يكن هو الذي حرك الثوار، وإنما كان عاملًا مساعداً لبذل استعدادات أكبر للثورة.

كما أن الرسالة تدل على تحرك الثوار المسلح لمواجهة الدولة وضرب أعوانها مهما كانت النتائج وأنهم كانوا يعدون العدة لتحرك سري مدروس يقومون في نهايته بثورتهم ضد الدولة الأموية. وإن أصبح ذلك التحرك علنياً بعد هلاك يزيد وانضمام الكوفة لابن الزبير الذي دعا لنفسه بالخلافة ودعا الناس إلى مبايعته وكاد أن ينتصر على الأمويين.

وثيقة تسجل أهداف الثوار

كتب سليمان إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن هذه الرسالة التي تعد وثيقة مهمة ستجل أهداف الثائرين جاء فيها: (..إن أولياء من أخوانكم، وشيعة آل نبيكم

نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيّهم الذي دعي فأجاب، ودعا فلم يجب، وأراد الرجعة فحبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدّوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجرّدوه ظلماً وعدواناً وغرة بالله وجهلًا، وبعين الله ما يعلمون، والله ما يرجعون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]. فلما نظر أخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطِئوا بخذلان الزكي الطيب وإسلامه وترك مواساته والنصر له، خطأ كبير ليس لهم منه مخرج ولا توبة، دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم.

فقد جدَّ أخوانكم فجدّوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لأخواننا أجلًا يوافوننا إليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأما الأجل فغرة ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذي يلقوننا فيه فالنخيلة. أنتم الذين لا تزالون لنا شيعة وأخواناً، وإلا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به أخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنهم يتوبون، وأنكم جدراء بتطلاب الفضل، والتماس الأجر والتوبة إلى ربكم من الذنب، لو كان في ذلك حز الرقاب، وقتل الأولاد واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر.

ما ضر أهل عذراء الذين قتلوا إلا يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين ـ يعني حجراً وأصحابه ـ وما ضر أخوانكم المقتلين صبراً، المصلّبين ظلماً والممثل بهم، المعتدى عليهم ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خير لهم فلقوا ربهم، ووفّاهم الله، إن شاء الله أجرهم، فاصبروا رحمكم الله على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا إلى الله عن قريب، فوالله إنكم لا حرياء إلا يكون أحد من أخوانكم صبر على شيء من البلاء إرادة توابة إلا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضاء الله طالب بشيء من الأشياء ولو أنه القتل إلا طلبتم رضا الله به. إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسكم، ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم، وجهاد عدوّ الله وعدوّكم، وعدو أهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين راغبين. أحياناً الله وإياكم حياة طيبة، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل منايانا قتلًا في سبيله على يدي أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوة له، إنه القدير على ما يشاء)[2].

---

(١) الشعراء ٢٢٧.

(٢) الطبري ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

وقد لقيت رسالة سليمان بن صرد صداً طيباً لدى سعد بن حذيفة وأهل المدائن، التي كانت مقراً لمجموعات كبيرة من الموالين لأهل البيت عليهم السلام وقد جعلوها وطفاً لهم وسكناً. وقد أعرب هؤلاء عن استعدادهم لإجابة أهل الكوفة والقتال معهم حالّاً إلا أن سعد طلب منهم التريث ريثما يستعدوا في الموعد الذي ضر به لهم سليمان. . . وقد رد سعد على رسالة سليمان برسالة أوضح له فيها أنهم جادون مجدّون، معدون مسرجون ملجمون ينتظرون الأمر ويستمعون الداعي، فإذا جاء الصريخ اقبلوا ولم يعرّجوا ـ على حد تعبيره.

وكتب سليمان نسخاً مماثلة من كتابه إلى شخصيات عديدة من التي كان يحتمل أن تستجيب لدعوته ومنهم المثنى بن مخرّبة العبدي فأبدوا استعدادهم للقيام معه وموافاته بالأجل الذي ضرب والمكان الذي ذكر.

وهكذا (كان أول ما ابتدعوا به من أمرهم سنة إحدى وستين، وهي السنة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه، فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال، ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين، فكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر.

فلم يزالوا كذلك، حتى مات يزيد بن معاوية لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين. .)[1].

مرحلة الإعداد: تهيئة الرأي العام لقبول فكرة الثورة

وكانت مرحلة الإعداد تلك التي استمرت أكثر من ثلاث سنين بقليل، وهي الفترة الممتدة بين استشهاد الحسين عليه السلام وموت يزيد حافلة بالكثير من الأعمال التي كان أهمها تهيئة الرأي العام لقبول فكرتهم وإعداد الأسلحة والأموال.

أما بعد وفاة يزيد وضعف الدولة الأموية وطرد عاملها من الكوفة. فإن هناك من استعجلوا القيام بالثورة وقد طلب منهم سليمان التأني ريثما يجمع العدد الكافي من الأنصار والأسلحة، وكان مما قاله لهم: (رويداً لا تعجلوا، إني قد نظرت فيما تذكرون، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة، وفرسان العرب، وهم المطالون بدمه، ومتى علموا ما تريدون، وعلموا أنهم المطلوبون، كانوا أشد عليكم،

(١) الطبري ٣/ ٣٩٤ وابن الأثير ٣/ ٤٨٨.

ونظرت فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم، ولم يشفوا أنفسهم ولم ينكوا في عدوهم، وكانوا لهم جزراً. ولكن ثبوا دعاتكم في المصر، فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم، فإني أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه.

ففعلوا، وخرجت طائفة منهم دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك)[1].

عمل في السر

ويبدو أنهم قد نجحوا في أمرهم إلى حد بعيد، إذ لم يلفتوا إليهم أنظار الدولة خلال حكم يزيد، كما أنهم لم يلفتوا إليهم أنظار القتلة من الأشراف وغيرهم، فلو أن هؤلاء انتبهوا إليهم لأفسدوا أمرهم ووشوا بهم واستأصلوهم قبل أن يستعدوا وتتكاثر أعدادهم.

وقد ظهر من بين الثوار خطباء مؤثرون مثل عبيد الله بن عبد الله المري الذي كان يلتقي بعامتهم كل يوم فيلقي فيهم خطبة بليغة يشيد فيها بمحمد وأهل بيته ﷺ ومكانتهم من المسلمين ويتعرض لما جرى على الحسين في كربلاء. وكان مما يرد في خطبه:

(... فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيّها؟

وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها؟

لا والله. ما كان ولا يكون.

لله أنتم، ألم تروا ويبلغكم ما اجتُرم إلى ابن بنت نبيكم!

أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته، واستضعافهم وحدته، وترميهم إياه بالدم، وتجرادموه على الأرض!

لم يرقبوا فيه ربهم، ولا قرابته من الرسول ﷺ.

---

(١) المصدر السابق.

اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزراً، فلله عيناً من رأى مثله، ولله حسين بن علي، ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين قلّت حماته، وكثرت عداته حوله، فقتله عدوه، وخذله وليّه، فويل للقاتل، وملامة للخاذل إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة.

إنا ندعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيّه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المحلين والمارقين، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا)[1].

(.. ولم يزل أصحاب سليمان بن صرد يدعون شيعتهم وغيرهم من أهل مصرهم، حتى كثر تبعهم، وكان الناس إلى أتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية أسرع منهم قبل ذلك)[2].

(وعظم الشيعة مع سليمان بن صرد)[3].

وقد حاول بعض أهل الكوفة مثل يزيد بن الحارث، تحريض عبد الله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير على الكوفة، على سليمان بن صرد وأنصاره بحجة أنهم سيخرجون عليه ودعوه إلى مقاومته وقتاله قبل أن يستفحل أمره وتشتد شوكته، وأخبروه أن سليمان وأصحابه يطلبون بدم الحسين عليه السلام.

إلا أن عبد الله بن يزيد لم يستجب لتلك الدعوة، ويبدو أنه كان يتمتع بقدر من الفطنة والحذر والتعقل ولم يكن يميل لإثارة الناس ضده، وقد رأى أن يستثمر مشاعر الغضب لدى الناس لكي يتوجهوا لمقاتلة المجرم الرئيسي، عبيد الله بن زياد. وبذلك يكون هو وابن الزبير الرابحان الوحيدان إذا ما خسر أحد طرفي النزاع، أو كلاهما الحرب، فابن زياد وابن صرد كانا عدوّين للدولة الزبيرية الناشئة. وقد ألقى خطبة حرّض فيها الناس على مقاتلة ابن زياد، إلا أن أحد أصحابه.. إبراهيم بن محمد بن طلحة (وهو أمير الخراج) لم يرقه كلام العامل وقد أرعد وأبرق وهدد بكلمات مثل تلك التي كان يستعملها زياد وابنه في خطبهما مثل أخذ الوالد بولده

---

(١) - (٣) الطبري ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥.

والمولود بوالده، والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته، وقد هدّده برفع كلامه إلى ابن الزبير، إلا أن هذا أقنعه بأنه كان يريد ألا تختلف الكلمة، ولا تتفرق الألفة.

(ثم إن أصحاب سليمان بن صرد خرجوا ينشرون السلاح ظاهرين، ويتجهزون يجاهرون بجهازهم وما يصلحهم)[1].

يا لثارات الحسين

وقد خرج سليمان في وجوه أصحابه عندما استهل هلال شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وهو الموعد الذي حددّوه سنة إحدى وستين وعسكر بالنخيلة، فلم يعجبه عدة الناس فبعث جماعة من أصحابه لينادوا في الكوفة (يا لثارات الحسين)، وكانت تلك أول مرة ينادى فيها بذلك المشعار الذي كان تأثيره كبيراً في أهل الكوفة حيث التحق إثر سماعه بسليمان نحو ممن كان في عسكره حين دخله. . . ومع ذلك فإن من التحقوا به لم يتجاوزوا أربعة آلاف من ستة عشر ألفاً كانوا قد بايعوه قبل ذلك وأحصاهم ديوانه، وقد آلمه ذلك، وبعث إلى الكوفة ثانية ببعض ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكرهم الله وما أعطوه من أنفسهم، فخرج إليه نحو من ألف رجل، فأصبح عدد أصحابه خمسة آلاف.

ويبدو أنه كان ينتظر أعداداً أخرى تلتحق به إلا أن المسيب بن نجبة أقنعه بعدم انتظار المزيد منهم إذ لا ينفع الكاره ولا يقاتل إلا من نوى حقاً على القتال وأخرجته النية. وقد ألقى سليمان خطبة قصيرة في أصحابه أوضح فيها الغاية من خروجهم قائلًا:

(أيها الناس: من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، فحرمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها، فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضة، ولا خز ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفنا، وزادٌ قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا)[2].

ويبدو أن أولئك الذين كانوا معه كانوا على نفس نيّته ورأيه وكانوا يتوقون

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٩٧.
(٢) نفس المصدر ٣/ ٤٠٩ وابن الأثير ٤/ ٣.

لملاقات عدوهم، وتكبيده أفدح الخسائر وإن كانوا لا يتوقعون القضاء عليه قضاء تاماً. وقد أعربوا عن رأيهم ذاك بخطابات وهتافات مؤيدة.

قصدوا الشام لمعاقبة المجرم الرئيسي

وقبيل المسير أشار على سليمان أحد أصحابه بالرجوع إلى الكوفة، ما دام هدفهم الثأر للحسين عليه السلام، والقضاء على قتلته، وكلهم فيها، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع وأشراف القبائل، وقد أيد ذلك الاقتراح كثيرون من أصحابه، إذ أنهم لو مضوا نحو الشام فلن يجدوا هناك غير قاتل واحد هو ابن زياد، بينما يتجمع كل القتلة في الكوفة.

غير أن سليمان رأى أن يسيروا لمعاقبة القاتل الرئيسي، ابن زياد، الذي قتل الحسين وعبأ الجنود إليه وقال: لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي.. فإذا ما ظهروا عليه كان الآخرون أهون شوكة منه، وسيكون ظفرهم عاملاً يجعل الناس تنضم إليهم، وحينذاك يتسنى لهم قتل ومعاقبة كل من شرك في دم الحسين.. وحذّرهم من القيام بحرب أهلية في الكوفة تكون عواقبها وخيمة، إذ أنهم منها وقتلة الحسين من أقاربهم وعشائرهم، وسيفتح ذلك الباب لحملة من الثارات والعداوات بين الناس. ولعل عددهم القليل هو الذي جعل سليمان يتوقع فشل مهمتهم في الكوفة، إذ أن الذين يجدون أنفسهم مستهدفين بالحرب والقتل ممن شاركوا بقتل الحسين ومنهم أناس ذوي تأثير قوي في مجتمعهم من رؤساء الأرباع وأشراف القبائل، سيحشدون قواهم لمواجهتهم ومقاومتهم، وعند ذاك لن يجنوا غير إثارة المزيد من النزاعات والعداوات وسيظل قتلة الحسين يمرحون دون وجل وسيكون ابن زياد الرابح الوحيد من كل ذلك.

ابن الزبير لم يحرك ساكناً: عصفوران بحجر واحد

وقد رأى عبد الله بن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة، أن تطوع هذا العدد لمقاتلة ابن زياد سيكون ورقة رابحة في يده، إذا ما بقي هؤلاء في الكوفة للدفاع عنها بوجه ابن زياد القادم إليها من الشام، وإنهم سيكونون نواة لجيش قوي يستطيع تجريده على جيش الشام، وبذلك يحقق مكسباً مجانياً كبيراً لابن الزبير.

وقد عرض على سليمان الإقامة حتى يتهيأوا، فإذا علموا أن عدوهم المشترك قد شارف بلدهم خرجوا إليه بجماعتهم فقاتلوهم.

وعندما رفض سليمان ذلك عرض عليه ابن يزيد أن يقيموا حتى يعبيء معهم جيشاً كثيفاً حتى يلقوا عدوهم بكثف وجمع واحد؛ وعلى أن يخص سليمان وأصحابه بخراج إحدى المدن، دون الناس؛ وقد رفض هذا العرض الأخير.

سليمان بن صُرَد: «..إن للدنيا تجاراً وللآخرة تجاراً.. إن الجهاد سنام العمل..»

ورغم أن أهل البصرة وأهل المدائن لم يوافوا سليمان وأصحابه في الموعد المضروب، إلا أنهم أذمعوا على الشخوص واستقبال ابن زياد، وقد ألقى سليمان خطبة جاء فيها: (أما بعد أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وإن للدنيا تجاراً، وللآخرة تجاراً. فأما تاجر الآخرة فساع إليها، متنصب بتطلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يرى إلا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة، وأما تاجر الدنيا، فمكب عليها، راتع فيها، لا يبتغي بها بدلًا، فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله على كل حال، وتقربوا إلى الله، جل ذكره بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقوا هذا العدو المحل القاسط فتجاهدوه. فإن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة، فإن الجهاد سنام العمل، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء)[1].

وأعلمهم أنهم مدلجون تلك الليلة، فأدلجوا عشية الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر، سنة خمس وستين للهجرة، وهو الموعد الذي حددوه قبل ذلك بأربع سنين.

وقد تخلف نحو ألف رجل من أصحاب سليمان عنه، فلم يزعجه ذلك، لأنه رأى أنهم سيقومون بتخذيل بقية أصحابه عند مواجهة جيش ابن زياد، واعتبر أن ذلك فضل من الله يستحق الحمد..

عند قبر الحسين عليه السلام توبة وعزيمة

وقد (صبَّحوا قبر الحسين، فأقاموا به ليلة ويوماً يصلون عليه، ويستغفرون له، فلما انتهى الناس إلى قبر الحسين صاحوا صيحة واحدة، وبكوا. فما رئي يوم كان أكثر باكياً منه.

---

(١) الطبري ٣/ ٤١١.

فقال سليمان: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهديَّ ابن المهدي، الصديق ابن الصديق، اللهم إنا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبّيهم.

ونادوا صيحة واحدة: يا رب إنا قد خذلنا ابن بنت نبيّنا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلّون عليه ويبكون ويتضرعون، فما انفك الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه. حتى صلوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقاً. ثم ركبوا، فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين فيقوم عليه، فيترحم عليه ويستغفر له؛ وازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود..)[1].

وكان ذلك اليوم وتلك الليلة كافيان لشحنهم بعواطف الولاء والحب الجياشة للحسين عليه السلام والإصرار على المضي في مهمتهم دون تراجع.

وكان سليمان آخر من بقي عند القبر في نحو من ثلاثين من أصحابه وقد أحاطوا بالقبر فقال سليمان: (الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم إذ حرمتناها معه فلا تحرمناها فيه بعده)[2].

وألقى الجميع كلمات في ذلك الموقف، كانت آخرها كلمة المثنى بن مخرّبة صاحب أحد الرؤوس والأشراف وقد جاء فيها: (..إن الله جعل هؤلاء الذين ذكرتهم بمكانهم من نبيّهم صلى الله عليه وآله أفضل ممن هو دون نبيّهم، وقد قتلهم قوم نحن لهم أعداء، ومنهم براء، وقد خرجنا من الديار والأهلين والأموال إرادة استئصال من قتلهم، فوالله لو أن القتال فيهم بمغرب الشمس أو بمنقطع التراب يحق علينا طلبه حتى نناله، فإن ذلك هو الغنم، وهي الشهادة التي ثوابها الجنة..)[3].

إلى العدو في عقر داره

ثم ساروا نحو الشام، وفي القيّادة وصلهم رسول ابن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة يدعوهم للرجوع، إذ أنهم بعددهم القليل لن يستطيعوا التغلب على

(١) - (٣) المصدر السابق ٣/ ٤١١ - ٤١٢ وابن الأثير ٤/ ٤ - ٥.

الجيش الأموي، وإذا ما أصيبوا فإن ذلك الجيش سيطمع بالكوفة نفسها وسيستهدفها بعدوانه وأذاه؛ وأعرب عن استعداده للوقوف معهم إذا ما رجعوا لتجتمع كلمتهم وأيديهم على عدوهم.

ويبدو أن مخاوف ابن يزيد لم تكن على الثوار بقدر ما كانت على سلطان وأعوان الدولة الزبيرية، في الكوفة، وقد أدرك سليمان وأصحابه ذلك، وقد علموا أنهم يختلفون عن الزبيريين اختلافهم عن الأمويين، وإن هؤلاء لو ظهروا لدعوهم إلى القتال مع ابن الزبير والتخلي عن آل البيت، وهو ما كانوا يرونه ضلالًا، لأن لهم شكلًا ولابن الزبير شكل، على حد تعبير سليمان[1]، الذي رفض عرض عامل الكوفة ورد عليه برسالة دقيقة إلا أنها حازمة أنبأه فيها أنهم قد توجهوا إلى الله وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى.

وقد توقع ابن يزيد قتلهم بعد أن تشتد شوكتهم وينالوا من عدوّهم، وقد صحت توقعاته تماماً.

الشهادة أولًا، لا قيمة للسلامة

وقد عرض عليهم زُفَر بن الحارث الكلابي أمير قرقيسيا الذي تحصن منهم في البداية ولم يخرج إليهم لأنه لم يكن يعلم بحقيقة نواياهم ودوافعهم للخروج، بعد أن علم أنهم كانوا يريدون قتال ابن زياد وجيش الشام أن يقيموا في مدينته أو على بابها فيقاتلوا العدو سوية إذا ما قصدهم، وعندما رفضوا عرضه، عرض عليهم خطة حربية يستطيعون بها جعل زمام الموقف في أيديهم في البداية، وقد أخذوا بها عند وصولهم عين الوردة قبيل وصول جيش الشام بخمسة أيام.

وقبيل وصول جيش الشام بيوم وليلة ألقى سليمان خطبة مؤثرة دعاهم فيها إلى

(١) قال سليمان لأصحابه مبدياً رأيه برسالة ابن يزيد: (.. والله إنكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحسنيين منكم يومكم هذا، الشهادة والفتح، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحق، وأردتم من الفضل، إنّا وهؤلاء مختلفون. إن هؤلاء لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا، وأنا إن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله، وإن أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا...) الطبري ٣/ ٤١٢ - ٤١٣؛ ويبدو من حديث سليمان بن صرد هذا إن غرضهم لم يكن الثأر للحسين وأصحابه وحسب وإنما إعادة الأمر إلى أهله، رأي أهل البيت عليهم السلام.

الصبر وأوصاهم فيها بمثل ما كان يوصي به رسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام أصحابهما في مثل تلك المواقف، لا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جري ولا يقتلوا أسيراً، وأوصى بمن يكون عليهم بعده إذا ما قتل، ثم من تجده إذا قتل ذاك ومن بعده.

وبعث المسيب بن نجبة في أربعمائة فارس للقيام بغارة مفاجئة على طلائع العدو وكانت بقيادة ابن ذي الكلاع، وقد حملوا عليهم وهزموهم وأصابوا منهم رجالاً وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح، وأصابوا لهم دواب وأخرجوهم عن معسكرهم وأخذوا منه ما خف عليهم.

وقد أسرع ابن زياد، عندما بلغته هزيمة أصحابه بتسريح الحصين بن نمير إليهم في اثني عشر ألفاً، فعبأ سليمان جنود لمواجهتهم.

ادفعوا إلينا ابن زياد..!

وعندما دعاهم أهل الشام لبيعة عبد الملك والدخول في طاعته، دعاهم هؤلاء إلى أن يدفعوا إليهم عبيد الله بن زياد ـ قائد جيشهم ـ ليقتلوه ببعض من قتل من أخوانهم، وأن يخلعوا عبد الملك بن مروان، وإلى أن يخرج مَن ببلادهم من آل ابن الزبير، ثم يقومون برد الأمر إلى أهل البيت عليهم السلام، وهي شروط بدت مستحيلة التنفيذ بالنسبة للجيش الأموي.

انتصروا في البداية رغم قلة عددهم

وقد بدأت المعركة التي انهزم فيها هذا الجيش الذي كان يتفوق عليهم بالعُدة والعَدد، فعاد إلى معسكره، فكان الظفر لأصحاب سليمان عليهم حتى حجز الليل بينهم؛ وكان سليمان يحارب في القلب رغم شيخوخته وعمره الذي ناهز التسعين عاماً.

وقد أمد ابن زياد جيشه بثمانية آلاف مقاتل فأصبح عشرين ألف بمواجهة جيش سليمان الصغير، وقد دار قتال هائل بين الجيشين لم يُر مثله، وقد كثرت الجراح بين الطرفين، وذلك في اليوم الثاني من المعركة.

كما اقتتلوا في اليوم الثالث قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى، إلى أن تكثّر أهل الشام أصحاب سليمان وتطفوا عليهم من كل جانب، عندها نزل سليمان وكسر جفن

سيفه (ونزل معه ناس كثير فكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، وانزوت خيلهم حتى اختلطت مع الرّجال، فقاتلوهم حتى نزلت الرجال تشتد مصلته بالسيوف، وقد كسروا الجفون، فحمل الفرسان على الخيل ولا يثبتون، فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح)[1].

شيوخ يقاتلون أعداء الإسلام

. . .إلى أن بعث الحصين بن نمير الرجال ترميهم بالنبلِ واكتنفتهم الخيل والرجال، وقد قتل سليمان بن صرد بن آن رُمي بسهم فوقع، ثم وثب ثم وقع، وقتل بعد المسيب بن نجبة بعد أن أخذ الراية فشدّ بها عدة مرات. والمسيّب كان شيخاً طاعناً في السن أيضاً، وقد قاتل قتالًا شديداً لم يُظنّ أن رجلًا واحداً يقدر عليه وقتل من أعدائه رجالًا عديدين.

وقد استلم الراية بعده عبد الله بن سعد بن نفيل، وخلال ذلك جاءتهم نجدة صغيرة من أهل المدائن أرسلها سعد بن حذيفة، إن مجيئها كان متأخراً، فأعداؤهم الذين كانوا يتفوقون عليهم كثيراً قد قتلوا منهم مقتلة كبيرة.

وقد قتل عبد الله بن وال القيمي بعد أن قاتل قتالًا شديداً.

وإذا لم تبقَ منهم إلَّا أعداداً قليلة مصيرها القتل لا محالة رأى رفاعة بن شداد البجلي، وهو خامس قادة التوابين أن يرجعوا إلى الكوفة ويعيدوا تجميع قواهم مرة أخرى، بعد أن قاتلوا حتى العشاء واستطاعوا صد عدوهم.

الانسحاب للم الشمل ثانية

وكانت شجاعتهم قد لفتت إليها أنظار أعدائهم الشاميين الذين أعجبوا بها إيما إعجاب، حتى إنهم أعطوهم الآمان وأسفوا أن يقتلوا وهم على ما هم عليه من شجاعة وبأس. وقد انسحبوا عند حلول الظلام حاملين جرحاهم ومضوا لا يمرون بمعبر إلا قطعوه، وخلفوا وراءهم سبعين فارساً يسترون الناس.

وفي قرثيسيا بعث إليهم زفر من الطعام والعلف مثل ما كان بعث إليهم في المرة الأولى وأرسل إليهم الأطباء، فاقوا عنده ثلاثاً، ثم زود كل امرىء منهم ما أحب من الطعام والعلف.

---

(١) الطبري ٣/ ٤١٧ وابن الأثير ٤/ ٧.

وقد عاد سعد بن حذيفة بن اليمان بعد أن وصله خبر أصحابه والتقى بالمثنى بن مخربة فأخبره بخبرهم؛ وقد استقبلا رفاعة وأصحابه العائدين من الحرب (فسلم الناس بعضهم على بعض، وبكى بعضهم إلى بعض، وتناعَوا إخوانهم)[1] ثم انصرفوا إلى مدنهم، أهل المدائن إلى المدائن، وأهل البصرة إلى البصرة، وأهل الكوفة إلى الكوفة[2].

ولم تكن عودتهم دون فائدة فيما بعد؛ ولم يكن استبسالهم غير ذي جدوى. . . فقد برهنوا أنهم قادرين على التصدي للقوات الأموية الكبيرة، وقادرين على التغلب عليها لو أن كل الذين بايعوا سليمان قد ساروا معهم.

لم يخبُ حماس بقيّتهم رغم الخسارة الفادحة

كان جذوة الحماس التي أججمتها ثورة الحسين فيهم وميتته البطولية في كربلاء جعلتهم ينادون منذ اللحظات الأولى لاستشهاده عليه السلام بالثأر له وقتل عدوه، وكانوا يرون أنهم قادرين على التصدي لأي قوة مهما بلغت والتغلب عليها، غير أن أوان الجد عندما حان، ولم يسر منهم إلا رُبع عددهم، عادت إلى نفوس الباقين ممن تخلفوا عوامل الخوف واليأس واعتقدوا أنهم إنما كانوا يجازفون بحياتهم دون أن يتمكنوا من تحقيق أهدافهم. مع أنهم لو ساروا جميعاً وامتلكوا نفس يقين وعزيمة أخوانهم السائرين لكانوا قوة ضاربة لا تستطيع أية قوة أخرى أن تقف بوجهها، ولما استطاع أحد أن يقول إنهم كانوا ينتحرون.

لم يرد أولئك الذين ساروا لمواجهة ابن زياد أن يتراجعوا ثانية بعد أن تراجعوا عن الحسين عليه السلام في المرة الأولى. ولم يرغبوا أن يرى الناس فيهم كذابين مدّعين، ورأوا أن قضيتهم أغلى من أرواحهم، وإن غلت تلك الأرواح وعزت.

لقد سر عبد الملك بن مروان عندما حملت إليه رؤوس سليمان وأصحابه، ويبدو أنه كان يحسب لهم ألف حساب رغم قلتهم وكثرة أعداد جيشه الذي أرسله إليهم بقيادة ابن زياد، وقد بلغت ثلاثين ألفاً. . وقد رأى أنه قد حقق فتحاً في (عين الوردة). جمع الناس وألقى فيهم خطبة قال فيها: (. . إن الله قد أهلك من رؤوس

(١) المصدر السابق/ ٣/ ٤٢٠ وابن الأثير ٤/ ٩.
(٢) المصدران السابقان ومروج الذهب ٣/ ١١٤.

أهل العراق ملقح فتنة، ورأس ضلالة، سليمان بن صرد، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريف. إلا وقد قتل الله من رؤوسهم رأسين عظيمين خالين، مضلّين، عبد الله بن سعد أخا الأزد، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا إقناع[1] ثم أمر فعلقت الرؤوس بدمشق[2].

لم يجد عبد الملك شيئاً سيئاً يقوله عن هؤلاء، كما قال عن الثائرين عليه فيما بعد بأنهم من الموالي أو العبيد، وهم طبقة استحدثتها الدولة الأموية بنفسها عندما فرقت بينهم وهم مسلمون ينبغي أن يكون لهم ما لبقية المسلمين وعليهم ما عليهم. . . فأصحاب سليمان كانوا كلهم من قبائل العرب المعروفة، غير أنه أخذ يردد هنا ما اعتاد معاوية أن يردده من قبل ناشراً مذهبه الجديد في القدر. فالله هو الذي أهلك سليمان وأصحابه كما أنه هو الذي مكن لمعاوية ويزيد من قبل وقتل أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام. . .! كان الأمويون بذلك يحذرون الناس ويجعلونهم يعتادوا هذا النمط من التفكير المستسلم الراضي بكل شيء ما دامت الدولة تقول بذلك وما دام فقهاؤها وقصاصوها وشعراؤها ومحدثوها يقولون بذلك، وهم (من أعدل الناس وأنزه الناس) ومن (المشهود لهم بالأمانة والإخلاص للإسلام).

وكانت حركة سليمان ستعطي أفضل النتائج لو قدر لمن ساندوها منذ البداية أن يسيروا معه إلى نهاية الشوط، غير أن الشهادة في سبيل الحق والإسلام لا تستهوي الجميع وروادها قليلون ما دامت الأغلبية لا تمتلك البصيرة التي يمتلكها المتفانون في الله. وما دام رواد الأحزاب المعادية لآل البيت يتغلغلون بين شيتهم ومحبّيهم ويعملون على تخذيلهم وإثارة المخاوف في نفوسهم.

المختار: مرحلة جديدة من العمل

وبقدوم المختار إلى الكوفة بدأت مرحلة جديدة من العمل؛ والمختار ابن أبي عبيد من الشخصيات التي كثر الجدل والنقاش حولها، فهو قد ظهر في الوقت الذي

---

(١) الطبري ٣/ ٤٢٠ وابن الأثير ٤/ ١٠ ويحتفظ ابن الأثير هنا على كلمة مروان لأن أباه كان حياً وكان أحرى به أن يلقي هو الخطبة. ولا منافاة في ذلك فربما كلف مروان ابنه عبد الملك باستقبال مبعوثي ابن زياد وحملة الرؤوس إليه وإلقاء تلك الخطبة.

(٢) ابن كثير ٨/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

كانت الدولتان المروانية والزبيرية تعملان فيه على تثبيت أقدامهما، وبدا كأنه قد أفسد مخططاتهما للسيطرة والنمو، بل إنه ألحق أشد الخسائر بهما وأذل كبرياء قادتهما بعد أن قتل وطرد العديدين من ممثليهما وأعوانهما.

أذل الأمويين والزبيريين فحاولوا تشويه سمعته

وقد استُهدف بحملة إعلامية شنّها عليه الطرفان المتنافسان، آل مروان وآل الزبير وقذف بشتى الاتهامات التي انطلت على العديد من المسلمين إلى يومنا هذا، حتى الذين يوالون آل البيت عليهم السلام [1]. وإذا ما علمنا أن من شن حرباً إعلامية على المختار لم يكن يمثل القيادة الشرعية للمسلمين، وإنه كان مجرد طالب للحكم والسلطة، أصبح من حقنا أن نتأمل قليلًا ونتدبر أمر الاتهامات التي قذف بها، فهل إن من قذفوه بها كانوا خلواً منها؟

إن جمهور المسلمين يشكّون في صحة توجهات ابن الزبير وصدق نواياه، كما أنهم اعتبروا مروان باغياً عليه، ما دام ذاك قد طلب المبايعة لنفسه قبله، فكيف يقبلون تخرصاتهما بشأن المختار..

كانت فترة عاصفة لم يجد فيها المسلمون قيادة حقيقية تمثلهم غير تلك التي أجبرت على الانزواء والابتعاد عن مركز الحلم، وهي قيادة أهل البيت المتمثلة في الإمام زين العابدين عليه السلام.. وقد اشترك طرفا الصراع بإعلان كراهيتهما ورفضهما لهذه القيادة، التي لو كانت قد طالبت بحقها في الحكم وإدارة شؤون المسلمين، لكانت قد تعرضت للاستئصال النهائي دون أن يعترض أحد هذه المرة، ولكان ذلك منها مجازفة حقيقية شبيهة بالانتحار غير المبرر.

---

(١) يقول العلامة المجلسي بعد أن استعرض جملة من أخبار المختار (..بأنه وإن لم يكن كاملاً في الإيمان واليقين، ولا مأذونا فيما فعله صريحاً من أئمة الدين، لكن لما جرى على يديه الخيرات الكثيرة، وشفى بها صدور قوم مؤمنين كانت عاقبة أمره آئلة إلى النجاة، فدخل بذلك تحت قوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة ١٠٢. وإنا في شأنه من المتوقفين. وإن كان الأشهر بين أصحابنا انه من المشكورين) ولعل الأخبار الكثيرة التي نقلها عنه في موسوعته البحار قد جعلته يتوقف بشأن إبداء رأي صريح فيه. خصوصاً وإن بعض الأقوال الواردة فيها منسوبة إلى بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام بحار الأنوار ٤٥/٣٣٩.

وقد رأينا كيف أعلن الانحراف عن نفسه بشكل مكشوف إثر فاجعة الطف، وكيف بدت دولة الظلم مزدهرة قوية في الظاهر وكيف تمادت في جرائمها إلى حد استباحة أقدس مدينة عرفها المسلمون وأشرف بقعة خصها الله بالكرامة والمجد. . .

تحفظ الإمام زين العابدين عليه السلام في التعامل الظاهري مع شيعة أهل البيت لا ينفي صحة توجّهاتهم

وهكذا نرى تحفّظ الإمام زين العابدين في تعامله مع المختار وكل شيعة آل البيت عليهم السلام في الكوفة بما فيهم (التوّابون)، ونرى التعامل المشوب بالحذر معه من قبل محمد بن الحنفية الذي يعلم حق العلم مكانة الإمام زين العابدين عليه السلام والذي لم يكن ليتصرف دون توجيهاته غير المعلنة في أغلب الظن لدقة الظرف الذي كانوا يمرون به. . .

هل كان ساذجاً للدرجة التي يدعي فيها النبوة.. أكاذيب ومزاعم

وقد استطاع أعداء المختار استغلال ذلك لعرضه وكأنه يعمل كمفردة دون رضى زين العابدين عليه السلام أو محمد بن الحنفية على الأقل. . وإنه كان يستغل الأمر في النهاية لإعلان نبوته[1] . . . ولا نعتقد أن أحداً كان سيتبعه لو فعل ذلك، ولا نعتقد

---

(١) في معرض الطعن بأهل الكوفة، ذكر انه (ادّعى النبوة منهم غير واحد، منهم المختار بن أبي عبيد. وكتب المختار إلى الأحنف، بلغني إنكم تكذبونني وتكذبون رسلي. وقد كذّبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثر منهم) العقد الفريد ٧/ ٢٧٧.

وعن أبي بكر بن أبي شيبة قال: (.. ولم يكن صادق النيه، ولا صحيح المذهب، وإنما أراد أن يستأصل الناس، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته، فادعى أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحي من الله، وكتب إلى أهل البصرة: بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي، وقد كذبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم، فلما انتشر ذلك عنه، كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير، وهو بالبصرة فخرج إليه، وبرز إليه المختار فاسلمه إبراهيم بن الأثير ووجوه أهل الكوفة، فقتله مصعب وقتل أصحابه) العقد الفريد ٥/ ١٦٣ - ١٥٤ وهي مغالطات تاريخية مفضوحة، إذ لم يتصد له من أهل الكوفة إلا أنصار الأمويين والزبيريين ومن شاركوا بقتل الحسين من إشرافها وزعمائها ولم يفعلوا ذلك لانه ادّعى النبوة، وإنما بسبب الشعارات التي دفعها وبسبب اعلانه الحرب عليهم ومجابهتهم، وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة إنه قيل لعبدالله بن عمر: (إن المختار ليزعم أنه يوحي إليه. قال: صدق الشياطين يوحون إلى=

أنه كان من البلاهة وقصر النظر، وهو يعيش في مجتمع الكوفة الذي يتمتع بقدر لا بأس به من الوعي والمعرفة والذي يميل ميلًا واضحاً لآل البيت عليهم السلام، أن يعلن نبوته. . . كما أن مجمل سيرته منذ مطلع حياته وانحداره من عائلة مجاهدة، استشهد منها أبوه وأخوه، واستماتته في الدفاع عن الكعبة في الحصار الأول، وتأييده لمسلم بن عقيل والإمام الحسين عليه السلام ووقوفه بحزم ضد أنصار الدولتين الزبيرية والمروانية، وقتلهِ قتلةَ الحسين وصدقه في القتال رغم قلة أنصاره في النهاية وطوافه حول البيت وحسن صَلاته المشهود بها من قبل من عرفوه، يجعل من يقول بنبوته المزعومة مجرد مدع أخرق تكذب ادعاءه كل ما عرف من سيرة المختار وهي سيرة جديرة أن ينتبه إليها جيداً وتدرس بدقة ووعي.

وجدير بنا ـ ونحن نستعرض حركته هنا ـ أن نشير إلى بعض جوانب حياته، ونلقي الضوء على ما قام به في الكوفة ومكة قبل ذلك. . .

سيرته الشخصية الحافلة حيّرت الكثيرين

ولد المختار عام الهجرة، وقتل وهو ابن سبع وستين سنة، لأربع عشرة خلت من شهر رمضان في سنة سبع وستين[1] . . . وكانت حياته منذ طفولته حافلة بالجليل من الأعمال حتى غدت أسطورة تحيّر الكثيرون بشأنها. . .

وأبوه أبو عبيد بن مسعود بن عمير الثقفي، وقد استشهد في معركة جرت بين المسلمين والفرس مع ابن له يدعى جبر، وقد حضر المختار مع أبيه وقعة قس الناطف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، (وكان يتفلت للقتال، فيمنعه سعد بن مسعود عمه، فنشأ مقداماً شجاعاً لا يتقي شيئاً، وتعاطى معالي الأمور، وكان ذا عقل وافر. .)[2]

=أوليائهم) نفس المصدر ص ١٥٤ وابن عمر من أعرف الناس بالمختار وهو صهره وقد توسط لدى يزيد مره ولد عامل ابن الزبير ثانية لاخراجه من سجونهم. ولا شك إن هذا القول موضوع على لسان ابن عمر بعد ان توفي. ويبدو ان ابن أبي شيبة كان من الحاقدين على المختار فوضع هذه المزاعم مستغلاً مسجع المختار، وهو لون من ألوان الخطابة، أراد به التأثير على الناس لا غير وليس فيه سحراً وادعاء بنوه.

(١) الطبري ٣/ ٤٩٦ والمجلسي ٤٥/ ٣٥٠.

(٢) المجلسي ٤٥/ ٣٥٠.

(وروى عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: رأيت المختار على فخذ أمير المؤمنين عليه السلام وهو يمسح رأسه ويقول: يا كيِّس يا كيِّس، فسمى كيسان. .)[1].

(وولّى علي عليه السلام عمه على المدائن عاملًا والمختار معه، فلما ولّي المغيرة بن شعبة الكوفة من قبل معاوية رحل المختار إلى المدينة. . .)[2]. . . إذ أنه ربما سيكون مستهدفاً هناك كما حال الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام والسائرين على خطه. . .

ويبدو أنه عاد للكوفة لعلاقة القرابة بينه وبين المغيرة الذي اشتهر بمناوراته الشيطانية وتحيزه لمعاوية وحرصه على نيل المزيد من المكاسب غير المشروعة ولو على حساب المسلمين ومصلحتهم، وقد تحدثنا عن شخصيته في هذه الدراسة، وهي شخصية مدمّرة وخطرة قلما شهد تاريخ المسلمين لها مثيلًا. وقد رأينا أنه أول من وضع فكرة مبايعة يزيد خليفة للمسلمين بعد معاوية وأول من دعا لمبايعته في العراق حاسباً بذلك أنه قدّم لنفسه خدمة جليلة إذ أقره معاوية على ولاية العراق. وإنه قد (ورّط) معاوية بذلك وحسب، ولم يحسب حساب الأذى الذي حصل للمسلمين بسبب حرصه على ذلك المنصب رغم شيخوخته وعدم بقائه فيه فعلًا إلا مدة قصيرة مات على أثرها وترك عبئاً أثقل ظهر الأمة ولا تزال تعاني منها حتى الآن.

وإذ أن المغيرة كان يمتلك ذلك الدهاء الشيطاني الذي جعله يقرن بمعاوية وعمرو بن العاص. وكان ممثل معاوية في الكوفة في الوقت الذي عاد فيه إليها المختار إلى الكوفة بعد استتباب الأمور فيها لصالح معاوية، ولأنه يمت بصلة قربى للمختار، فإن رواية ظهرت علينا حول اهتمام المختار لرأي من آراء المغيرة بشأن مجتمع الكوفة، وإنه قد أضمر العمل بذلك الرأي.

موضوعات أموية

فقد روى أنه لما عاد إلى الكوفة (ركب مع المغيرة يوماً فمر بالسوق، فقال المغيرة: يا لها غارة، ويا له جمعاً! إني لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق، ولا ناعق لها لاتّبعوه، ولا سيما الأعاجم الذين إذا ألقي إليهم الشيء قبلوه!

(١) المصدر السابق ٣٥١.

(٢) نفس المصدر ٣٥٢.

فقال له المختار: وما هي يا عمّ؟

قال: يستأدون بآل محمد!

فأغضى عليها المختار، ولم يزل ذلك في نفسه. ثم جعل يتكلم بفضل آل محمد وينشر مناقب علي والحسن والحسين عليهم السلام، ويسيّر ذلك ويقول: إنهم أحق بالأمر من كل أحد بعد رسول الله. ويتوجع لهم مما نزل بهم)[1].

ودلائل الحال تشير إلى أن هذه الرواية موضوعة. فالمختار كان مع عمه، عامل أمير المؤمنين على المدائن، وعندما استشهدوا أمير المؤمنين عليه السلام واستتب الوضع لصالح معاوية، وعيّن المغيرة على الكوفة رحل المختار إلى المدينة، إذ ربما يستهدف بالأذى أو القتل. ويبدو أن سياسة المغيرة التي اتسمت (بالمرونة) في الكوفة جعلته يعود إليها، وما نحسب أنه كان على علاقة وثيقة به بحيث يفضي إليه هذا أفكاره على انفراد ويحفزه على أمر من شأنه الإضرار بدولة معاوية التي يمثلها هو.

وما نحسب أن المختار كان مجرد شاب قليل التجربة يتلقى الأفكار الجاهزة ليضمر العمل بها في المستقبل؛ فهو قد تجاوز الأربعين من عمره في الفترة التي كان فيها المغيرة والياً على الكوفة. (وكان يجالس محمد بن الحنفية، ويأخذ عنه الأحاديث)[2]. وكلنا نعلم أن محمداً كان من الداعين لنهج والده وأخويه عليهم السلام واستمر على ولائه لهم ولابن أخيه زين العابدين عليه السلام، ولم يكن ينادي بالأمر لنفسه أو يطمح بأمر من أمور الخلافة والحكم. . وكانت جميع مواقفه منذ مطلع حياته تدل على استيعابه لنهج والده وطاعته الكبيرة له. ولا بد أنه كان مصدراً موثوقاً لعلوم أهل البيت عليهم السلام طالما أنه كان نتاج تربيتهم وإعدادهم، ولعل الفترة التي أمضاها معه المختار ويجالسه ويأخذ عنه الأحاديث، قد جعلت هذا الأخير بما يتمتع به من ذكاء كبير، دلت عليه مواقفه فيما بعد، إذ لم يشر أحد إشارة واضحة إلى ماضيه، سوى النتف القليلة التي ذكرت لنا والتي لا تكاد تعنينا إذا ما أردنا دراسة حياته الماضية، يستفيد إلى حد بعيد من ذلك ويدرك أن منهج أهل البيت عليهم السلام هو المنهج الوحيد الجدير بالاتباع، لأنه يعبر عن منهج رسول الله صلى الله عليه وآله ويوصل إليه. كما أن الفترة التي أمضاها مع عمه، ممثل أمير المؤمنين في المدائن، وهو من محبيه والداعين إليه، لم

---

(١) و(٢) نفس المصدر ٤٥/ ٣٥٢.

تكن لتذهب عبثاً دون يعرف المختار شيئاً من فضائل أهل البيت عليهم السلام . . . وتجعل دوافعه لنشر فضائلهم هو تلميحات المغيرة بن شعبة وحسب.

أكاذيب وأضاليل

ونحسب أن ما يقال هنا هو إحدى الحلقات التي يراد منها إكمال السلسلة التي أريد بها تطويق المختار الذي كان ضحية للدعايات الأموية والزبيرية طيلة فترة طويلة، حتى أصبح الكثيرون من المحدثين، ومنهم من الموالين لأهل البيت عليهم السلام، يعتقدون بصحتها ويترددون بشأن سلامة مواقفه وولائه لأهل البيت.

على أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتعرض فيها المختار للطعن والتشويه، فقد وردت رواية أخرى يبدو الضعف فيها ظاهراً، ولعل واضعها لم يعتن بمسألة عمر المختار وقد ذكر أنه كان غلاماً شاباً مع أن عمره كان أربعين عاماً، لأن الزمن الذي ذكر أنها وقعت فيه سنة أربعين للهجرة.

فقد روي أن الحسن عليه السلام عندما كان في المدائن أثر تفرق جيشه ومحاولة بعض الناس نهب سرادقه حتى نازعوه بساطاً كان تحته (وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملًا على المدائن، وكان اسمه سعد بن مسعود، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟

قال: توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية.

فقال له سعد: عليك لعنة الله، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فأوثقه، بئس الرجل أنت)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ١٦٥ وورد في الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٧١ إن المختار قال لعمه: (تستوثق من الحسن وتستأمن به إلى معاوية. .) ومن المعلوم إن معظم روايات ابن الأثير مأخوذه عن الطبري. وقد أوضحنا بطلان المزعم الواردة في هذه الرواية.
(روي عن النضر بن صالح قال: (كان الشيعة تشتم المختار وتعتبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طعن في مظلم ساباط، فحمد إلى أبيض المدائن. .) الطبري ٣/ ٤٠٠ وهو خبر لا بد من تأمله أيضاً، إذ أنهم لو كانوا قد شتموه، لما ساروا وراءه ولما لقي منهم ذلك التأييد الكبير، ومع ذلك فلم نجد والزبيريين في أوقات لاحقة، خصوصاً وإن معظم هذه الحوادق لم تدون في حينها.

هل يعقل أن يقترح المختار هذا الاقتراح، ثم يذهب ليجالس محمد بن الحنفية ويأخذ عنه الأحاديث؟ وهل وجد في سيرته ما يؤيد هذا التوجه الغادر؟

كان ذلك الفعل أجدر بالمغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص أو مروان، أما أن يقوم به رجل أعلن ولاءه لأهل البيت عليهم السلام وحزنه الكبير لمصرع الحسين ثم مات تلك الميتة البطولية وهو يقاوم أعداءهم وقتلتهم مع أن بإمكانه أن يساوم وينجو، فهو أمر بعيد عن التصديق.

أترى أنه يقدم على ذلك ثم يترحم عليه الإمام زين العابدين وبعض الأئمة عليهم السلام؛ بعد وفاته وميتته الكريمة تلك في الكوفة..؟

استقامة وثبات على الحق

إنه ـ حتى قبل أن يشتهر بمكة أو الكوفة بعد ذلك ـ لم يعرف عنه إلا إصراره على الاستقامة والثبات على الحق، وله موق مشهود رفض فيه الانصياع لأوامر زياد بن أبية للشهادة زوراً على حجر بن عدي، مع أن سبعين رجلًا من وجهاء الكوفة وأشرافها فعلوا ذلك وشهدوا (إن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عز وجل كفرة صلحاء)[1]. وهو الأمر الذي لم يقتنع به حتى معاوية نفسه، وقد ندم على قتله حجر ندماً كبيراً حتى في لحظات نزعه وصراعه مع الموت، ولو كان متيقناً من شهادات أولئك الشهود لما ندم ذلك الندم الكبير.

فقد دعا زياد (المختار بن أبي عبيد وعروة بن المغيرة بن شعبة، ليشهدا عليه، فراغاً...)[2]. ولو أن المختار كان ممن ينتهز الفرص لكان قد استجاب لزياد متقرباً إليه... لكنه لم يفعل ذلك رغم صرامة زياد وقسوته.

المختار: لم يكن المتهم الوحيد

على أننا لو درسنا تاريخنا دراسة متتبعة مستفيضة لوجدنا أن المختار لم يكن الشخص الوحيد الذي اتهم بالكذب والطمع والحسد وغير ذلك مما لم يكن فيه فعلًا،

---

(١) و(٢) الطبري ٣/٢٢٦.

بل إن رجالًا في مقام عال لا يمكن أن يتطرق إليهم الشك مطلقاً كأمير المؤمنين عليه السلام وأولاده عليهم السلام قد تعرضوا لحملة من التشويه والاتهامات الظالمة، وهو أمر لا نستغرب حدوثه في جو مشحون بالأطماع والدسائس والولاءات المتنافرة.

(... حدّث الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج وأوقفه على باب المسجد، فجعلوا يقولون له: العن الكاذبين: علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد.

فقال: لعن الله الكاذبين، عليٌّ بن أبي طالب وعبدُ الله بن الزبير والمختارُ بن أبي عبيد ـ بالرفع ـ فعرفت حين سكت، ثم ابتدأ فرفع إنه ليس يريدهم..)[1].

فالحجاج كان يريد بأية وسيلة إلصاق تهمة الكذب بأعداء الأمويين، ولا فرق عنده في ذلك بين أمير المؤمنين أو ابن الزبير أو المختار، فالكل أعداء يجب النيل منهم والتقليل من أهميتهم بنظر المسلمين، والوحيد الذي يجب أن ينظر بعين الاحترام هو سيده الحاكم الأموي.

وموضوع إلصاق الاتهامات وتوجيهها لمن لا يستحقها ليست أمراً جديداً غير معروف وإنما هو أمر مألوف أصبح مساغاً لدى العديدين وقد ألفوه واعتادوا عليه، بل وربما برّروه بمقتضيات السياسة وضرورة حفظ السلطان.

ومهما يكن من أمر، فلا بد من تدبر أمر الروايات التي أرادت الطعن بالمختار وتشويه سمعته، لإبراز حركته في النهاية وكأنها حركة انتهازية لم يقم بها سوى هذا (الكذاب) وسوى حفنة من (وضعاء أهل الكوفة وسفلتها من الموالي وأعداء العرب)، ومن ثم التقليل من أهمية انتفاضة الكوفة بوجه قتلة الحسين عليه السلام ومحاولتها العودة إلى خط أهل البيت عليهم السلام رغم وجود طرفي النزاع القويين نسبياً، وتنحّي الإمام زين العابدين عليه السلام عن الصراع السياسي في تلك الفترة العاصفة.

قدوم المختار إلى الكوفة ونزول مسلم بن عقيل في بيته

قدم المختار الكوفة، وقد كان بها في السابق لأن له داراً فيها نزلها مسلم بن

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٩١.

عقيل عندما قدم الكوفة داعياً للحسين عليه السلام [1]، ولم يكن معقولاً أن ينزل مسلم دار المختار دون أن يدعوه هذا أو يكون موجوداً معه. ولا بد أن المختار كان داعية نشيطاً مِن دعاة آل البيت عليهم السلام حتى يختار مسلم النزول في داره، قبل أن ينتقل إلى دار هانيء بن عروة عندما انكشف أمر وجوده في هذه الدار، وقد أقبلت الناس تختلف إليه فيها.

ولعل خبر وجود مسلم في بيت المختار قد طرق أسماع ابن زياد، فجعل ذلك المختار يختفي عن الأنظار لحين إعلان الثورة وإكمال الاستعدادات لها. وإذ أن مسلم اضطر للخروج قبل الوقت المحدد لمحاصرة قصر ابن زياد الذي احتجز هانيء بن عروة، فإن الأحداث تسارعت بشكل غير طبيعي، دون إكمال تلك الاستعدادات ودون إعلام كل من بايع مسلم ليلتحق بالثوار الذين حاصروا القصر ثم سرعان ما تفرقوا بعد أن قام الأشراف ورؤساء الأرباع والقبائل بتخذيلهم وبث المخاوف في نفوسهم من السلطة الأموية الغاشمة وجيشها القادم من الشام كما زعموا، (. . . خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخطر نية تدعى لقفا، فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة، فلم يكن خروجه حين خرج على ميعاد من أصحابه، إنما خرج حين قيل له: إن هانيء بن عروة المرادي قد ضرب وحبس. فأقبل المختار في موال له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب، وقد عقد عبيد الله بن زياد لعمرو بن حريث راية على جميع الناس، وأمره أن يعقد لهم في المسجد.

فلما كان المختار وقف على باب الفيل مرَّ به هانيء بن أبي حية الوادعي، فقال للمختار: ما وقوفك هاهنا، لا أنت مع الناس ولا أنت في رحلك. قال: أصبح رأيي مرتجاً لعظم خطيئتكم. فقال له: أظنك والله قاتلًا نفسك. .)[2].

أراد الوقوف مع مسلم ففاته الوقت

وجد المختار الوضع إذاً ليس في صالح مسلم، إذ أنه وصل بعد الغروب، وهو الوقت الذي تفرق فيه معظم أصحابه، ومع ذلك فإنه وقف على باب الفيل، ولعله

---

(١) (عندما بعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة، نزل دار المختار. فبايعه المختار بن أبي عبيد فيمن بايعه من أهل الكوفة، وناصحه، ودعا إليه من أطاعه. .) الطبري ٣/ ٤٠٠.

(٢) الطبري ٣/ ٤٠٠ وابن الأثير ٣/ ٤٩٢ - ٤٩٣.

المكان الذي اتفق عليه قبل ذلك مع مسلم، وربما توقع أن تأتيه أوامر أو تعليمات منه. وإذ أنه لم يتلق أي شيء ووردته إنذارات تحذره مغبة وقوفه هناك.

وقد عرض عليه أحد قادة ابن زياد الشفاعة له لديه وناشده بالله ألا يجعل على نفسه سبيلًا.

المخبرون يشون بالمختار لدى ابن زياد

وقد كان عمل المختار هذا سبباً لحديث الناس، وقد مشى أحد أعوان الدولة عمارة بن عقبة بن أبي معيط إلى عبيد الله وأخبره خبر المختار، وقد استدعاه (فقال له: أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل؟

قال له: لم أفعل، ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حريث، وبتُّ معه وأصبحت.

فقال له عمرو: صدق أصلحك الله. فرفع القضيب فاعترض به وجه المختار فخبط عينه فشترها، وقال: أولى لك، أما والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك.

انطلقوا به إلى السجن، فانطلقوا به إلى السجن فحبس فيه، فلم يزل في السجن حتى قتل الحسين)[1].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٠٠، وابن الأثير ٣/ ٤٩٢ - ٤٩٣ وذكر عن عيسى بن زيد (أن المختار بن أبي عبيد، وعبدالله بن الحارث بن نوفل كان خرجا مع مسلم، خرج المختار براية خضراء، وخرج عبدالله براية حمراء وعليه ثياب حمر، وجاء المختار برايته فركزها على باب عمرو بن حريث، وقال: إنما خرجت لأمنع عمراً، وإن عبيدالله أمر أن يطلب المختار وعبدالله بن الحارث وجعل فيهما جعله، فأتي بهما فحُبسا) نفس المصدر ٣/ ٢٩٤ ولا تكاد هذه الرواية تختلف عن تلك، وكلتاهما أجمعتا على أن المختار قد خرج برايته لنصرة مسلم، إلا أن الظروف لم تواته، وقد بلغ أمره ابن زياد فأمر بحبسه حيث لم يمكنه الفرار منه.
قال أمير المؤمنين عليه السلام (لما تفرس في قوم من عسكره إنهم يتهمونه فيما يخبرهم به عن النبي صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم والغائبات، وقد كان شك جماعة منهم في أقواله ومنهم من واجهه بالشك والتهمة) «أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه..) ابن أبي الحديد ٢٠٧ - ٢٠٨ وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام قد أطلع ميثم على علم كثير وأسرار خفيه من أسرار الوصية فيشك فيه قوم من أهل الكوفة.. المصدر السابق ٢١٠.

في السجن، مع ميثم التمار

وفي السجن التقى المختار بميثم التمار، أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام المقربين، الذي أعدمه ابن زياد قبل مقدم الحسين الكوفة بعشرة أيام.

وكان أمير المؤمنين يسر إليه بالكثير من الأحداث والوقائع التي ستحصل، وكان علمه عليه السلام من علم رسول الله صلى الله عليه وآله(*)... لقد أخبره أنه سيصلب ويقتل في الكوفة وكان مستعداً لملاقاة مصيره دون خوف، بل كان يبدو مستبشراً بذلك، طالما أنه أمضى حياته لمرضاة الله وفي سبيله.

(...قال ميثم للمختار وهما في حبس ابن زياد: إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين عليه السلام، فتقتل هذا الجبار الذي نحن في حبسه وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخديه)[1] ولا بد أنه أخبره بتفصيلات كثيرة عن ذلك وعن بعض الأحداث الأخرى، مما صرّح به المختار، ودعا منتقديه لاتهامه بالنبوة، وهو الأمر الذي ما كان يقدم عليه للأسباب التي ذكرناها في هذا المبحث.

ابن عمر يتوسط لإطلاق سراح المختار

وكان الأمر كما قال ميثم بعد ذلك، فقد بعث المختار إلى ابن عمر يسأله أن يكتب إلى يزيد لإطلاق سرحه، وكانت صفية أخت المختار زوجاً لابن عمر.

وكتب ابن عمر إلى يزيد طالباً إطلاق سراح المختار من سجن ابن زياد، وقد استجاب يزيد لطلب ابن عمر لموقفه من مبايعته وسكوته عن انتهاكاته وكتب إلى ابن زياد يأمره بإخلاء سبيل المختار. واستجاب هذا لأوامر سيده وأطلق سراحه إلا أنه أمره أن لا يبق بالكوفة أكثر من ثلاثة أيام؛ وقد خرج المختار في اليوم الثالث إلى الحجاز.

أقوال تحققت

وقد روى أحد الذين لقوه في الطريق إلى الحجاز إنه سأله عن سبب شتر عينهِ، فأخبره أن ابن الزانية ويقصد به ابن زياد قد خبطها بالقضيب، ثم قال له: (قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إرباً إرباً)[2] وطلب منه أن يحفظ ذلك عنه حتى يرى

(١) شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد ص ٢١١ والبحار ٤٥/ ٣٥٣ مع بعض الاختلافات.
(٢) الطبري ٣/ ٤٠١ - ٤٠٢ وابن الأثير ٤٩٣ باختصار.

مصداقه، وقال له إنه إذا ما أتيحت له الفرصة، فسيظهر (في عصائبه في المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف، سيد المسلمين، وابن سيدها، الحسين بن علي)[١].

وقال: (فوربك لأقتلن بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا عليه السلام)[٢]، وعندما تعجب مستمعه من كلامه، قال له إن الأمر كما أخبره.

وفكّر ابن العرق، وهو مولى لثقيف، وكان هو الذي لقي المختار وروى لنا ذلك، (هذا الذي يذكر لي، مما يزعم أنه كائن، أشيء حدّث به نفسه، والله ما أطلع الله على الغيب أحداً، وإنما هو شيء يتمناه فيرى أنه كائن، فهو يوجب رأيه، فهذا والله الرأي الشعاع، فوالله ما كل ما يرى الإنسان إنه كائن يكون. فوالله ما مات حتى رأيت كل ما قاله. فوالله لئن كان ذلك من علم ألقي إليه لقد أُثبت له، ولئن كان ذلك رأياً رآه وشيئاً تمنّاه، لقد كان...)[٣].

تعلّم من ذي علم.. المختار أدهش الجميع

لم يثر هذا الأمر دهشة ابن العِرق وحده، بل أثار دهشة آخرين حتى ممن كانوا يعادون المختار أمثال الحجاج، وهو من ثقيف أيضاً، وقد ضحك عندما روى له ابن العرق قصة لقائه بالمختار وما قاله له، وقال له بدوره: إن المختار كان يقول:

(ورافعةٍ ذَيلَها وداعية ويلها
بدجلة أو حولها)[٤]

ويشير فيها إلى ما سيحدث لابن زياد قرب دجلة...

وقد سأل ابنُ العرق الحجاج: (أترى هذا شيئاً كان يخترعه، وتخرّصاً يتخرصه، أم هو من علم كان أوتيه؟

فقال: والله ما أدري ما هذا الذي تسألني عنه، ولكن لله درّه، أي رجل دنيا، ومِسعَرّ حرب، ومقارع أعداء كان!)[٥].

لم يستطع الحجاج أن يقول عنه إلا ما قال، غير أنه في مناسبات أخرى رماه

(١) - (٣) المصدر السابق.

(٤) و(٥) الطبري ٣/ ٤٠٢.

بالكذب كما تجرأ ورمى به حتى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه. ومن المؤكد أنه لم يصدّق أن أحداً سيصدق مزاعمه.

المختار فاق منافسيه

كان المختار يرى أنه لا يقل أهمية عن الذين أخذوا يمدون أعناقهم لنيل الحكم أمثال ابن الزبير، وفي ذلك الجو العاصف المضطرب الذي صعد فيه يزيد إلى سدة حكم جميع المسلمين وأصبح فيه أمثال ابن زياد قادة وأمراء، وأبعدت القيادة الحقيقية عن الحكم، بل وتصدت دولة الظلم الأموية للحسين عليه السلام بالسيف، وأبدت استعدادها للقيام بمزيد من حمامات الدم ضد كل منافس أو عدو محتمل، كانت مهمة الحفاظ على الإمام والقائد الحقيقي وأتباعه وشيعته تبدو مهمة أساسية على غاية من الأهمية. ولم يكن بإمكان الإمام الاتصال بكل ثائر على دولة الظلم وكل منكر لسياساتها وأعمالها وممارساتها غير المشروعة، وكان ينبغي التعامل بحذر مع كل من يريد الإطاحة بتلك الدولة، وكان لا بد من وجود حلقة مقربة من الإمام، تبدو في الظاهر وكأنها تتصرف بدافع من إرادتها المستقلة عن الإمام مع أنها في واقع الحال ترتبط به ارتباطاً صميمياً، لتتعامل وبحذر أيضاً مع أعداء تلك الدولة وأعداء الدولة الأخرى ـ الزبيرية ـ التي بدأت تظهر وتمتد بعد هلاك يزيد.

محمد بن الحنفية: حلقة الوصل بين الإمام زين العابدين عليه السلام وأتباع خط أهل البيت

وكان محمد بن الحنفية هو حلقة الوصل تلك بين الإمام زين العابدين الذي بدا وكأنه قد انصرف تماماً لإرساء دعائم مدرسة أهل البيت التي توشك أن تختفي تحت وطأة أعدائهم، وأنه انصرف للدعاء والحزن على أبيه وأصحابه عليهم السلام.

وكان ابن الحنفية يدرك ضرورة تجنيب الإمام ذلك الجو العاصف الذي ما كان يتورع فيه أعداء أهل البيت من الأمويين والزبيريين عن إلحاق أشد الأذى به، بل وقتله واستئصاله وملاحقة كل شيعته وأتباعه. وقد بدا وكأنه يدعو لنفسه وكأن جماعة قد تبنت مذهباً خاصاً به وقد دعت نفسها بالكيسانية(١)... وقد رأينا كيف أنه وابن عباس

(١) وقد ذكر ان (المختار هو الذي دعا الناس إلى محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ابن الحنفية، وسمّوا الكيسانية وهم المختاريه، وكان لقبه كيسان، ولقب بكيسان لصاحب شرطه المكنى أبا عمره، وكان اسمه كيسان. وقيل إنه سمّي بكيسان مولى علي بن أبي طالب،=

قد واجها ابن الزبير تلك المواجهة العاصفة التي انتهت بأن وضع ابن الزبير محمد ابن الحنفية في سجن عارم وقد أراد إحراقه عليهم وعلى بعض أصحابه من العلويين وغيرهم لو لم يرسل المختار من يخرجهم منه بالقوة.

هل كان المختار يسعى للسلطة

ويحاول بعض من كتبوا عن المختار وتحدثوا عنه تصويره وكأنه ساعٍ للسلطة أو طالبٍ انتهازي يسعى لها مع أي طرف كان، ويتحدثون عن طلبات قدمهاً لابن الزبير

=وهو الذي حمله على الطلب بدم الحسين عليه السلام ودّله عل قتلته، وكان صاحب سرّه والغالب على أمره، وكان لا يبلغه عن رجل من أعداء الحسين أنه في دار أو موضع الا قصده وهدم لدار بأسرها...) البحار ٤٥/ ٣٤٥ وذكر غير ذلك. ومن المعلوم ان الكيسانية لم تكن فرقة أو مذهباً ذا أثر معروف، ولعل موالاة المختار لمحمد بن الحنفية، وخطه الأكثر ظهوراً وكانت له مواقف معروفة ضد ابن الزبير، هو الذي جعل الناس تعتقد ان ابن الحنفية كانت له دعاة من أمثال المختار.

وقد حيّر موقف الإمام زين العابدين عليه السلام المعلن من المختار، وكذلك موقف محمد بن الحنفية العديدين من الكتاب والمؤرخين ورأوا ان المختار كان (كاذباً فاجراً) طالما ان الإمام لم يؤيده صراحه ولم تصدر منه تصريحات واضحة تحقه إلا فيما بعد، كما حيرهم عدم تصريح محمد بن الحنفية بحقيقة رأيه فيه وغموض موقفه حوله: (حاول المختار أن يضع على حركته رداء أهل البيت، فكتب إلى علي بن الحسين يريد أن يبايعه، ولكن علي بن الحسين أبى أن يقتل منه ذلك، وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس بإظهار الميل إل آل أبي طالب فلما يئس المختار من علي بن الحسين، كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين ألا يجيبه إلى شيء من ذلك، فأن الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بمحبتهم، وباطنه مخالف ظاهره في الميل اليهم والتولي لهم والبراءه من أعدائهم بل هو من أعدائهم لآمن أوليائهم والواجب عليه ان يشهر أمره ويظهر كذبه، وأتى محمد بن الحنفية ابن عباس يستشيره في هذا الأمر فأوصاه بالسكوت) معالم الفتن ٢/ ٣٢٨/ ٣٢٩ وحركة المختار دليل عظيم على أن إل البيت لا يركبون باطلاً ليصلوا به إلى حق، فلو كانوا طلاب دنيا لهرولوا إلى المختار، في وقت كان البيت الأموي يعيد ترتيب أوراقه وأوتاده، لكنهم لم يفعلوا ذلك، لان الدين لا يخضع للتجارة) المصدر السابق ٣٢٩ - ٣٣٠ وربما فاتت الكاتب الأسباب التي دعت الإمام علي بن الحسين عليه السلام لرفض المواجهة السياسية والعسكرية مع الدولتين الأموية والزبيرية وقد تحدثنا عنها في هذا الفصل من الكتاب وذكرنا بعضها.

وافق عليها هذا باعتبار أنه قبل نصيحة من أشار عليه بأن يشتري من المختار دينه. ولم يتحدث هؤلاء عن موقف ابن الزبير الانتهازي حين قبل بشروط المختار، هذا إذا صح أن للمختار شروطاً اشترطها عليه.

والسؤال الجدي الذي ينبغي أن يطرح هنا: مَن حاول أن يتقرب إلى مَن؟

المختار لابن الزبير؟ أم ابن الزبير للمختار؟

لا تناقض في المواقف: الهدف النهائي الأخذ بثأر الحسين عليه السلام، لا بد من معاقبة المعتدي

ورغم أن المختار كان يقدر إمكانات ابن الزبير وقوة تأثيره في أوساط كبيرة من المسلمين في الحجاز وغيرها الذي لم يلمسوا في (الخليفة) الحالي وهو يزيد أية جدارة لمنصبه وآلمهم إيغاله في الانحراف والشذوذ والجريمة، وكان يرى فيه رجل الساعة بعد هلاك يزيد.. إلا أنه وقد آثر أتباع خط آل البيت عليهم السلام والانتقام من قتلة الحسين وأصحابه، وهي غاية اعتبرها نبيلة وجديرة بالتضحية والكفاح، اعتبر نفسه لا يقل عن الطالبين الآخرين بالخلافة كابن الزبير ومروان وغيرهما. وكان يتفوق عليهما فعلًا بكثير من المؤهلات والصفات الجيدة مما وصل إلينا عنه رغم محاولات تشويه صورته وعرضه كمتمرد وطالب للحكم ومتنبِّىء وكاذب.

في طريقه إلى الحجاز بعد إخراجه من السجن إثر وساطة ابن عمر وأوامر يزيد طفق يسأل مولى لثقيف عن عبد الله بن الزبير، فقال له هذا بأنه لجأ إلى البيت وادعى أنه عائذ برب هذه البنيّة والناس يتحدثون أنه يبايع سراً، (..ولا أراه إلا لو قد اشتدت شوكته، واستكثف من الرجال إلا سيظهر الخلاف.

قال: أجل، لا شك في ذلك، أما إنه رجل العرب اليوم، أما إنه أن يخطط في أثري، ويسمع قولي أكفه أمر الناس، وألا يفعل، فوالله ما أنا بدون أحد من العرب. إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت، وكأن قد انبعثت فواطئت في خطامها..)[1] وأخبره أنه عند ذاك سيطلب بدم الحسين عليه السلام ويقتل بقتله عدة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكريا.

(١) الطبري ٣/ ٤٠١.

أراد أن يستفيد من حرص ابن الزبير على السلطة ومنافسته للأمويين

ربما كان المختار يتمنى أن يطيعه ابن الزبير ويقبل بمشورته للقضاء على الدولة الأموية التي كان يحقد عليها حقداً شديداً، غير أنه كان عالماً بطبيعة ابن الزبير وكرهه لأهل البيت، ويعلم أنه سيدعو لنفسه. وإذ أنه يعلم مَن هو وما هي مؤهلاته وأنه لا يتفوق عليه شخصياً، صرح أمام محدثه بأنه ليس دون أحد من العرب كابن الزبير وغيره، بل ربما كان أفضل منهم، وما دام أهل البيت لا يدعون لأنفسهم صراحة ولم يعلنوا عن عزمهم للمطالبة بدم الحسين عليه السلام. فأي خطأ يرتكبه من يدعو إليهم ويطالب بثأرهم ما دام يواجه قيادات ودول ظلم غير شرعية.؟

إن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه المختار بنظر البعض هو استقلاليته وعدم تبنيه لإحدى الخطوط الرئيسية التي كانت تظهر في الساحة سوى ما أعلنه من حب وولاء لأهل البيت واستعداد للأخذ بثأرهم. وإذ أنه نجح في تحقيق مسعاه ووقف وقفة حاسمة بوجه الزبيريين والأمويين وأذل كبرياء قادتهما، فإن حملة مسعورة من الشتائم والهياج والأكاذيب المفضوحة قد أثيرت ضده وملأت كتب التاريخ المأجورة والمكتوبة في ظل حكام الظلم المعادين لأهل البيت والذين أقاموا دعائم حكمهم على أسس مشابهة لتلك التي أقامها معاوية من قبل.

معرفة النوايا

وقد أراد المختار معرفة نوايا ابن الزبير عند مقدمه مكة (فكتم عنه ابن الزبير أمره ففارقه وغاب عنه سنة)[1] وقد زعم بعض أهل الطائف أنه قدم عليهم هناك، وأنه أعلن

---

(١) ابن الأثير ٣/ ٤٩٣ وروى عباس بن سهل بن سعد قال: (قدم المختار علينا مكة، فجاء إلى عبدالله بن الزبير وأنا جالس عنده فسلم عليه، فرد عليه ابن الزبير ورحب به وأوسع له، ثم قال: حدثني عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحٰق. قال: هم لسلطانهم في العلانية أولياء، وفي السر أعداء. فقال له ابن الزبير: هذه صفة عبيد السوء، إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم. فجلس معنا ساعة، ثم إنه قال إلى ابن الزبير كأنه يسّاره، فقال له: ما تنتظر أبسط يدك أبايعك، وأعطنا ما يرضينا. وثب على الحجار فأن أهل الحجاز كلهم معك. فقام المختار فخرج فلم يرَ حولاً) الطبري ٣/ ٤٠٢ ومقولة ابن الزبير عن أهل الكوفة مأخوذة عن مقولة أمير المؤمنين في إحدى خطبه التي حذرهم فيها ظلم معاوية وبني أمية وقد تطرقنا إليها عند الحديث عن مجتمع الكوفة، وإذا ما صحت هذه=

عن نواياه الحقيقية رغم أن حكومة يزيد لا تزال قائمة وكانت تبدو في أوج قوتها، وأنه قال إنه (صاحب الغضب ومبير الجبارين)[١]، وقد أزعج ذلك ابن الزبير، فقال لمن حدثه عن ذلك: (قاتله الله، لقد انبعث كذاباً متكهناً. إن الله إن يهلك الجبارين، يكن المختار أحدهم)[٢]. ولا بد أن ابن الزبير كان يتابع حركات المختار وأقواله لمعرفة نواياه ولا بد أنه كان يحسب له حساباً كبيراً بل ويخشاه[٣].

وقد مقدمه الثاني إلى مكة لم يأت ابن الزبير رغم أنه طاف بالبيت أسبوعاً وصلى عند الحجر واستقبل جماعة من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز، وقد استبطأ ابن الزبير قيامه إليه وأرسل أحد أصحابه لاستطلاع الأمر.

وقد حاول هذا ـ وهو عباس بن سهل بن سعد ـ أن يستميل المختار إلى جانب ابن الزبير قائلًا له: (مثلك يغيب عن مثل ما قد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار وثقيف! لم يبق أهل بيت ولا قبيلة إلا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل. فعجباً لك ولرأيك ألا تكون أتيته فبايعته، وأخذت بخطك من هذا الأمر.

فقال لي: وما رأيتني؟ أتيته العام الماضي، فأشرت عليه بالرأي، فطوى أمره دوني، وإني لما رأيته استغنى عني أحببت أن أريه أني مستغن عنه. إنه والله لهو أحوج إليَّ مني إليه.

فقلت له: إنك كلمته بالذي كلمته وهو ظاهر في المسجد، وهذا الكلام لا

=الرواية فربما كان المختار يريد أن يكشف أمر ابن الزبير، وربما أراد أن يضرب به يزيد فيكونا الخاسرين الوحيدين، ومن مجمل الأحداث نرى ان ابن الزبير كان متلهفاً على انضمام المختار إليه ولم يحاربه إلا بعد أن حسب نفسه قوياً وبعد ان كشف المختار عن أهدافه الحقيقية.

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق.

(٣) عن أبي معشر قال: (لما بعث مصعب برأس المختار إلى عبدالله بن الزبير فوضع بين يديه، قال: ما من شيء حدثنيه كعب الأحبار إلا قد رأيته، غير هذا، فانه قال لي: يقتلك شاب من ثقيف فأراني قد قتلته) العقد الفريد ٥/ ١٥٤ أو لم يعلم أنه سيقتل بيد الحجاج أو على حد تعبير محمد بن سيرين لما بلغه الحديث (لم يعلم ابن الزبير إن أبا محمد قد خبيء له) المصدر السابق ويبدو اهتمام ابن الزبير بأقوال وتكهنات كعب الأحبار وأمثاله واضحاً. . . .

ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرضاة والأبواب دونه مغلّقة. القه الليله إن شئت وأنا معك. . .

فقال لي: فإني فاعل إذا صلينا العَتَمة أتيناه، واتّحدنا الحِجْر)[1].

وقد سر ابن الزبير بذلك وقابله وأخذ بيده فصافحه ورحّب به فسأله عن حاله وأهل بيته، ثم قال له المختار بعد فترة صمت ليست طويلة وبعد أن حمد الله وأثنى عليه: (. .إنه لا خير في الإكثار من المنطق ولا في التقصير عن الحاجة. إني قد جئتك لأبايعك على ألا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون في أول من تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك.

فقال له ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ،

فقال: وشر غلماني أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، ما لي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك، لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال.

قال عباس بن سهل: فالتقمت أذن ابن الزبير فقلت له: اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك.

فقال له ابن الزبير: فإن لك ما سألته، فبسط يده فبايعه، ومكث معه حتى شاهد الحصار الأول)[2].

إدانة لابن الزبير لا للمختار

وإذا صحت رواية ابن سهل الذي يبدو من كلامه أنه كان مقرباً من ابن الزبير، فإن ما ورد فيها يشكل إدانة لابن الزبير لا للمختار، فالمختار لم يؤمر بمبايعة إمام من أهل البيت وهو السجاد عليه السلام الذي لم يكن يواجه دولة يزيد سياسياً أو عسكرياً. كما أنه لم يبايع يزيد وكان ممن يريدون المشاركة مع مسلم بن عقيل والحسين عليه السلام للإطاحة بيزيد لو لم تفشل انتفاضة الكوفة ويسجن عند مقدم الإمام الحسين عليه السلام وإذ أن ابن الزبير تصدى لطلب البيعة، فإن المختار وافق على مبايعته على شرط أن يكون شريكاً في الحكم.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٠٣ وابن الأثير ٣/ ٤٩٣ - ٤٩٤.

(٢) الطبري ٣/ ٤٠٣ وابن الأثير ٣/ ٤٩٤.

وإذا ما كان ابن الزبير قد أضمر الغذر منذ البداية حتى يقوى ويشتد أمره ليكون هو الشخص الذي باع دينه وفرّط فيه لا المختار الذي اشترط عليه أن لا يقضي شيئاً دونه، والذي لم ينقلب عليه إلا بعد أن قلب هذا ظهر المجن لآل البيت وأظهر كراهيته لهم وموالاته لعثمان وكان أموياً بلباس حجازي زبيري. ولعله كان يريد منه تصحيح موقفه من آل البيت عليهم السلام والموافقة على الانتقام من قتلةِ الحسين وأصحابه خصوصاً وأنه يعلم حق العلم أنه يسعى للثأر لهم ويجعل من ذلك الهدف الرئيسي في حياته.

كان المختار من أشد المدافعين عن البيت الحرام في حصار مكة الأول

وفي حصار مكة الأول دويت حكايات عديدة عن استبسال المختار في الدفاع عن بيت الله الكريم، فعند اشتداد الحصار ومقتل بعض المدافعين عن البيت أخذ ينادي (يا أهل الإسلام إليّ إليّ. أنا ابن أبي عبيد بن مسعود، وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقدمين غير المحجمين، إنيَّ يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار، فحمي الناس يومئذٍ وأبلى وقاتل قتالاً حسناً.

ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحصار حتى كان يوم أحرق البيت، سنة أربع وستين، فقاتل المختار يومئذ في عصابه معه نحو من ثلاثمائة أحسنَ قتال قاتله أحد من الناس، إن كان ليقاتل حتى يتبلد، ثم يجلس ويحيط به أصحابه، فإذا استراح نهض فقاتل، فما كان يتوجه نحو طائفة من أهل الشام إلا ضاربهم حتى يكشفهم. . .

فما كان يومئذ رجل أحسن بلاءً من المختار)[١].

وقد بايع ابن الزبير على الموت دفاعاً عن الكعبة كما فعل آخرون معه، إلى أن هلك يزيد وفر أهل الشام من مكة[٢]، وبعد فرار أهل الشام لم يجد المختار في ابن

---

(١) الطبري ٣/ ٤٠٣ وابن الأثير ٣/ ٤٩٤ وذكرانه (كان أشد الناس على أهل الشام).

(٢) روى أبو عبيد عن الحجاج عن أبي معشر قال: (حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير، قال: غلب حصين بن نمير على مكة كلها إلا الحجر، فوالله إني لجالس عنده ومعه نفر من القرشيين: عبدالله بن مطيع، والمختار بن أبي عبيد، والمسور بن مخرمة، والمنذر بن الزبير، إذ هبت رويحه، فقال المختار: والله أني لأرى في هذه الرويحة النصر، فاحملوا عليهم، فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة، وقتل المختار رجلاً، وقتل ابن مطيع رجلاً. ثم جاءنا على إثر ذلك موت يزيد بعد حريق الكعبة بإحدى عشرة ليلة. .) العقد الفريد ٥/ ١٤٢.

الزبير قائداً كيساً جديراً بأن يتولى أمور المسلمين، وكان موقفه من حصين بن نمير الذي عرض عليه أن يذهب معه إلى الشام فيبايعه ويبايعه أهل الشام هناك، قد لفت أنظار المختار، وكان جوابه الذي لا يدل على فطنة ووعي قد أثبت له أنه أمام إنسان عصبي المزاج لا يتمتع بأقل قدر من الكياسة وبعد النظر، وإنه جدير بالفشل والسقوط السريع، وإن كان يبدو في تلك اللحظات وكأنه يجني ثمار نصر على يزيد الذي مات حتف أنفه، وحتى طريقة الجواب كانت جديرة بأن تجعله يعتقد بأنه إنسان لا يصلح لما كان يطمح إليه بل حتى لأقل منه.

ابن الزبير: شعارات أموية المضمون عثمانية الهوى

وكان تخلي ابن الزبير السريع عن شعاراته السابقة للمطالبة بدماء الحسين عليه السلام وأهل المدينة ورفعه شعارات جديدة، أموية المضمون، عثمانية اللباس والهوى، قد جعل الناس تدرك ـ وربما كان المختار أحدهم ـ إن هناك نيّة مصممة على العودة إلى نهج الانحراف الأول الذي بدأ في عهد عثمان بشكل واضح ووضع معاوية له قواعد وأسس ومناهج. وإن الشيء الوحيد الذي كان يستهويه هو الرئاسة وطلب الملك، إذ (كان عبد الله بن الزبير قبل موت يزيد يدعو الناس إلى طلب ثأر الحسين وأصحابه ويغريهم بيزيد، ويوثّبهم عليه، فلما مات يزيد أعرض عن ذلك القول، وبان أنه يطلب الملك لنفسه لا للثأر.

وذكر المدائني عن رجاله إن المختار لما قدم على عبد الله بن الزبير لم ير عنده ما يريد فقال:

ذو مخاريقَ وذو مندوحةٍ ... وركابي حيث وجهت ذلُلْ
لا تبيتنْ منزلًا تكرهه ... وإذا ذلّت بك النعل فذلّ

فخرج المختار من مكة متوجهاً إلى الكوفة..)[1].

وقد رأينا عند الحديث عن سيرة ابن الزبير، كيف أنه حاول رفع قضية استشهاد الحسين عليه السلام واستغلالها أمام جمهور المسلمين في مكة.

---

(١) المجلسي ٤٥/ ١٥٥.

لم يجد عنده توجهاً صحيحاً فتركه

فالمختار لم ير عنده توجهاً صحيحاً لأهل البيت أو رغبة فيهم، بل وجد منه عداوة مقية لهم، وهكذا تركه ولم يتركه لأنه لم يستعمله أو يشركه في أمره ولم يحصل منه على امتيازات ومكاسب شخصية.

إن هذا أقرب تفسير يمكن أن نوضح به موقف المختار من ابن الزبير بعد أن أيس منه وبعد أن رأى انقلابه وتراجعه عن الأهداف التي نادى بها من قبل. وهو تفسير إضافة للحقائق التاريخية التي تدعمه يتوافق مع شخصية المختار ومزاجه وانحيازه المعلن لأهل البيت عليهم السلام.

دراسة حال الكوفة في ظل المتغيرات الجديدة

أخذ المختار يسأل عن حال الناس في الكوفة وهيئتهم قبل أن يقرر العودة إليها ثانية، وقد اختمرت في رأسه فكرة الثأر الآن وأصبحت هدفاً وحيداً رأى أن يكرس له بقية حياته، حتى إذا فعل ذلك لم يكبر عليه زوال الدنيا ولم يحفل بالموت إذا أتى، على حدّ تعبيره.

ومن المؤكد أنه كان يعلم بتوجهات أهل الكوفة وميولهم منذ البداية وكان يعلم أنهم قد غلبوا على أمرهم وأجبروا على الاستجابة لدولة الظلم والخضوع لها، حتى إنها جعلت منهم أداة لتنفيذ جريمتها في كربلاء. رغم أنهم كانوا على وشك النهوض والثورة بوجهها مع الإمام الحسين عليه السلام.

ولم تكن هذه الجريمة لتمر دون أن يراجع أهل الكوفة أنفسهم ويحاسبوها ويعلنوا ندمهم السريع في أعقابها مباشرة واستعدادهم للتفكير عنها ولو تقبل أنفسهم، كما مر بنا في حالة التوابين الذين أقدموا بجرأة رغم قلة عددهم على مواجهة الجيش الأموي الذي كان يتفوق عُدداً وعَدداً ونالوا منه وأوقعوا خسائر جسيمة في صفوفه رغم أنهم استشهدوا في النهاية ولم يعد منهم إلا عدد قليل واصل المسيرة مع المختار فيما بعد.

وكان الوقت الذي ظهر فيه المختار يشير إلى عدم وجود قيادة حقيقية متمكنة تستطيع جمع المسلمين تحت مظلتها رغم وجود قيادتين طموحتين أرادتا جذب الناس إليهما وإن بدتا في الواقع تعملان لصالح نفسيهما وليس لصالح المسلمين وإن رفعتا بعض الشعارات البراقة، وخصوصاً قيادة ابن الزبير الذي بدا زاهداً مترهباً مع أن

طموحاته لم تكن تختلف عن طموحات من سبقوه وعاصروه من الحكام الأمويين...

لم يجد المختار نفسه مضطراً للسكوت أو الاستسلام إذا ما أتيحت له فرصة مواجهة هاتين القيادتين غير الشرعيتين، قيادة ابن الزبير التي تخلت عن أهدافها وشعاراتها الأولى وقيادة مروان وابنه عبد الملك التي لم تكلف نفسها حتى عناء التباكي على مصلحة المسلمين ورفعة الإسلام. بل وجد أن من واجبه أن يدعم القيادة الحقيقية المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام وإن لم يكلفه أحد في الظاهر للقيام بمجابهة عسكرية أو سياسية مع أي من القيادتين للظرف الدقيق الذي كان يمر به الإمام علي بن الحسين عليه السلام ومواليه وللمهمات الدقيقة التي أخذ على عاتقه القيام بها لإنقاذ الإسلام واستمرار ديمومته وبقائه بعيداً عن الانحراف والتزوير.

المختار في الكوفة ثانية: مرحلة جديدة من العمل

وبقدوم المختار إلى الكوفة بدأت مرحلة جديدة من العمل، على أنها مرحلة لم يقتصر العمل فيها على المختار وحده، فقد سبقه إلى العمل سليمان بن صرد وجماعته، وقد قدم الكوفة أيضاً عبد الله بن يزيد الأنصاري عاملًا على الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير.

وإذ أن المختار كان شخصية مؤثرة وعلى دراية كبيرة بأساليب الحرب والسياسة وكان داهية حازماً شجاعاً حذراً، وقد وصفه عدوّه العتيد ابن الزبير، وقد شاهده يطوف البيت قائلًا: (فوالله لهو أحذر من ذئب قد أطافت به السباع)[1]، فقد حاول التصدي لأعدائه بمختلف الأساليب التي فوجئوا بها والتي لم يكونوا قد حسبوا حساباً لها من قبل، واستمال إليه عدداً كبيراً من الناس وأوشك أن يتغلب ويظهر أمره بُعيد مقدم عبد الله بن الزبير.

لا بد من الاستعداد قبل المواجهة

ويبدو أن عبد الله بن يزيد قد راقت له فكرة تصدي سليمان بن صرد وأصحابه لابن زياد للأسباب التي ذكرناها من قبل، وقد خرج سليمان وأصحابه ظاهرين

(١) الطبري ٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

ينشرون السلاح وواجهوا جيش ابن زياد تلك المواجهة الباسلة التي انتهت باستشهاد معظمهم، وعودة أعداد قليلة منهم إلى الكوفة انضموا للمختار فيما بعد.

ومن خلال تصريحات المختار في رحلة العودة إلى الكوفة نجد تصميماً على مواجهة قتلة الحسين واستئصالهم، رغم بعض (التحذيرات والنصائح) التي تلقاها والتي دعته إلى عدم تعكير الجو الهادىء، الذي لم يكن هادئاً إلا في الظاهر ولبعض الوقت.

قال ملحاً إلى مهمته مع أهل الكوفة: (. . . أنا أجمعهم على مر الحق، وأنفي بهم ركبان الباطل، وأقتل بهم كل جبار عنيد، إني لا أدعو إلى الفتنة، وإنما أدعو إلى الهدى والجماعة.

أنا الذي أحسن رعايتها، وأبلغ نهايتها.

ابشروا بالنصر والفلج، أتاكم ما تحبون.

بلّغ أهل مسجدكم هذا عني أنهم قوم أخذ الله ميثاقهم على طاعته، يقتلون المحلّين ويطلبون بدماء أولاد النبيّين، ويهديهم للنور المبين.

إني قد أتيتكم بكل ما تحبون، ابشروا إني قد قدمت عليكم بما يسركم. . .)[1].

وكان خلال مسيره يدعو الناس لنصرته، وحال وصوله إلى داره في الكوفة، أخذت الناس تختلف إليه؛ وقد صرح أمامهم بأن محمد بن علي (ابن الحنفية) بعثه إليهم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً وأمره بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء[2] وقد بايعه العديدون في اليوم الأول الذي وصل فيه الكوفة. . .

مقرّب من أهل البيت.. قريب من أهل الكوفة

وإذ أن المختار كان شخصية مرموقة، وقد عرف عنه أنه كان يجالس محمد بن الحنفية ويأخذ عنه فإن دعوته أنه ممثله ومبعوثه ووزيره قد وجدت لها صدى عند أهل الكوفة،.؛ ولسنا نعتقد أن أولئك الذين بايعوه والتفوا حوله كانوا لا يصدقون ادعاءه بخصوص إرسال ابن الحنفية إياه إليهم، وهو ما لم ينفه ابن المنفية بعد ذلك ولم يؤيده

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

صراحة، ومرد ذلك كما يبدو حذره من الوضع السياسي المتقلب. ولعل موقف ابن الزبير المتشدد منه وكرهه البالغ له ولأهل البيت عليهم السلام عموماً يرجع إلى أن ابن الزبير يجد فيه معارضاً كبيراً لحكمه كما كان يجد في ابن عباس ذلك، حتى إن يزيد قبل وفاته كان يعتقد أن رفض ابن عباس لابن الزبير مرده لاعتقاده بضرورة تمسكه ببيعته، وكان ابن الزبير يجد في ابن الحنفية شخصاً ذا أثر في النيل منه ومن سلطته المتنامية خصوصاً إذا ما التفت حوله أشخاص مثل المختار.

هل يجهل أهل الكوفة إمام المسلمين الحقيقي

وليس من المعقول أن أهل الكوفة ومنهم شيعة موالون لأهل البيت، لا يدركون من هو الإمام الحقيقي بعد الحسين عليه السلام، غير أن إشارة واحدة من أي شخص من أولاد أمير المؤمنين تجگعلهم يندفعون تحت وطأة شعورهم بالذنب ورغبتهم في عودة العدالة التي شهدوها في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمواجهة أعدائهم وقَتَلَتِهم ومناوئيهم.

استمالة أصحاب سليمان بن صرد

وقد استمال المختار بعض أصحاب سليمان بن صرد، الذي كان يعمل وإياه لهدف واحد، إلا أنهما كما يبدو كانا يختلفان في طريقة الأداء والعمل.

ويقال إنه بعث يقول لهم: (إني قد جئتكم من قبل ولي الأمر، ومعدن الفضل، ووصي الوصي والإمام المهدي بأمر فيه الشفاء وكشف الغطاء، وقتل الأعداء وتمام النعماء. إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه إنما هو عَشَمه من العشم وحفشٌ بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور، ولا له علم بالحروب، إنما يريدان يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم. إني إنما أنا أعمل على مثال قد مثل لي، وأمر قد بُيِّنَ لي، فيه عز وليكم وقتل عدوكم وشفاء صدوركم، فاسمعوا مني قولي وأطيعوا أمري، ثم ابشروا وتباشروا فأني لكم بكل ما تأملون خير زعيم)[1].

وإذا ما صح أن هذا ما قاله المختار، فإنه يحتمل تأويلات عديدة، إذ لم يصرح فيه باسم الإمام الذي تلقى منه الأوامر والتوجيهات والأخبار، وقد دل بكلامه هذا

(١) المصدر السابق.

على ثقة كبيرة بالنفس ويقين كبير بالنصر، وقد صحت توقعاته بخصوص خروج سليمان ومواجهته الانتحارية للجيش الأموي الذي كان يتفوق عليه كثيراً، والذي قد يشجع ذلك الجيش على التمادي وخصوصاً مع أهل الكوفة إذا ما حقق (نصراً) على سليمان.

الطابور الخفي مستعد دائماً للوقوف إلى جانب دولة الظلم

إن الطابور الخفي المستعد للوقوف إلى جانب دولة الظلم ومساعدتها موجود في الكوفة، وقد سبق أن قدّم خدمات كبيرة لابن زياد عندما استخدم لقتل الحسين تلك القتلة الشنيعة، كما أن أفراد هذا الطابور هم المطلوبون وهم المستهدفون بالعقوبة والحساب.

إن أياً من أفراد جيش ابن زياد، بما فيهم قائد هذا الجيش عمر بن سعد والقادة الآخرون، لم يحقق مكسباً شخصياً كبيراً يتناسب وعظم الجريمة التي قام بها، كما أن بعض من اندفعوا بشكل استثنائي ضد الحسين قد لقوا ما يستحقونه حالاً، وقد أفردنا بحثاً مستقلًا عن حالة هؤلاء في هذا الكتاب.

ومن الممكن في ظل دولة الظلم التي لا تعرف إلا قانونها ومصالحها أن يكرر هؤلاء عملهم الإجرامي بوجه أي داعية حقيقي للإسلام ويكونوا عوناً للظلمة ويندفعوا إلى أبعد غاية إذا ما مرت جريمتهم الأولى دون عقاب أو ردع، مع أن العقاب الحقيقي لن يكون هنا على أية حال، بل سيكون يوم الحساب، عندما يواجهون رسول الله ﷺ وأوصياءه.

لا بد من ردع المعتدين حتى لا يتكرر العدوان

وإذ أن هذه حالة مرضية خطيرة، بل سرطاناً ينمو في جسم الأمة وعلى حساب صحتها بل حياتها، فإن ردعاً من قبل الأمة لهؤلاء وأمثالهم، سيجعل الآخرين يفكرون كثيراً قبل أن يندفعوا في أحضان ظالمين جدد وينفذوا مخططاتهم ويكونوا أداة لجرائمهم وانتهاكاتهم ضد الإسلام وضد الأمة المسلمة.

ماذا حقق الذين قتلوا الإمام الحسين لأنفسهم سوى القتل؟

وماذا سيحقق كل من يعني ظالماً على ظلمه، إنه حتى إذا ما نجا من كل مصير مؤسف في هذه الدنيا، فإنه لن ينال سوى فتات مائدة الظالم، ولن يكون أفضل من

الكلب أو القرد أو القط الذي يلاعبه وقد ينبذه في أي وقت مستبدلًا إياه بكلب أو بقرد أو بقط آخر.

ومن هنا أدرك المختار ضرورة معاقبة هؤلاء الذين شاركوا بقتل الحسين عليه السلام، ومن هنا بارك الإمام زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية، بل وجميع بني هاشم من الرجال والنساء خطوة المختار وأثنوا عليه عندما أرسل رؤوس قادة الجريمة بعد أن انتصر على جيوشهم بمعارك ملحمية قلَّ أن يُرى لها نظيراً... وسنرى كيف كان رد فعلهم في نهاية هذا البحث، بعد أن استطاع القضاء على أغلبية رؤوس الجريمة والمشاركين فيها.

قتلة الحسين عليه السلام: أدركوا دوافع المختار

وقد أدرك هؤلاء، عندما بقي المختار في الكوفة ولم يذهب مع سليمان، أنهم كانوا مستهدفين بالدرجة الأولى وإنهم بمواجهة خطر حقيقي سيؤدي إلى إبادتهم والقضاء عليهم وإنهم أمام عدو حاذق يعرف كيف يتصرف وكيف يوجّه الضربات المميتة.

وإذ أن المختار كان في المراحل الأولى من العمل، ولم يتسن له الوقت الكافي لجمع أنصاره وأعوانه، ذهب قسم من قتلة الحسين ومنهم عمر بن سعد وشبث بن ربعي ويزيد بن الحارث من دويم لعبد الله بن يزيد، عامل ابن الزبير على الكوفة ومساعده إبراهيم بن محمد بن طلحة لتحريضهما على المختار باعتبار أنه أشد عليهم من سليمان الذي خرج لقتال عدوهم المشترك وإضعافه، وإنه يريد أن يثب عليهم واقترحوا عليهما وضعه في السجن حتى تستتب الأمور لصالح ابن الزبير.

وهنا نلاحظ الانتقال المفاجيء من ولاء الدولة الأموية إلى ولاء الدولة الزبيرية، فلم يكن يهم هؤلاء شخصية الحاكم بقدر ما كانت تهمهم سلامتهم ومصالحهم الشخصية، وهو أمر نراه يتكرر لدى أعوان الظلمة من الانتهازيين والنفعيين الذين لا يحملون قيماً حقيقية يدافعون عنها.

وشوا به وأدخلوه السجن خوفاً منه

وقد أحاط عامل ابن الزبير وأعوانه بالمختار وأدخلوه السجن؛ وقد أبدى المختار أنفة وإباء عند اعتقاله ومكوثه في السجن، حيث كان يؤكد عزمه وإصراره على الأخذ بثأر الحسين عليه السلام، وقد أخذ عليه بعض المؤرخين كلماته المسجوعة

التي قالها في السجن والتي كانت تبدو أمامهم لغزاً، إذ كيف له بالتيقن من قتل قَتَلةِ الحسين، الأمر الذي تم فعلًا بعد ذلك، وقد نسبوا إليه الشعوذة والدجل، ولم يأخذوا بعين الاعتبار اليقين الذي رسخ في نفسه، في غمرة حبه وانحيازه لأهل البيت عليهم السلام، وعلى أنه قادر فعلًا على إنجاز ما وَعَدَ به لوضوح قضية الحسين، وللشكل العدواني الذي تم به قتلهُ وقتل أصحابه عليه السلام في فاجعة كربلاء، ورأى البعض في كلماته نوعاً من سجع الكهنة والعرافين والمتبنّين[1]، مع أن طريقته تلك ربما كان قد عمد إليها ليؤكد يقينه في عدالة القضية التي حملها، وعزمه على إنجازها. ولعله كان يريد بذلك إيجاد نوع من الخطاب المؤثر على الناس في مواجهة الأساليب الدعائية والإعلامية التي عمدت إليها الدولة كالقصص واختراع الحديث والأكاذيب. وربما أراد لخطابه أن يكون غير تقليدي وغير مألوف لبث الثقة في نفوس عامة الناس ومنهم الذين اعتادوا أن ينساقوا وراء كبرائهم وأشرافهم ومتنفذيهم دون وعي أو إرادة، وقد نجح بأسلوبه هذا إلى حد بعيد في استمالة الناس وبث الثقة في نفوسهم، خصوصاً وإن المعروف عنه أنه من المقربين من محمد بن الحنفية.

أسلوب خطابي مؤثر يخيف الأعداء

ولو أخذنا أقواله كأسلوب من أساليب الخطابة غير المألوفة لا غير وجردناه مما أراد البعض إلصاقه به، لرأينا أنه نوع من الخطاب ركّز عليه المختار بعد أن رأى نجاحه وتأثيره على بعض الناس، وإنه لا يشير إلى أنه يرى أموراً غيبية ستحدث بقدر ما كان متيقناً أنه سيرى هذه الأمور ستحدث لعدالة القضية التي وعد أن يكون في مقدمة السائرين لحملها مهما كان الثمن، حتى وإن كان قتله هو ذلك الثمن.

وهذا نموذج لأقواله أمام جماعة من زائريه في السجن وهو مقيّد:

(. . .أما وربِّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار ومهند بتار، في جموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار. حتى إذا أقمت عمود

---

(١) مع ان بعض أعدائه ربما وضعوا على لسانه بعض تلك الأقاويل التي نسبت إليه والغرض من ذلك واضح، كما هو معلوم.

الدين، ورأبت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النبيّين، ولم يكبر عليَّ زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى. .)[1].

إن قوله هذا إذا ما جردناه من المؤثرات والمحسنات اللفظية والخطابية لا يتعدى هذه الكلمات: (والله لأقتلن كل جبار بكل رمح وسيف، حتى إذا فعلت ذلك وأدركت بالثأر هان علي الموت. .)، أو من قبيل هذا المعنى.

غير أنه إذا ما قالها بأسلوب عادي، فإنه ربما لن يستطيع أن يجعلها ذات وقع قوي في نفوس السامعين، وهو صاحب قضية يريد اللجوء إلى كل الأساليب لتحشيدها في معركته. . وكما أنه يسعى للجوء إلى السيف ويريد لضرباته أن تكون قوية مؤثرة فإنه يلجأ إلى القلم والكلمة والأساليب الخطابية المؤثرة التي كان يرى وقعها الأكيد على الناس.

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن سليمان كان يدرك أن المختار لم يكن السبب في تثبيط الناس عنه، فهما يسعيان لقضية واحدة غير أن أسلوبيهما كانا مختلفين، وقد جعله ذلك يقول لمن زعم له ذلك: (وهب أن ذلك كان، فأقام عنا عشرة آلاف. .)[2] وكان يشير إلى من بايعوه ثم نكصوا عنه، ويجعل قيام المختار بتخذيل الناس مجرد فرض. . مع أن أعداءهما أرادا جعل ذلك حقيقة من الحقائق.

توقعات مدروسة

وعندما عاد بقية أصحاب سليمان بن صرد من التوابين إلى الكوفة بعد أن استشهد بقية أصحابهم في عين الوردة، كان المختار لا يزال في السجن.

وربما حسب المختار المدة الزمنية التي كان يقتضيها وصول سليمان وأصحابه لموقع النزال المحتمل والمدة التي يستغرقها ووصول من يتبقى منهم إلى الكوفة؛ وعلى ذلك الأساس صرح في السجن[3]. (عدّوا لغازيكم هذا أكثر من عشر، ودون

---

(١) الطبري ٣/ ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٠٩.

(٣) نحن نفترض هنا صحة الأقوال المنسوبة للمختار ونناقشها على هذا الأساس، وهي الأقوال التي أريد بها توجيه الطعون إليه واتهامه بالسحر وادعاء النبوة، مع إنها أقوال عادية صيغت بأسلوب خطابي مسجوع أريد به التأثير على السامعين.

الشهر، ثم يجيئكم نبأ هِزّ، من طعن نتر، وضرب هبر، وقتل جم وأمر رجم. فمن لها؟ أنا لها. لا تُكذَبُنّ، أنا لها)(١).

لم تكن توقعات المختار هذه تحتاج إلى براعة فائقة. وإنما كانت توقعات محسوبة، فالذين ذهبوا من أهل الكوفة بقيادة سليمان لا بد أن يواجهوا جيش الأمويين، ولا بد أن تحصل مواجهة عنيفة يقتل فيها العديدون من الطرفين. أما بطل المواجهة المقبل الذي سينتصر على عدوه، فهو هوَ المختار الذي عزم على ذلك وأعدَّ له نفسه منذ الآن.

التوابون: خميرة الأنصار للأخذ بالثأر

وهكذا كتب وهو في السجن إلى قائد التوابين العائد من عين الوردة، رفاعة بن شداد: (. . أما بعد، فمرحباً بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا، ورضيَ انصرافهم حين قفلوا. أما وربِّ البنيّة التي بنى، ما خطا خطٍ منكم خطوة، ولا رَتَا رتوه، إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا.

إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفاه الله، فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون. إني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وأمير الجيش، وقاتل الجبارين والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتاد، فأعدّوا واستعدوا، وأبشروا واستبشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلّين. . .)(٢).

وهي رسالة من شأنها أن تطيّب خواطر العائدين المنكسرين الذين واجهوا عدوّهم تلك المواجهة الانتحارية الباسلة، فأبيدوا ولم يبق منهم إلا هذه القلة العائدة.

ولعلهم، ومَن بقي من التوابين الذين لم يلتحقوا بسليمان، حينما يطمئنوا إلى وجود قيادة حاذقة قوية مثل قيادة المختار، سيفكرون بالالتحاق به حينما يقرر الوثوب بوجه دولتي الظلم القائمتين وسيكونون نواة لجيش قوي جدير بالمواجهة المقبلة.

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١.

أية سعادة سيشعر بها أولئك العائدون عندما يجدون أمامهم قيادة حازمة تفكر تفكيراً عملياً واعياً وتدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلّين.

وهي دعوة ستجد صداها أيضاً بين طبقة مستضعفة واسعة، هي طبقة الموالي والعبيد الذين دفعهم الإسلام وأراد تحريرهم من قيود الفقر والتفرقة والعبودية إلا أنهم رزحوا في ظل الدولة الأموية تحت العديد من القيود التي أعدتها لهم هذه الدولة، وكانت دعوة المختار لإنصافهم والدفع عنهم جديرة بجعلهم يقفون في صفه، كما فعلوا، وأبلوا بلاء حسناً في المعارك التي خاضها ضد أعدائه.

ولا يوجد في رسالته ما يدل على أنه كان يحاول أن يوحي إليهم أن يعلم الغيب، كما يروج لذلك الناقمون عليه من الحزبين الأموي والزبيري مما انتشر بعد ذلك بين أوساط الناس، ولا يوجد فيها إلا الحماس والثقة بعدالة قضيته، وهو ما أراد أن ينقله إلى الآخرين.

تكاتف القتلة في الآراء والمواقف

وربما عاب كثيرون على المختار اندفاعه للأخذ بالثأر والكيفية التي قام بها بعد ذلك، إن أن هؤلاء رأوا أن قَتَلة الحسين وأصحابه عليهم السلام إنما نفذوا أمراً واجباً كان من المفروض عليهم تنفيذه استجابة لرغبة (وليّ أمرهم) و(خليفتهم) الواجب عليهم طاعته.. وإنهم كانوا بذلك يتقربون إلى الله بهذه الطاعة العمياء التي روج لها فقهاء الدولة وقصاصوها ومحدثوها ومؤولوا الكتاب وقادتها ووجهاؤها ودعوا الناس إلى التمسك بطاعة (الخليفة) لضمان رضا الله، دون النظر إلى كون الخليفة فاسقاً أو زنديقاً أو منحرفاً أو شاذاً، فهذا لا يطعن في سلامة حكمه وولايته كما رأينا فيما مر بنا في غضون هذا الكتاب.

ولذا فإنهم عدّوا المختار متجاوزاً ومعتدياً على هؤلاء الذين أطاعوا إمامهم، وإنه قام بقتلهم دون ذنب جنوه سوى تلك الطاعة للحفاظ على الجماعة.!

وقد رأينا كيف عبر أحد هؤلاء الذين شاركوا بقتل الحسين عن ذلك بعد فترة طويلة من المجزرة، معتبراً قيامه بتنفيذ أوامر يزيد وفاء منه لسيده المفروضة عليه طاعته وطلب من الله أن يثيبه على ذلك الوفاء قائلاً: (يا رب إنا قد وفينا، فلا تجعلنا يا

رب كمن عذر)[1] وقال لمن عاتبه عن فعلته الشريرة.. (إني لم أكسب لنفسي شراً ولكني كسبت لها خيراً)[2].

الهدف النهائي ليس مجرد الثأر من قتلة الحسين عليه السلام

لم يكن هدف المختار كما بدا من أقواله ورسائله مجرد أخذ الثأر من قتلة الحسين، وإنما كان يمهد لإرجاع الحكم لآل البيت عليهم السلام، وقد رأى أن مما يساعده في ذلك هو الدعوة للأخذ بثأرهم.. فليس من المعقول أن تنجح دعوته إليهم في الوقت الذي لا يزال قَتَلَتهُم يسرعون ويمرحون بين الناس. ولم يبد في أقواله بأي حال من الأحوال إنه كان يتنبأ أو يدعو إلى نفسه أو يتبنى دعوة خارجة عن الإسلام؛ وكل ما في الأمر أنه كان قد تطوع لجعل الثأر من قتلة الحسين والدعوة لآل البيت عليهم السلام بعد ذلك هدفه الرئيسي في هذه الحياة وتزعُّمَ الناقمين على حكام الجور الذين كشفوا عن خططهم ونواياهم الشريرة بمواجهة الإسلام للقضاء عليه ودثره إلى الأبد.

كتب تشجع العائدين وتشد إزرهم

وقد كتب المختار ثانية ـ وهو في السجن ـ للعائدين من أصحاب سليمان بن صرد يهوّن عليهم ما أصابهم في عين الوردة ويعدهم النصر على عدوهم، وقد جاء في كتابه: (أما بعد، فإن الله أعظم لكم الأجر، وحطَّ عنكم الوزر، بمفارقة القاسطين، وجهاد المحلّين. إنكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة، إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف.

فأبشروا فأني لو خرجت إليكم قد جردت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله، فجعلتهم بإذن الله ركاماً، وقتلتهم فذاً وتوأماً. فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى، ولا يبعد الله إلا من عصى أو أبى، والسلام يا أهل الهدى)[3].

وقد لقيت رسالته استجابة وقبولًا لدى العائدين بعد أن سرّبت إليهم، وأبدوا

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٢٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٤٣٣.

استعدادهم لإخراجه من السجن بالقوة، الأمر الذي سرّه؛ غير أنه طلب إليهم التريث وأخبرهم أنه سيخرج في أيامه تلك.

وكان خبر اعتقاله قد وصل عبد الله بن عمر بن الخطاب، زوج أخته صفية. وقد توسط هذا لإطلاق سراحه لدى والي الكوفة ومساعده اللذين حاولا أخذ ضمانات منه أن لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان.

وعند خروجه قوي أمره واشتد وأخذت الناس تختلف إليه وتبايعه وقد كثر أصحابه ومؤيدوه.

وربما أدرك ابن الزبير أن عامله على الكوفة ومساعده لم يكونا مؤهلين للوقوف بوجه المختار، فبدا له أن يعزلهما وعين بدلهما عبد الله بن مطيع، وقد حسب أنه قادر على التصدي له وقهره.

ومن الطريف أن إبراهيم بن محمد بن طلحة مساعد عبد الله بن يزيد عامل ابن الزبير على الكوفة، كسر على ابن الزبير الخراج عند خروجه من الكوفة، وعندما هدّده ابن الزبير قال: إنما كانت فتنة، فكف عنه ولم يطالبه بالأموال التي سرقها.

عبد الله بن مطيع.. نسخة باهتة لعبيد الله بن زياد

ويبدو أن عبد الله بن مطيع رغم ما كان يتمتع به من الحزم والشجاعة، كان يفتقر إلى الكياسة والذكاء اللازمين لمواجهة عدوه المختار، رغم أنه وضع نصب عينيه أن يجعل الكوفة تستجيب كلها لابن الزبير الذي طلع عليهم بلباس أموي عثماني مستعار.

وقد خلت خطبته الأولى التي أرادها أن تبدو مؤثرة ومخيفة كخطب زياد بن أبية وعبيد الله ابنه، من كل تقدير سليم لواقع الكوفة وأهلها مع أنه استعار كلمات عديدة من خطب الطاغيتين خلال حكمهما الكوفة. قال لهم فيها:

(. . .إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم وإلّا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضا منكم، ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا على أيدي سفهائكم، وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني، فوالله لأوقعنّ بالسقيم العامي، ولأقيمن درء الأصعر المرتاب. .)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٤٣٥.

ومع أنه حاول في بداية هذه الخطبة التلويح بالمال، إلا أن ما قاله بخصوص وصية عمر وسيرة عثمان أثار مستمعيه، وقد قال له أحدهم: (..أما أمر ابن الزبير إياك ألا تحمل فضل فيئنا عنا إلا برضانا، فإنا نشهدك أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا، وألّا يقسّم إلا فينا، وألا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا، فإنها إنما كانت أثَرةً وهوى، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرّاً..)[1].

تراجع في الحال: «..نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها..»

وقد أيد بقية المستمعين هذا المعترض قائلين إنه صدق وبرّ وإن رأيهم مثل رأيه وقولهم مثل قوله، مما جعل ابن مطيع يتراجع حالّا ويقول لهم:

(..نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها..)[2]، وهو الأمر الذي أضعف أمره منذ البداية رغم تهديداته المبرقة المرعدة، وقوّى موقف أعدائه الموالين لأهل البيت والذين كان يقودهم المختار في الكوفة.

وإذ أن ذلك الموقف أصاب ابن مطيع بإحباط شديد ـ كما بدا ـ فإن بعض الموالين للنظام الزبيري أشار عليه بخطة لاستدراج المختار إلى القصر وحبسه حتى تستتبّ الأمور لصالح ذلك النظام وخوفه مغبة تركه طليقاً يجمع الناس حوله للوثوب بالمصر، إلا أن أحد رسولَي ابن مطيع للمختار حذّره من الذهاب، فلم يذهب.

تحديد تاريخ الثورة ـ محمد بن الحنفية لا ينفي ادعاءات المختار

وقد حدد المختار شهر المحرم من سنة ست وستين تاريخاً لثورته في الكوفة، إلا أن بعض مؤيديه شكّوا في أن محمداً ابن الحنفية قد أرسله إليهم، وعزموا على الذهاب إليه للاستفسار منه عن ذلك، وقد أخبروه بما جاءوا من أجله، وتم الأمر بينه وبينهم سراً، وكان مما قاله له أحدهم: (..أما بعد، فإنكم أهل بيت خصكم الله بالفضيلة، وشرفكم بالنبوة، وعظّم حقكم على هذه الأمة، فلا يجهل حقكم إلا مجنون الرأي، مخسوس النصيب، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه، عظمت مصيبة

(١) و(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٣٥.

اختصصتم بها، بعد ما عم بها المسلمون، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد يزعم لنا إنه قد جاءنا من تلقائكم، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ والطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، فبايعناه على ذلك. ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه، وندبنا له، فإن أمرتنا باتباعه ابتعناه، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه..)[1].

وكان جوابه لهم إشارة واضحة إلى أنه يؤيد ما كان المختار يدعو إليه، وإن كانت تعفيه من مسؤولية تكليفه المباشر بذلك، وربما أراد بذلك اجتناب رد الفعل الذي لا بد أن يكون شديداً من قبل الفئتين المتنافستين على حكم المسلمين في ذلك الوقت إذا ما بدا لهم أن يدققوا بكلماته ويحاسبوه عليها، وهو أمر متوقع في ذلك الحين.

قال لهم: (..أما ما ذكرتم مما خصّصنا الله به من فضل، فإن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فللّه الحمد. وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بالحسين، فإنّ ذلك كان في الذكر الحكيم، وهي ملحمة كتبت عليه، وكرامة أهداها الله له، رفع بما كان منها درجات قوم عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله مفعولاً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه...)[2].

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧ وقد روى ابن نما عن والده أنه قال لهم: (قوموا بنا إل إمامي وإمامكم عليّ بن الحسين، فلما دخل ودخلوا عليه أخبر خبرهم الذين جاؤا لأجله، قال: يا عم. لو أن عبداً ذنجياً تعصب لنا أهل البيت، لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتك هذا الأمر، فاصنع ما شئت، فخرجوا وقد سمعوا كلامه وهم يقولون: إذن لنا زين العابدين عليه السلام ومحمد بن الحنفية..) البحار ٤٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.. فزين العابدين عليه السلام لم يصدر هنا أمراً صريحاً بضرورة الخروج مع المختار ولعله أوكل مثل هذه المسائل العامة لمحمد بن الحنفية الذي كان حق العلم منزلته وإنه هو ولي الدم والإمام الواجبة طاعته، فأخذ على عاتقه مهمة التصدي للدولتين القائمتين وأخذ ينسق مع المختار لاضعافهما والقضاء على أعوانهما المتحيزين إليهما تحيزاً ظاهراً ومعظمهم من قتلة الحسين عليه السلام...

(٢) وراجع البلاذري/ أنساب الأشراق ٥/ ٢٢١/ ٢٢٢ والبحار ٤٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

محمد بن الحنفية دعا أهل الكوفة لمناصرة المختار

وقد رجع أولئك النفر إلى الكوفة يخبرون الناس بموقف محمد بن الحنفية ودخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم وأخبروه بما تم بينهم وبينه وأنه أمرهم بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعاهم إليه، ثم عقدوا اجتماعاً عاماً أعلموا الناس فيه ثانية بموقف محمد بن الحنفية من حركة المختار قائلين: (. . .إنا كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ولجميع أخواننا عامة، فقدمنا على المهدي بن علي، فسألناه عن حربنا هذه، وعما دعانا إليه المختار منها، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه، فأقبلنا طيبة أنفسنا، منشرحة صدورنا، قد أذهب الله منها الشك والغل والريب، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدونا، فليبلّغ ذلك شاهدُكم غائبَكم، واستعدوا وتأهبوا. . .)[1].

وعندما استكمل للمختار أمره واجتمعت عليه الناس اقترح عليه بعض أصحابه أن يدعو إبراهيم من الأشتر للانضمام إليهم لما كان يتمتع به من مركز وصيت وقوة، وكان أبوه من المقاتلين الشجعان وقد وقف في صف أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه مع مناوئيه إلى أن استشهد أثر جرعة من السم دسها إليه أحد أعوان معاوية.

وقد نجح المختار في استمالة إبراهيم إلى جانبه، ودعاه إلى ما أجمع عليه الملأ من أهل الكوفة، إلى كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلّين والدفع عن الضعفاء.

استجابة إبراهيم بن الأشتر وانضمامه لحركة المختار

وكانت استجابة إبراهيم بن الأشتر للمختار نصراً كبيراً لحركته الشعبية المتنامية، وقد أخذ يدبر معه أمور تلك الحركة استعداداً لساعة الصفر التي جعلوا موعدها ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين.

غير أن تحرك المختار وصلت أخباره مسامع ابن مطيع فحشد قواته في أماكن حساسة من الكوفة قبل ليلة من الموعد المقرر الذي حدده المختار، وذلك ما جعله يقدّم ذلك الموعد قبل أن يفلت زمام المبادرة من يده.

---

(١) المصدر السابق.

وكانت فئة القادة والأشراف وزعماء القبائل التي استنفرها ابن زياد من قبل لمقاومة مسلم وقتال الحسين مستعدة الآن للوقوف إلى جانب القيادة الزبيرية والدفاع عنها بنفس الهمة والحماس اللذين أبدتهما من قبل عندما وقفت مع القيادة الأموية اليزيدية.

أشراف الكوفة: دائماً إلى جانب دولة الظلم

فهنا نرى أيضاً عبد الرحمن بن سعيد بن قيس وكعب بن أبي كعب الخثعمي وذحر بن قيس وشمر بن ذي الجوشن ويزيد بن الحارث بن رويم وشَبَث بن ربعي في مقدمة القادة الذين يؤازرون ابن مطيع ويقفون إلى جنبه لقتال المختار، وكانوا بدفاعهم عن ابن مطيع إنما يدافعون عن أنفسهم وامتيازاتهم التي أوشكت الآن أن تفلت من بين أيديهم وقد هالتهم دعوة المختار للمطالبة بثأر أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء، ورغم علمهم بعداوة ابن الزبير ودولته لدولة بني أمية التي دافعوا عنها من قبل، فإنهم رأوا أن وقوفهم إلى جانب هذه الدولة التي تشارك أختها بعداوتها لآل البيت وكل من يدعو إليهم، هو الضمانة الوحيدة التي تحفظ لهم حياتهم ومصالحهم، ولا يهم من يكون رأس تلك الدولة وكيف تكون توجهاته، وعساها أن تكون حتى دولة الرومان أو الفرس.. فليست المبادىء هي التي تحركهم هنا. كما لم تكن المبادىء هي التي حركتهم من قبل لمقاومة مسلم وقتال الحسين عليه السلام وقتله.

تحرك سريع في الكوفة

كان ابن مطيع قد حشد رجاله وشرطه في الجبابين والسوق والقصر لتطويق أي تحرك محتمل من قبل المختار ورجاله ولإمساك زمام المبادرة قبل أن يفلت من يده.

وقد تعرض أمير شُرطِهِ ـ إياس بن مضارب ـ مع رجاله المدججين بالسلاح لإبراهيم بن الأشتر المعروف بشجاعته، في محاولة منه لمنعه من الذهاب لزيارة المختار وألحّ على أخذه لابن مطيع ليرى فيه رأيه على حد تعبيره؛ غير أن إبراهيم حمل عليه فطعنه وصرعه وأمر أحد أصحابه فاحتز رأسه، وتفرق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع الذي بادر فعيّن ابنه ـ راشد بن إياس ـ مكان أبيه على الشرطة.

وقد أوضح إبراهيم ملابسات الموقف للمختار عند لقائه به والمسبب الذي دعاه لمقاتلة إياس وشُرَطِه وقتلِهِ، فسر المختار بذلك وأمر بإشعال النيران في الهرادي

والمناداة بشعارات الثورة: «يا منصور أمت»[1] و«يا لثارات الحسين»، ووضحا خطة من شأنها إنزال الهزيمة بقواد ابن مطيع.

يا شرطة الله انزلوا..

كانت الدولة تجند أعوانها شرطة يدافعون عن وليّ أمرهم ومثلهم الأعلى رئيس الدولة الذي يرون أنه ولي نعمتهم ومصدر رزقهم وسبب حياتهم، لأنه يدفع لهم أجورهم بسخاء... وقد اتسع اعتماده عليهم واعتمادهم عليه، وكان ارتباطهم به يفوق ارتباطهم بقبائلهم وعقيدتهم، وكانت المسألة مسألة ارتزاق وتبادل خدمات ومنافع.

مقابل شرطة الدولة، نزلت (شرطة الله)، وهي تسمية ربما كان أول من أطلقها إبراهيم بن الأشتر على المقاتلين الذين واجهوا أعوان ابن مطيع، وهم نفس المرتزقة الذين وقفوا في صف ابن زياد لمواجهة الإمام الحسين عليه السلام وقتله. أهاب بهم ابن الأشتر في إحدى المواجهات الحاسمة قائلًا: (يا شرطة الله، انزلوا، فإنكم أولى بالنصر من الله من هؤلاء الفسّاق الذين خاضوا دماء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله...)[2] وهو نداء لقي نجاحاً واستحساناً من أولئك المقاتلين الشجعان الذين اندفعوا بحماس لتقال عدوهم وطرده، وظلت تلك التسمية (شرطة الله) تطلق على مناصري المختار، ولعلها كانت رد فعل على من جعلوا أنفسهم شرطة للظالم، يطيعونه إطاعة عمياء دون نقاش أو تأمل ما دام يدفع لهم. أما هؤلاء فقد جعلوا من أنفسهم شرطة لله لا يريدون إلا وجهه وجزاءه ومثوبته.

ونلاحظ أن هذه التسمية (شرطة الله) قد سادت أيام المختار وشملت كل من انضموا إليه وقاتلوا تحت لوائه، وقد وجدوا فيها من الطرافة قدراً يفوق ذلك الذي وجدوه من المرادة والألم والتفرقة والقسوة التي لقوها في ظل دولة الظلم الأموية التي استعدت عليهم أعوانها ومرتزقتها وشرطتها.. وقد أخذوا يواجهونهم الآن هذه المواجهة الحاسمة التي ستزيح كل هذه المرارة والألم من قلوبهم.

استطاع المختار وصاحب ابن الأشتر أن يتغلبا على أعدائهما من قادة ابن مطيع

---

(١) وهو مشابه لشعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد: «أمِت، أمِت». ابن هشام ٣/ ٦٨.
(٢) الطبري ٣/ ٤٤١.

الزبيري اليوم وقادة ابن زياد الأموي بالأمس مثل شبث بن ربعي وحجار بن أبجر وشمر بن ذي الجوشن والتف حول ابن مطيع كل قادته المهزومين الذين بذلوا كل جهودهم لنصرته وجعله يتغلب على عدوه وعدوهم المختار وحشدوا آلافاً من أنصارهم ومؤيديهم للتصدي له في ليلة بدت حاسمة.

غير أن المختار بالأعداد القليلة التي كانت معه استطاع وضع خطط حاذقة والصمود بوجوه أعدائه بل والتغلب عليهم بعد ذلك.

قانون دولة الظلم

وكان ضمن قادته رجال حاذقون أدركوا أن الظلم الذي لحق بالناس على أيدي الطغمة الأموية بالأمس والتي انقلبت اليوم إلى زبيرية، سيكون هو دافعهم للتخلص منها ومواجهتها بصلابة وثبات(١)؛ وقد أكدوا بخطبهم الحماسية التي ألقوها خلال المعركة هذا المعنى مما كان له أكبر الأثر في لفت جماهير الكوفة إلى حقيقة الظلم الذي تعرضت له من قبل ويحتمل أن تتعرض له فيما بعد.

وكانت إشارة ابن أنس الذكية الحاذقة تشير إلى حالة تتكرر في دول الظلم المختلفة مهما كان لونها وشكلها والعصر الذي تشكلت فيه. إنها دول تحاول حماية مصالح أسيادها وملوكها بشتى الأساليب والمتهم بنظرها مجرم ولا داعي لإثبات براءته، بل إن القضاء على من تشك بولائهم لها يمثل أسهل وأسلم الطرق بنظرها؛ وهكذا تعتمد قانون الشك والظن وأخذ القريب بالبعيد والولي بالولي وتعمد إلى قانون

---

(١) ومن هؤلاء يزيد بن أنس الذي ولاّه المختار خيله، حيث خطب في أصحابه قائلاً: (يا معشر الشيعة، قد كنتم تُقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم، وتسمل أعينكم، وترفعون على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيّكم، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم. فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم! إذاً والله لا يدعون منكم عيناً تطرف، وليقتلنكم صبراً، ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه. والله لا ينجيكم منهم إلا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم، والضرب الدارك على هامهم فتيسروا للشدّة وتهيئوا للحملة...) الطبري ٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤ وهي إشارات حاذقة دقيقة تكشف حقيقة الظلم الذي تعرضوا له من قبل مع أنهم يواجهوا دولة الظلم الأموية أو يحاربوها، وكان كل ذنبهم إنهم يكنّون الحب والولاء لأهل بيت النبي ﷺ، وقد فعلت أمثال هذه الخطب فعلها لحثهم وتشجيعهم على القتال.

العسف المنفلت والبعيد عن القوانين السماوية أو حتى تلك التي تنسجم مع العدالة الإنسانية.

وفي ظل (قانون) كهذا يتعرض فيه المرء في كل لحظة للدمار والإهانة حتى ولو لم يواجه سلطة الظلم مواجهة عسكرية أو سياسية أو فكرية، ماذا يملك أن يفعل إذا ما أتيحت له فرصة الخلاص والثورة؟ إنه سيثور حتماً، خصوصاً إذا ما وجد أمامه قضية عادلة واضحة، وأية قضية أعدل وأوضح من تلك التي رفعها المختار وأصحابه بمواجهة العصابة التي أقدمت على قتل الحسين عليه السلام تلك القتلة المريعة وأباحت دمه وماله وسبت عياله رغم علمها بموقفه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن المسلمين؟.

إن تلك العصابة توشك أن تتغلب ثانية على الكوفة وتلبس رداء زبيرياً بدل الرداء الأموي ريثما تستجمع أنفاسها وترى من توالي في النهاية بعد انكشاف الوضع، ولا بد للمظلومين من كل فئات المسلمين العرب وغيرهم أن يثوروا عليها لتخليص أنفسهم منها. لأنها ستعاقب الجميع إذا ما استتبت الأوضاع لصالحها، وعقوبة القائم بوجهها كعقوبة القاعد، فعلام القعود إذاً؟!.

أصحاب ابن الزبير اليوم أصحاب ابن زياد بالأمس

وإذ أن أصحاب ابن مطيع اليوم، أصحاب ابن زياد بالأمس لم يكونوا يحملون قضية عادلة واضحة يدافعون عنها ويقاتلون إلى النهاية من أجلها، فإنهم تخاذلوا أمام أصحاب المختار وانهزموا مرعوبين.

فقد انهزم أصحاب راشد بن أياس بمجرد أن قتل، وكان أبوه قد قتل من قبل.

وانهزم أصحاب حسان بن فائد، أحد قادة ابن مطيع، وهو في جيش كثيف، نحو من ألفين.

وانهزم شبث بن ربعي بأصحابه حتى انتهوا إلى أبيات الكوفة.

وحاول عمرو بن الحجاج الزبيدي أحد أصحاب ابن زياد، وكان له دور معروف في قتل الحسين عليه السلام والتحريض عليه، أن يشجع ابن مطيع للتصدي للمختار وأصحابه وذلك بالتهوين من شأنهم أمامه.

وقد حاول ابن مطيع أن يحث جماعته على الوقوف بوجه المختار وأصحابه وأبدى استغرابه من عجزهم على مواجهته، وأمرهم بالخروج إليه بدعوى الدفاع عن حريمهم ومصرهم وفيئهم وإلا شاركوهم فيه، وأبلغهم أن من جملة أصحاب المختار

خمسمائة رجل من محرّريهم عليهم أمير منهم، وأنذرهم مغبة ترك هؤلاء يتكاثرون وإلا كان في ذلك ذهاب عزهم وسلطانهم وتغير دينهم[١] . . !!

وعندما توجهت طلائع جيش المختار تجاه القصر انهزم أمامها عمرو بن الحجاج وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي ونوفل بن مساحق وكل أعوان ابن مطيع، وازدحموا على فم السكة متوجهين إلى القصر حيث ابن مطيع.

المختار يحاصر قصر الإمارة

وكما كان أشراف الكوفة من قبل ـ محصورين في القصر مع ابن زياد ـ وقوات مسلم تحيط بهم، وهم يقلبون الرأي ويلتمسون أفضل الطرق لفك الحصار عنهم حتى نجحوا في ذلك، صاروا الآن محصورين مع ابن مطيع وقوات المختار تحيط بهم، وما استطاعوا تحقيقه مع أصحاب مسلم من قبل لم يستطيعوا تحقيقه مع أصحاب المختار الآن. . ولم يستطيعوا إلا أن يشيروا على ابن مطيع بالاستسلام وأخذ الأمان له ولأنفسهم من المختار، وقد تقدم بهذا الاقتراح شبث بن ربعي وأيده في ذلك أسماء بن خارجة وعبد الرحمن بن مخنف وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وأشراف أهل الكوفة.

وبعد حصار دام ثلاثة أيام استجاب ابن مطيع لرأيهم بعد أن وجه إليهم كلمة مدحهم فيها وحمّل مسؤولية الثورة (الأراذل والسفهاء والطغام والأخسّاء)[٢] وخرج من القصر حتى أتى دار أبي موسى، وفتحوا بدورهم باب القصر طالبين الأمان من ابن الأشتر الذي كان يتولى عملية الحصار، وخرجوا إلى المختار فبايعوه ما داموا قد حسبوا أنهم ضمنوا سلامتهم.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٤٥ ومن الطريف ان دعاوى الدفاع عن العرض والوطن والمكاسب التي يزعم دولة الظلم إنها حققتها تتكرر دائماً وتتردد بأساليب مضللة ملتوية عديدة، حيث تبدي هذه الدولة حرصاً مزعوماً على حماية أعراض الناس وأوطانهم.

(٢) وهي دعاوى تتردد في كل وقت يثور فيه الناس على حكامهم الفاسدين الذين يتهمونهم بأنهم من الغوغاء والرعاع وغير ذلك من النعوت التي يقصدون بها الحط من شأنهم وشأن ثوراتهم، أما الحكام المتنعمين المترفين الذين لا يسمعون إلا كلمات الإطراء والمديح فهم بنظر أنفسهم طبقة منتقاه من السادة المهذبين الطيبين جديرة بأن تبقى تحكم وتستأثر بكل شيء. وإن الخارج عليهم خارج على الشريعة والقانون.

لقد بايعوا من قبل أمير المؤمنين عليه السلام، ثم بايعوا معاوية ويزيد، ثم بايعوا الحسين عليه السلام ونكصوا عنه وجدّدوا البيعة ليزيد وبايعوا ابن الزبير ثم ها هم يبايعون المختار. كانت بيعتهم سلعة يتداولونها ولم يكونوا حريصين على الوفاء بها إلا بالقدر الذي يحرصون فيه على مصالحهم وامتيازاتهم الخاصة.

وما نحسب أن المختار لم يكن بعيد النظر وعلى درجة من الوعي لا تتيح له تفهم موقف هؤلاء والتعامل معهم وفق ما كان يمليه الظرف الدقيق الذي كان يمر به.

استيلاء المختار على قصر الإمارة وعلى الكوفة

استولى المختار على قصر الإمارة العتيد الذي كان مقراً للحكام الأمويين في الكوفة، وبات فيه، والتفّت الناس، بما فيهم الأشراف، حوله وتجمعوا في المسجد وعلى باب القصر، وقد ألقى فيهم خطبة من خطبه المعروفة ذات التأثير الخاص والإيقاع المعروف جاء فيها: (الحمد لله الذي وعد وليّه النصر، وعدوّه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وعدا مفعولًا، وقضاء مقضياً، وقد خاب من افترى.

أيها الناس: إنه رفعت لنا راية، ومدّت لنا غاية، فقيل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تضعوها، وفي الغاية: أن أجروا إليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي، ومقالة الواعي، فكم من ناع وناعية، لقتلى في الواعية، وبعداً لمن طغى وأدبر، وعصى وكذب وتولى.

ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى. فلا والذي جعل السماء سقفاً مكفوفاً، والأرض فجاجاً سبلًا، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدى منها..)[1].

المبايعة على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلّين والدفاع عن الضعفاء

وطلب منهم مبايعته على كتاب الله وسنة نبيّه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلّين، والدفع عن الضعفاء، وهي الأمور التي كانت تشكل له مطمحاً كبيراً منذ البداية، وكانت تبدو معقولة في مجتمع انتشر فيه الظلم والفوضى وكانت حكومة الظلم أول خارج عن الإسلام.

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٤٤٧.

لماذا التريث في تنفيذ شعاراته

ورغم وضوح أهداف المختار وشعاراته إلا أنه آثر التريث قبل القيام بتنفيذها وخصوصاً ذلك الشعار المتعلق بجهاد المحلين والطلب بدماء أهل البيت وذلك لكثرة من شارك بتلك المجزرة المروعة والقوة الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها واحتمال تكاتفهم وقيامهم بوجهه إذا ما شعروا بخطر حقيقي، وهو ما فعلوه بعد ذلك فعلًا، كما سنذكر ذلك بعون الله.

وهكذا.. (أقبل المختار يمنّي الناس، ويستجرّ مودتهم ومودّة الأشراف، ويحسن السيرة جهده..)[1].

العدل وحسن السيرة

وقد سمح المختار لابن مطيع بالخروج من الكوفة سالماً واستولى على بيت مال الكوفة وفيه تسعة ملايين فوزعها على أصحابه الذين قاتلوا معه وهم حوالي عشرة آلاف رجل، (واستقبل الناس بخير، ومنّاهم العدل وحسن السيرة، وأدنى الأشراف فكانوا جلساءه وحدّاثه..)[2].

ولم يذكر لنا أحد أسماء الأشراف الذين قربهم المختار، وفي أغلب الظن أنه لم يقرب أحداً ممن شارك بدم الحسين عليه السلام سوى عمر بن سعد، ولعله أراد بذلك طمأنة من قد يفلت من العقاب إذا ما حاسب أحد رؤوس الجريمة عمر، وأرادهم أن يبقوا في الكوفة لحين استتباب الأمور لصالحه.

وكان في كل وقت من أوقات حكمه القصير في الكوفة وبعد ذلك يؤكد على عزمه على الأخذ بثأر الحسين وأصحابه عليهم السلام، غير أنه لم يحدد وقتاً لذلك.. وقد أثار تأخره عن إلحاق العقوبة بالمجرمين وتقريب الأشراف غيظ بعض أصحابه فشكوا الأمر لصاحب شرطته عبد الله بن كامل الشاكري وكيسان أبا عمرة مولى عُرينة، ولم يفت أمرهم المختار فأسر لأبي عمرة أن يطمئنهم ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[3] مما جعلهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي يلقى فيه المجرمون جزاءهم.

---

(١) و(٢) نفس المصدر ٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٣) السجدة ٢٢.

دولة جديدة تنافس الدولتين الزبيرية والمروانية

وبعث المختار من قبله قادة وعمالاً على أرمينية وأذربيجان والموصل والمدائن وأرض جوخى وبهقباذ الأعلى وبهقباذ الأوسط وبهقباذ الأسفل وحلوان وأقبل يجلس للناس ويقضي بين الخصمين إلا أن مشاغله حالت دون ذلك فيما بعد، فعيّن قضاة من قبله.

وقد سبب بعض أصحابه بعض المشاكل التي من شأنها أن تعمل على إثارة الخلافات والفرقة فيما بينهم إلا أنه عالجها بحكمه وكياسه وقضى على تلك المشاكل منذ البداية، ومنها المشكلة التي أثارها الشاعر عبد الله بن حمّام الذي كان عثمانياً ثم مال إلى صف المختار ومدحه بعد أن رأى أن الرياح تسير لصالحه.

أشراف الكوفة: نهج الخيانة

قدر (أشراف) الكوفة ممن كانوا قد شايعوا ابن زياد من قبل، أن يثبوا بالمختار بعد أن حسبوا أن أمره قد ضعف، إلا أن الدائرة دارت عليهم ووثب بهم المختار فقتل من قدر عليهم منهم، وهرب بعضهم ملتحقين بابن الزبير.

وقد أضافوا لجرائمهم السابقة جريمة الغدر الجديدة التي لم يوفقوا بها وأعطت للمختار مبرراً حقيقياً لاستئصالهم والقضاء عليهم عندما بدأوا هم الحرب وأسفروا عن نواياهم الشريرة ضده.

كان المختار خبيراً بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه ويتعامل معه، فالأشراف كانوا يجرون لاهثين وراء مصالحهم وامتيازاتهم ولا يهمهم من يكون حاكماً عليهم ما دام يدفع لهم ويضمن لهم تلك المصالح والامتيازات وإن كانت على حساب الآخرين.

وقد ظهرت مقابل تلك الطبقة المترفة المتنفذة الحريصة على مصالحها وحياتها طبقة أخرى من المسلمين المسحوقين الذين أصبح حرمانهم من الحياة الكريمة أمراً واقعاً وقانوناً عاماً غير مكتوب، فلم يمنع كون هؤلاء مسلمين، تحرروا أو تحرر آباؤهم من عبوديات سابقة، أن يتعرضوا للأذى والاضطهاد على يد نظام أخذ يتبنى العروبة تبنيّاً عنصرياً حتى جعلها فوق الإسلام، لأنه وجد فيها ما يضمن بقاءه واستمراره، فليس فيه من الإسلام ما يضمن بقاءه على ذلك الإسلام. غير أن شعارات الولاء للعروبة و(أمجادها ومفاخرها وعزها) وقد نهضت وعزت في ظل الإسلام

وتغلبت على غيرها على هذا الأساس، أخذت ترتفع على أسس جاهلية جديدة برأس النظام معاوية ومن جاء بعده، حتى إنه فكر في وقت ما باستئصال وقتل نصف المسلمين من غير العرب وتسخير الآخرين للخدمات الدنيا، لكي يقوّي نفوذ دولته (العربية) ويستقطب حول عرشه كل أولئك الذين كانوا يجدون في الإسلام حاجزاً دون طموحاتهم ومصالحهم غير المشروعة.

وقد وجد هؤلاء دائماً المبررات التي يحاربون بها المسلمين من غير العرب ويضطهدونهم وهيأوا الاتهامات الكاذبة ضدهم وهو ما أوجد ثغرة كبيرة ظلت باقية إلى الآن بين المسلمين العرب وغيرهم وسببت انشقاقاً غير مبرر بينهم، وهو مسعى خبيث لعب دوره في شق وحدة المسلمين وصفوفهم على امتداد التاريخ.

ولسنا بصدد بحث تاريخي حول هذا الموضوع، مع إن دولًا مستحدثة تدعي أن دستورها الإسلامي لا زالت ترفع الشعارات الأموية العروبية وتصم غيرها من دول الإسلام وشعوبه بصفات تبدو فيها وكأنها بعيدة عن الإسلام وإنها لا زالت على دياناتها القديمة التي انقرضت وبادت(١).

أوامر مروان لابن زياد: افعل بالكوفة ما فعله مسرف بالمدينة؛ أباحها ثلاثة أيام

وقد حاول أعداء المختار، من فلول الأشراف الموالين للأمويين، أن يلموا شمل أتباعهم برفع الشعارات المضللة الكاذبة ضد أعدائهم في سعي محموم للم الشمل هذا وتحشيد أكبر قوة مستطاعة لشن هجوم شامل عليهم.

وبدأ الأمر عندما أصدر مروان أوامره لابن زياد، عندما أرسله لحرب الكوفة، أن ينهبها إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً ويعيد ما سبق أن فعله يزيد بأهل المدينة في واقعة الحرة المشؤومة، وجعل له ما غلب عليه.

---

(١) وفي مقدمة هذه (الدول) النظام البعثي في العراق الذي لم يقيم على أي أساس إسلامي وجاء يحارب الإسلام على أسس متطورة زوده بها أعداء الإسلام، فقد حاول ان يصم المسلمين ممن يعيشون في الجمهورية الإسلامية الإيرانية بأنهم من (الفرس المجوس) وهو ما يبدو خرافة أمام انقراض المجوسية عند مجيء الإسلام، غير ان هذا الاتهام يبدو سلعة ذات فائدة كبيرة عند غياب الوعي والفهم الصحيح للإسلام، وهو ما سعى له البعثيون إذ سعوا لإبعاده عن الحياة تماماً وعاقبوا كل من يتمسك به عن وعي.

وفي طريقه إلى الكوفة انشغل ابن زياد بأرض الجزيرة بحرب قيس عيلان التي كانت على طاعة ابن الزبير وقد أصابهم مروان يوم مرج راهط وقتل منهم أعداداً كبيرة، وظل ابن زياد محتبساً بأرض الجزيرة مشتغلًا بقيس عن العراق نحواً من سنة، ثم أقبل بعد ذلك إلى الموصل، وفيها عبد الرحمن بن سعيد بن قيس عاملًا للمختار عليها والذي انحاز إلى تكريت بعد أن أوضح طبيعة الموقف للمختار. . . وقد حبّذ المختار موقف عامله هذا وأمره بالبقاء في تكريت ريثما تصله أوامر لاحقة منه.

المختار يقرر مواجهة الجيش الأموي بقيادة ابن زياد

كان المختار قد قرر مواجهة ابن زياد رغم علمه بتفوقه الكبير عليه. . وإذا ما درس امرؤ الأمر دراسة ميدانية فإنه سيدرك أن المختار كان يجازف مجازفة كبيرة بذلك، غير أن المختار لم يكن يسير وفق الحسابات العادية، وكان يرى أنه منتصر على ابن زياد لا محالة، وكان يرى أن المواجهة الحاسمة بينه وبين أعدائه لا بد أن تتم، سواء كانت في الموصل أو في الكوفة، فهؤلاء الأعداء لن يدعوه يحقق أهدافه بمثل تلك السهولة والسرعة اللتين كان يحققهما فيهما.

وربما كانت دلائل حاله تشير إلى علمه ببعض الوقائع، وهو علم ربما وصل إليه من مصادر موثوقة على صلة وثيقة بآل البيت عليهم السلام الذين تلقوا علومهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله. فيقينه بالنصر على أعدائه من قتلة الحسين وأصحابه عليهم السلام كان يبدو واضحاً في كل مرحلة من المراحل التي كان يخوض فيها حربه ضدهم.

إنا المؤمنون الميامين، الغالبون المساليم

وقد استدعى أحد قواده يزيد بن أنس بعد أن وصله كتاب عامله على الموصل وقال له: (يا يزيد بن أنس: إن العالم ليس كالجاهل، وإن الحق ليس كالباطل، وإني أخبرك خبر من لم يكذب ولم يكذّب، ولم يخالف ولم يرتّب، وإنّا المؤمنون الميامين، الغالبون المساليم، وإنك صاحب الخيل التي تجر جحابها، وتضفر أذنابها، حتى توردها موارد الزيتون، غائرة عيونها، لاحقة بطونها. . اخرج إلى الموصل حتى تنزل أدانيها فإني ممدّك بالرجال بعد الرجال. .)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٤٥٢.

وقد خرج هذا بعد أن انتخب ثلاثة آلاف فارس من تميم وهمدان ومذحج وأسد وربيعة وكندة وغيرها من قبائل العرب المعروفة إضافة لبعض سكان الكوفة الآخرين الذين قد يكونون من غير العرب، وهذا أمر يفند ادعاءات من زعم أن المختار كان يحارب بالموالي فقط وإن الذين التحقوا به من العرب كانوا قلة قليلة، وسار بعزيمة ثابتة لملاقاة عدوه في الموصل، وقد تمنى قبيل مسيره ذاك أن يكتب الله له الشهادة إذا ما فاته النصر.

ولم يفت ابن زياد أمر القوة التي أرسلها المختار لقتاله، فبعث إليها ضعف عددها غير أن أصحاب يزيد بن أنس قد تغلبوا على أعدائهم رغم مرض قائدهم الذي كان يشفي به على الموت.. وقد كان يحمل على سرير لغلبة آلام الموت عليه.

لقد ألقى في أصحابه خطبة حماسية قصيرة مؤثرة وأمرهم أن يقدموا سريره أمامهم.. وانتهت المعركة قبل أن يرتفع الضحى بهزيمة أصحاب ابن زياد هزيمة منكرة تاركين قتلاهم وجرحاهم وعسكرهم.

وكان مصير المدد الذي بعث به ابن زياد مشابهاً لمصير القوة الأولى التي أرسلها في اليوم السابق.

الإعلام الأموي: دور تحريضي لتفرقة الناس

وهنا يبدو أن الإعلام الأموي قد عاد إلى دوره التحريضي المضلل حيث كان قائد الحملة الأولى ـ ربيعة بن المخارق ـ الذي أرسله ابن زياد لقتال يزيد بن أنس يحث جند الشام على مواجهة (أعداء) من العبيد الإباق المتمردين الذين تركوا الإسلام ولا يحسنون النطق بالعربية.

كان أهل الكوفة بنظر أهل الشام كما حاول هذا القائد أن يصفهم، وإلا فما عسى أن يقول الآن بعد أن استهلكت الأكاذيب الأموية بشأنهم.

أراد هذا الإعلام في هذه المرحلة من حكم الأمويين المتذبذب الضعيف وهو يتقاسم النفوذ مع ابن الزبير وهما يواجهان سوية المختار الذي تنمو قوته بشكل متسارع مخيف، أن يبين لأهل الشام (أهل السمع والطاعة)، على حد تعبير أحد قادة ابن زياد ـ أن من يواجهونهم الآن هم ليسوا العرب من أبناء الجزيرة العربية وما حولها، وإنهم ليسوا حتى مسلمين أصلاً.

الإعلام الأموي: ثورة العبيد: «..إنكم إنما تقاتلون العبيد الإباق وقوماً قد تركوا الإسلام»

وقد خاطب أحد قادة ابن زياد جنوده وهو يعدهم لمنازلة جيش المختار بقوله: (يا أهل الشام، إنكم إنما تقاتلون العبيد الإبّاق، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه، ليست لهم تقيّة ولا ينطقون بالعربية)[1].

ويبدو أن مثل هذه الأكاذيب كانت تنطلي على أهل الشام، وقد قال أحد أفراد الجيش الشامي تعقيباً على افتراءات قائده هذا (فوالله إن كنت لأحسب أن ذلك كذلك حتى قاتلناهم. فوالله ما هو إلا أن اقتتل الناس إذا رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول:

برئت من دين المحكمينا وذاك فينا شرُّ دين دنيا)[2]

ومن الطريف أن نذكر أن أهل الشام تناسوا أصل ابن زياد وعدم انتمائه للعرب وإنه نفسه لم يكن ينطق العربية نطقاً سليماً ـ وقد سبق لنا الحديث عن ذلك عند تناول سيرته ـ وصدقوا افتراءات معاوية وادعاءاته بشأن انتساب زياد لأبي سفيان بعد أن حملت به أمه سمية سفاحاً منه في العهد الجاهلي، وهي قصة مخجلة يندى لها جبين كل عربي ومسلم غيور.

مني أصحاب ابن زياد بهزيمة محققة رغم كثرة عددهم، ورغم مرض يزيد بن أنس الذي أشفى به على الموت، فما أمسى حتى مات.

وكان لموته أثر محزن في نفوس أصحابه الذين بلغهم إقبال ابن زياد إليهم في ثمانين ألفاً من أهل الشام، فتسلل بعضهم وتراجعوا عائدين إلى الكوفة. وقد اقترح قائدهم ورقاء بن عازب الأسدي في اجتماع عقده مع رؤوس أصحابه أن يتراجعوا من تلقاء أنفسهم قبل أن يلقوهم، فيكون موت قائدهم عذراً لهذا التراجع لأن في لقاء ابن زياد وجنده مخاطرة كبيرة قد تسبب قتلهم جميعاً، وقد وافق الجميع على ذلك.

جيش آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر

غير أن الإشاعات والأراجيف التي سبقتهم إلى الكوفة جعلت الناس يتخبطون في أمرهم وأمر قائدهم المتوفى. على أن المختار علم بتفاصيل الأمر كله عن طريق

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٤٥٣.

بعض عيونه فدعا إبراهيم بن الأشتر فعقد له على سبعة آلاف رجل وأمره أن يردد معه من تبقى من جيش ابن أنس ثم يسير حتى يلقى ابن زياد وجيشه فيناجزهم.

وهكذا خلت الكوفة من كتلة قوية من المقاتلين كانوا يشدون أزر المختار ويقاتلون معه، وكانت تلك فرصة ثمينة لأعدائه من (أشراف الكوفة) الذين أيقنوا أن الدائرة ستدور عليهم بعد ذلك، فأرادوا استغلال ذلك ومناجزة المختار، ولم ينتظروا حتى يذهب إبراهيم بعيداً بل كانوا متلهفين للقضاء على المختار بأقرب فرصة ممكنة، رغم أنه كان حتى ذلك الحين يقربهم إليه ويدينهم من مجلسه، كما ذكرنا.

أشراف الكوفة: شيمتهم الغدر

وأجمع رأي أشراف الكوفة على قتال المختار وأخذوا يحرضون الناس على ذلك، وقد تزعم تلك الحملة شبث بن ربعي وشمر بن ذي الجوشن ومحمد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وحجار بن أبجر وزحر بن قيس ويزيد بن الحارث وعمرو بن الحجاج الزبيدي واستمالوا إليهم بعض الأشراف الآخرين وكانت حجتهم أنه ـ أي المختار (تأمّر علينا بغير رضاً منّا، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل، وأطعم موالينا فيئنا، وأخذ عبيدنا، فحرب بهم يتامانا وأراملنا، وأظهر هو وسبيئته البراءة من أسلافنا الصالحين. . .)[1].

وقد حاول عبد الرحمن بن مخنف أن يثنيهم عن قرارهم ذاك إلا أنهم أبوا إلا الغدر بالمختار بعد أن بايعوه وأعلنوا طاعتهم له.

كانت مسألة مساواة الموالي لهم بالفيء تشكل أكبر همومهم، فقد كان التصور الجاهلي الذي جعلهم يعتقدون أن جميع الناس دونهم وأنهم يتفوقون على الكل حتى في ظل الإسلام وأحكامه وقيمه، لا يزال يتحكم في عقولهم، وقد أرساه فيها معاوية مرة أخرى مستنداً إلى تصرفات سابقة من خلفاء سابقين[2]، فتمادى في التفرقة بين

(١) الطبري ٣/ ٤٥٥.

(٢) أول من فرّق في العطاء عمر بن الخطاب. . (ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى. .) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ٨/ ١١١.

العرب وغيرهم إلى حد جعل من تلك التفرقة أمراً مقدساً. وهو أمر لم تكن دوافعه تخفى على المتتبعين لحياة معاوية ودارسي آثاره وحياته.

وقد أرسلوا شبث بن ربعي لمفاوضة المختار حول هذه المسألة وغيرها، فذهب ولقيه وذكر له كل ما أنكره أصحابه وخصوصاً مسألة مشاركة الموالي لهم بالفيء، وكان المختار في غاية الذكاء عندما أجاب شبث، الذي كان يتمتع بمنزلة كبيرة بين أشراف الكوفة: (إن أنا تركت لكم مواليكم، وجعلت فيئكم فيكم، أتقاتلون معي بني أمية وابن الزبير، وتعطون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما اطمئن إليه من الإيمان؟

فقال شبث: ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فأذاكرهم ذلك. فخرج فلم يرجع إلى المختار.

وأجمع رأي أشراف أهل الكوفة على قتال المختار)[1].

خرج إبراهيم فخرجوا على المختار

وبيّتوا الغدر به بمجرد أن وصل إبراهيم بن الأشتر ساباط ووثبوا به واتخذوا لهم مراكز في أهم مواقع الكوفة وجباناتها. وأضافوا جريمة جديدة إلى جرائمهم السابقة. وكانت نتيجة غدرهم وبالاً عليهم.

وكانت إجراءات المختار في ذلك الموقف الصعب الذي اصطف فيه أعداؤه لمقاتلته تتسم بالدقة والمهارة، فقد أرسل من يومه مَن يعلم ابن الأشتر بطبيعة الموقف ويطلب منه الرجوع إليه بمن معه حال وصول رسوله إليه، كما طلب من أعدائه (أشراف الكوفة) إرسال وفد من قبلهم ليقوم بمفاوضة وفد يبعثه هو ليقدموا مطاليبهم، كما أمر أصحابه بعدم التعرض لهم إذا ما بدأوا هجومهم، وكان يريد بذلك كسب الوقت لحين رجوع إبراهيم مع قواته مع أنه كان يتعرض لمضايقات شديدة.

كسب الوقت بالتفاوض

وكان المختار مصيباً بخطته تلك إذ كسب الوقت الثمين الذي كان يريده والذي كشف عن طبيعة أعدائه المترددة وخلافهم وسعيهم لمكاسب تافهة ولو على حساب

---

(١) الطبري ٣/ ٤٥٤.

بعضهم البعض، كما كان ذلك الوقت كافياً لعودة ابن الأشتر بقواته إليه مما جعل كفة الحرب بينه وبين أعدائه تميل لصالحه، ووضع خطة حربية ناجحة وقاتل أعداءه قتالًا عنيفاً رغم قلة عدد أصحابه وتفوق أعدائه بالعدد عليهم كثيراً. . وقد شدد من عزائمهم ترديد شعارهم المعروف «يا لثارات الحسين».

«يا لثارات عثمان»: جعلت بعض معارضي المختار ينسحبون عن القتال

ومن الطريف أن نذكر هنا أن شعاراً مقابلًا لم يكن من الناس أن يرتفع في ذلك الوقت وفي الكوفة نفسها وهو «يا لثارات عثمان»، صاح به رجل من أعداء المختار، قد جعل بعض الناس ينسحبون من مقاتلة المختار وكان من هؤلاء رفاعة بن شداد الذي قال: (ما لنا ولعثمان، لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان، فقال له أناس من قومه: جئت بنا وأطعناك، حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف، قلت: انصرفوا ودعوهم. فعطف عليهم وهو يقول:

أنا ابن شداد على دين علي   لست لعثمان بن أروى بولي
لأصلين اليوم فيمن يصطلي   بحرّ نار الحرب غير مُؤتَل)

فقاتل حتى قتل. . .)[1].

مطاردة قتلة الحسين

وعندما استعرض الأسرى بعد أن تغلب على أعدائه أمر بقتل من شرك بقتل الحسين عليه السلام منهم، ثم أمر مناديه فنادى: (من أغلق بابه فهو آمن، إلا رجلًا شرك في دم آل محمد ﷺ . .)[2].

وبدأت حملة مطاردة قتلة الحسين وأصحابه. وقد هرب العديد من قادتهم للالتحاق بابن الزبير، منهم يزيد بن الحارث وحجار بن أبجر وعمرو بن الحجاج الزبيدي الذي لم يعرف مصيره بعد ذلك.

قصة مقتل شمر

وكانت قصة مقتل شمر، أشهر مجرمي واقعة الطف، مثيرة حقاً، فقد بدا وكأنه هو الذي كان يسعى إلى حتفه بعد هزيمة الأشراف وهربه مع بعض أصحابه من الكوفة.

---

(١) و(٢) الطبري ٣/٤٥٨ - ٤٥٩.

فقد روي أن المختار بعث غلامه للبحث عن شمر، وقد استدرجه شمر بعد أن استطرد له وجعل نفسه يبدو كالهارب منه، ثم قتله عندما خلا به، وقد جعله ذلك لا يمعن في الهرب بعيداً ويغتر بقوته، فنزل في قرية قريبة من الكوفة يقال لها الكلتانية على شاطىء نهر إلى جانب تل، فأخذ أحد سكانها من غير العرب فضربه وأمره أن يسلم كتاباً كتبه إلى مصعب بن الزبير، وعليه عنوانه واضحاً (للأمير المصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن)، وقد أخذ الرجل الكتاب مرغماً فمر بقرية أخرى فيها أحد أصحابه، فأقبل يشكو إليه ما لقيه من شمر والكتاب بيده واسم شمر عليه واضحاً.

كانت تلك القرية مسلحةً فيما بين المختار وأهل البصرة، وكان أبو عُمرة أحد أشهر أصحاب المختار وأشدهم مطالبة بدم الحسين عليه السلام هو القائم على شؤون المقاتلين في تلك القرية، وقد رأى أحد أصحابه الكتاب مع الرجل وعنوانه (لمصعب من شمر) فأخبر أبا عمرة وسألوا الرجل عن مكان شمر فأخبرهم، ولم يكن يبعد عنهم كثيراً، فذهبوا لمحاصرته.

وقد حذر شمراً أحدُ أصحابه من البقاء في تلك القرية وطلب منه الانتقال منها، إلا أن شمر ربما حسب أن المختار سيبعث إليه أحد غلمانه ليقتله كما قتل صاحبه وقد رفض اقتراح صاحبه وأقسم أن لا يتحول عن المكان الذي كان فيه ثلاثة أيام، فلم يشعر إلا وقد أحيط به وقد أعجلوه أن يلبس سلاحه وثيابه، وقد قاتلوه بعد أن خرج إليهم وطاعنهم برمحه ثم أخذ سيفه وقاتلهم، بعد لحظات ارتفعت صيحات مكبرة: الله أكبر، قتل الله الخبيث[1].

مضى شمر دون أن يحقق غاية معينة في حياته، وكان أكبر همه أن يكون مقرباً من السلطة الحاكمة ولا يهم أن يكون رأسها يزيد أو ابن الزبير، فهاجس التقرب ممن قد يمنحه الجاه والمال هو الهدف الرئيسي في حياته.

أقاصيص وحكايات ـ سراقة بن مرداس

ومن بين ركام الأحداث والوقائع التي دارت بين المختار وأعدائه، طلع علينا أولئك الأعداء بقصة افتعل قسم منها لكي يدللوا على (كذب) المختار وبطلان

(١) الطبري ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ والبحار ٤٥/ ٣٧٣ - ٣٧٤ وابن الأثير ٤/ ٤٣ - ٤٤.

(ادعاءاته) بخصوص (الوحي والملائكة)، وهي قصة تدلل على بطلان راويها وكذبه هو، ولعله افتعل ما افتعل منها ليتنصل مما فعله في بدايتها، وهو أمر لا بد أن يؤاخذه عليه أعداء المختار لو لم يقم بذلك.

وملخص القصة أن المختار أخذ بعد انتصاره على أشراف الكوفة وأعوانهم في الكوفة سراقة بن مرداس أسيراً إلى القصر بعد أن أسمعه هذا أبياتاً يشيد فيها به[1]. وحبسه ليلة، ثم أخرجه من الغد. فأقبل إليه وجعل ينشد:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنّا … نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً … وكان خروجنا بطراً وحَينا
نراهم في مصافهم قليلاً … وهم مثلُ الدَّبى حين التقينا
برزنا إذا رأيناهم فلما … رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهم ضرباً طِلحَفاً … وطعناً صائباً حتى انثنينا
نُصرت على عدوكَ كلَّ يومٍ … بكل كتيبةٍ تنعى حُسينا
كنصر محمدٍ في يوم بدرٍ … ويومِ الشعبِ إذ لاقى حُنينا
فأَسجح إذ ملكت فلو ملكنا … لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبةً مني فأني … سأشكر إن جعلت النقد دينا)[2]

والقصة تبدو ـ إلى هنا ـ عادية لا لبسَ فيها. فهذا الشاعر كان في صف أعداء المختار وقتلة الحسين. وقد وصف خروجهم على المختار بأنه نزوة وبطر وحَين مستهينين بالضعفاء من الناس الذين كان يقودهم.

وعندما أصبحت الكفة إلى جانب المختار وتغلب على أعدائه، أخذ هذا الشاعر يمدحه ويصف نصره على عدوه كنصر الرسول ﷺ على عدوه يوم بدر وحنين، وهي صورة شعرية تتكرر دائماً على ألسنة الشعراء، وقد وعد هذا الشاعر

---

(١) وهي:
امنن عليّ اليوم يا خيرَ مَعَدْ … وخيرَ من حل بشِحرٍ والجَنَدْ
وخيرَ من حَيّا ولبّىٰ وسجَدْ)
(الطبري ٣/ ٤٦٠).

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١.

بالتوبة والكف عن نصرة أعداء المختار، ثم أخلى المختار سبيله وأتاح له فرصة الذهاب حيث أحبَّ (..فلحق بعبد الرحمن بن مخنف عند مصعب بن الزبير بالبصرة)[1] حيث التحق هناك كل الفارين من أشراف الكوفة ووجهائها.

ولا بد أن أبيات سراقة قد فشت بين الهاربين، ولا بد أنه كان سيعاقب عليها ولن يتيحوا له فرصة الإنضمام إليهم، لولا أنه زاد في قصته فصلًا كاذباً.

وهنا يقول راوية آخر لهذه القصة، إن سراقة لما انتهى إلى المختار قال له: (...سراقة بن مرداس يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض.

فقال له المختار: فاصعد المنبر فأعلم ذلك المسلمين، فصعد فأخبرهم ثم نزل. فخلا به المختار، فقال: إني قد علمت أنك لم تر الملائكة، وإنما أردت ما قد عرفت إلا أقتلك، فاذهب عني حيث أحببت، لا تفسد عليَّ أصحابي)[2].

هل رأى ابن مرداس ما لم يره الصحابة في بدر.. وهل يصدق أهل الكوفة ذلك

أي مجتمع هذا يصدق ما سيدعيه ابن مرداس. فالملائكة قاتلت مع الرسول ﷺ في بدر، ثم جعل الله النصر رهيناً بمجهود المسلمين وسيوفهم وحدها بعد ذلك، ولم يدّع أحد، مهما سما مقامه وكان مقرباً من الرسول ﷺ على الادعاء بأن الملائكة كانت تقاتل معه، فكيف يجرؤ المختار على الادعاء - في مجتمع واعٍ ناقد - بذلك؟

لا بد أنه أراد أن يرى الناس مَن هم أعداؤه، وكيف يكذبون وينافقون لمجرد تخليص أنفسهم من الموت.

يشهد بذلك ابن مرداس الكاذب نفسه الذي أرادوا أن يجعلوه أداة للطعن في المختار. يقول ابن مرداس: (ما كنت في إيمان حلفت بها قط، أشد اجتهاداً ولا مبالغة في الكذب مني في أيماني هذه التي حلفت لهم بها أني قد رأيت الملائكة معهم تقاتل)[3].

من الذي أجبره على تلك الإيمان التي حلف لهم بها غير جبنه وفراره من الموت؟ ومع ذلك فإن هذا الكاذب المتعمد يدّعي بأنه عندما أُسر على يد أصحاب

---

(١) - (٣) نفس المصدر ٣/ ٤٦١.

المختار قال لهم: (وأنتم أسرتموني إما أسَرَني الأقوم على دوّاب بُلق عليهم ثياب بيض، فقال المختار: أولئك الملائكة، فأطلقه)[1] بهذه البساطة، وبشهادة هذا الكاذب، صدق أهل الكوفة بأن الملائكة كانوا يقاتلون معهم!

روايات واهية

ولو تتبعنا مصادر هذه الرواية، أبو السائب، سلم بن جنادة، محمد بن براد من ولد أبي موسى الأشعري، شيخ (غير معروف الهوية) لأدركنا كيف أنها رواية واهية لا يصح الاستناد عليها وروايتها، اللهم إلا لمجرد جمع كل ما قيل بحق المختار، ثم تترك حرية التقويم والنقد للقارىء المتتبع الواعي.

وهكذا ذيّلوا تلك القصة الغريبة ببيتين من الشعر نسبوهما لسراقة للتدليل على عدم شرعية دعاوى المختار، كما هو حالهم مع كل من التزم خط آل البيت عليهم السلام بل مع آل البيت عليهم السلام أنفسهم، فقالوا إن سراقة قال بعد فراره والتحاقه بمصعب وأشراف أهل الكوفة الهاربين.

(ألا أبلغ أبا إسحاق أني ... رأيت البُلق دُهماً مصمتاتِ
أُريَ عينيَّ ما لم ترأياه ... كلانا عالمٌ بالترهاتِ)[2]

وبهذين البيتين (دلّلوا) على قوة الحبك والنسيج في هذه الرواية التي أضافوها إلى تلفيقاتهم الشائنة بحقه.

وقعة جبّانة السبيع

كانت وقعة جبّانة السبيع التي حدثت في ذي الحجة سنة ست وستين معركة فاصلة بذل فيها أشراف الكوفة الخائنون كل جهدهم للقضاء على المختار رغم أنهم بايعوه وأعلنوا موالاتهم له. إلا أنهم سرعان ما غَدَروا به بعد أن حسبوا أن بإمكانهم القضاء عليه، فلم يعد لهم الآن عهد ولا ذمام وأصبح الانتصاف منهم بعد فعلهم مع الإمام الحسين عليه السلام في الطف ونواياهم الشريرة لموالاة أعداء أهل البيت عليهم السلام مهما كانت هوياتهم وغدرهم بمن يطالب بدم الحسين والانتصاف للمظلومين والضعفاء، أمراً يجب الإفصاح عنه بكل وضوح.

---

(١) و(٢) نفس المصدر ٣/ ٤٦١.

وهكذا (تجرد المختار لقتلة الحسين، فقال: ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين يمشون أحياء في الدنيا آمنين. بئس ناصر آل محمد أنا إذاً في الدنيا! أنا إذاً الكذاب كما سمّوني! فإني بالله أستعين عليهم. الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربهم به، ورمحاً طعنهم به، وطالب وترهم، والقائم بحقهم، إنه كان حقاً على الله أن يقتل من قتلهم وأن يذلّ من جهل حقهم. فسمّوهم لي ثم اتبعوهم حتى تفنوهم.

اطلبوا لي قتلة الحسين، فإنه لا يسوغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، وأنني المصر منهم...)[1].

لقد صرّح أخيراً بما لمّح به من قبلُ أمام الآخرين وإن كان لم يخفِ ذلك عن خواصه. وكان الظرف الدقيق الذي مرّ به من قبل لم يتح له تحقيق غرضه وإعلان أهدافه، حتى إن بعض أعدائه اعتقدوا أنه إنما كان يتاجر بشعارات لا ينوي تطبيقها ومنها شعار الثأر لآل محمد ﷺ حتى سمّوه (الكذاب)، وذلك ضمن حملتهم المحمومة لتشويه سمعته للأغراض التي ذكرناها من قبل...

أما الآن، وبعد أن كشف أولئك الأعداء عن نواياهم المعادية لخط آل البيت عليهم السلام ولكل من ينادي بحقهم ويعرف حقيقة مقامهم ومركزهم، وبدأوا هم العدوان أولًا، فلم يعد من سبب يدعو المختار للسكوت وإخفاء نواياه التي كانت معروفة على أية حال، وبدأ حملةَ استئصال وقتلِ قتلةِ الحسين وأصحابه. وبدأ فصل جديد من فصول المعركة بين المختار وأعدائه، فالإصرار على الجريمة لا بد أن يُقابَل بالإصرار على العقوبة.

«..أين الحسين؟» محاسبة القتلة

وكان لعبد الله بن أسيد الجهنيّ ومالك بن النسير البدي وحَمَل بن مالك المحاربي دور كبير في معركة الطف حيث شاركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وحرضوا الناس عليهم وكانوا يبدون حماساً كبيراً ليبدو حمام الدم الذي أعد له ابن زياد لا مثيل له. كانوا قتلة مباشرين ومنفذين للجريمة، ولم يكن هناك من سبب يدعوهم لذلك، فهم من عوام الناس المغمورين، ولم يكد أحد من أقطاب الدولة وزعمائها يلتفت إليهم لولا ما قاموا به. ولم تكن لهم امتيازات خاصة يخافون فقدانها

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٦٢.

عندما تصدّى الحسين عليه السلام لدولة الظلم التي كانت تستعبدهم هم أيضاً مع عموم جماهير المسلمين.

وكان اندفاعهم وتحيّزهم الواضح ضد الحسين وأصحابه غير مبرر ولم يكن هناك ما يدعو إليه. . . فهل كانوا من آل أبي سفيان أو آل زياد أو آل مروان حتى يبديا ذلك الاندفاع وذلك الحماس اللذين ظهرا بهما أمام الناس؟

إن ظاهرة ابن أسيد وابن النسير وابن مالك تتكرر وتظهر في ظل دول الظلم المتعاقبة إلى يومنا هذا، وفي الوقت الذي ترى فيه هذه الدول ضرورة تشجيع هذه النماذج لتحقيق أهدافها ومآربها، فإن أي رافض للظلم يرى ضرورة القضاء على هذه الفئة واستئصالها، ليس بدنياً وحسب وإنما يلفت نظر المجتمع إليها وتحذير الناس منها وتوعيتهم بضرورة التزام خط الإسلام الذي يقود لدولة العدالة حتماً، وحتى جزاء هؤلاء ينبغي أن يكون بمستوى الجرائم التي يرتكبونها.

بعث المختار مَن أَخذَ القتلة الثلاثة، (حتى أدخلهم عليه عشاء، فقال لهم المختار: يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله، أين الحسين بن علي؟ أدوا إليَّ الحسين، قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه في الصلاة.

فقالوا: رحمك الله، بُعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا.

قال المختار: فهلّا مننتم على الحسين ابن بنت نبيّكم واستبقيتموه وسقيتموه؟

ثم قال المختار للبدّي: أنت صاحب برنسة؟

فقال له عبد الله بن كامل: نعم هو هو.

فقال المختار: اقطعوا يدي هذا ورجليه، ودعوه فليضطرب حتى يموت، ففعل ذلك به وترك، فلم يزل ينزف الدم حتى مات.

وأمر بالآخرين فقدّما[1].

يتكرر عذر القتلة المندفعين والسائرين بركاب حكام الجور دائماً عندما تطالهم يد العدالة ويتخلى عنهم مَن كانوا يحمونهم. (بعثنا ونحن كارهون) (كنا مجبرين على ذلك)، غير أن الكاره والمجبر لا يندفع ذلك الاندفاع الطائش المسعور الذي اندفع به

---

(١) الطبري ٣/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣
وقد مرّ بنا ما قام به مالك بن النسير البدي مع الحسين وأصحابه عليهم السلام من قبل.

هؤلاء، وكأنهم يقتلون قَتَلةَ آبائهم أو أخوانهم أو أبنائهم أو كأنهم يدافعون عن ملكهم وسلطانهم لا عن ملك وسلطان من لا يمت إليهم بصلة ومَن يقوم بقهرهم واستعبادهم.

لقد تحدثنا عن هذه الظاهرة التي تتكرر في ظل دول الظلم ولا تزال تتكرر إلى يومنا هذا[1]، واستمعنا إلى نفس الأعذار التي يبديها جنود مغمورون مندفعون وراء شعارات الحكام وأكاذيبهم المضللة، بعد أن يقعوا في الأسر.

وتكرر الأمر مع آخرين شاركوا بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه أو أعانوا على قتلهم مثل زياد بن مالك وعمران بن خالد وعبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني وعبد الله وعبد الرحمن ابنا صلخب وعبد الله بن وهب بن عمرو وعثمان بن خالد بن أسير الدهماني وبشر بن سوط القابضي وخولي بن يزيد الأصبحي (وهو صاحب رأس الحسين الذي جاء به) وحرملة بن كاهل الأسدي[2] وحكيم بن الطفيل السنبسي (وكان قد أخذ سلب العباس ورماه بسهم) وعمرو بن صبيح الصيداوي وزيد بن رقاد الذي قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وبجدل بن سليم الكلبي، الذي سلب خاتم الحسين وقطع أصبعه؛ وغيرهم.

ولم يزل المختار يتتبّع قتلة الحسين وأصحابه حتى قتل منهم أعداداً كبيرة وهدم دور من انهزموا منهم ملتحقين بمصعب بن الزبير.

لا بد من تتبع القتلة

وكان لا بد من تتبّع القتلة الرئيسيين والقضاء عليهم، فلم يكن من ذكرنا من قبل سوى قتلة ثانويين أرادوا إرضاء أسيادهم والظهور أمامهم بمظهر المنحاز للدولة

---

(١) راجع ما كتبنا عن ذلك في هذا الكتاب الطبري ٣/ ٤٦٣/ ٤٦٤ والبحار ٤٥/ ٣٢٢ - ٣٢٣ وقد ذكر نقلاً عن أمالي الطوسي عن المنهال بن عمرو قال: (دخلت على علي بن الحسين منصرفي من مكة، فقال لي: يا منهال: ما صنع حرملة بن كاهل الأسدي؟ فقلت: تركته حياً بالكوفة. قال: فرفع يديه جميعاً ثم قال عليه السلام: اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار). وقد لقي المنهال المختار في الكوفة وكان قد أخبر بمكان حرملة فوجّه من يأتي به إليه ثم أمر بمن قطع يديه ورجليه ثم أمر بإلقائه في النار. وقد أخبر المنهال المختار بدعوة الإمام علي بن الحسين عليه السلام على حرملة فنزل عن دابته وصلى ركعتين فأطال السجود ثم صام يومه ذاك شكر الله عز وجل ما فعله.

(٢) نفس المصدر.

الحريص عليها، والقتلة الرئيسيون أمثال ابن سعد وابن زياد كانوا يحرصون على رضا سيدهم يزيد وقد حسبوا أن حياتهم بيده ومستقبلهم وسعادتهم، وكانوا يريدون ثمناً مقابل تنفيذ جريمتهم، بل كانوا أحرص الناس على نيل ذلك الثمن

ابن سعد: خوف دائم من المختار

ولم تكن نوايا المختار لاستئصال قتلةِ الحسين وأصحابه عليه السلام مما يخفى عن ابن سعد الخائف الذليل، والذي أخذ منذ ظهور حركة التوابين بقيادة سليمان بن صرد، يبيت في قصر الإمارة خوفاً من أن يقتل في بيته[١]، وقد سعى للحصول على الأمان من المختار الذي كان جاداً بتنفيذ ما أعلنه منذ البداية وكان يبدو صادقاً وحريصاً على المضي إلى النهاية في ما أعلنه، وهو الأمر الذي أرعب كل من ساهم بجريمة قتل الحسين وأصحابه، ولا بد أن ابن سعد، قائد جيش الجريمة ـ كان أكثر الجميع خوفاً من المختار. . وقد استغل حرص هذا الأخير على تألف الناس وجمعهم حوله، كما استغل احترامه وتقديره لعبد الله بن جعدة بن هبيرة، قريب أمير المؤمنين عليه السلام، لأخذ ذلك الأمان الذي كتبه المختار بصيغة تحتمل التأويل.

صيغة أمان تحتمل التأويل

وقد كان تلميح المختار الواضح إلى عزمه على قتل ابن سعد هو الذي جعله يسعى لأخذ الأمان منه. .

فقد حدّث المختار جلساءه ذات يوم قائلًا: (لأقتلن غداً رجلًا عظيم المقدمين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسرّ مقتله المؤمنين والملائكة المقربين)[٢] وهي إشارة واضحة لابن سعد، ما كانت تخفى عن جلسائه، الذين سارع أحدهم بإخبار ابن سعد حول نيّته الواضحة تلك.

وهكذا سارع ابن سعد للاحتماء بعبد الله بن جعدة بن هبيرة وحثه على أخذ الأمان له من المختار الذي ما كانت لتفوقه مساعي ابن سعد واحتمال محاولاته حماية نفسه بمثل هذا الأمان، وكان يتوقع سعيه هذا فكتب صيغة تحتمل تأويلًا آخر لمعناها الظاهري إذ أنه نوى حقاً الإيقاع به وقتله في الوقت المناسب.

---

(١) راجع ما كتبناه عن عمر بن سعد في هذا الكتاب وفيه تفصيل واسع عنه.

(٢) الطبري ٣/ ٤٦٤ والبحار/ ٤٥/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

وكانت صيغة الأمان الذي كتبه المختار لابن سعد: (هذا أمان المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد بن أبي وقاص، إنك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخذ بحدث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرك.

فمن لقي عمر بن سعد من شرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس فلا يعرض له إلا بخير.

وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليفيَّن لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان. إلا أن يحدث حدثاً..)[١].

وقد ورد قول مهم نسب للإمام محمد بن علي عليه السلام يشير إلى قصد المختار بقوله: (إلا أن يحدث حدثاً، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث)[٢].

ولا نعتقد، من اطلاعنا على سيرة المختار، أنه كان يقصد بالحدث، الخروج عليه، بل نرجح هذا الأمر الثاني، لأنه كان منذ بداية أمره يكن كرهاً شديداً لقتلة الحسين عليه السلام ويرى قتالهم والقضاء عليهم كما رأينا بوضوح عند استعراض حركته، ولعل توريته بـ(الحدث)، الدخول إلى بيت الخلاء، يؤكد استهانته بشخصية ابن سعد المهزوزة، وعدم اكتراثه به، وقد تركه إلى النهاية، لاعتقاده أنه لن يجرؤ على الهرب، وسيقنع نفسه بصيغة الأمان التي تحتمل التأويل[٣].

---

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٣٦٤ والبحار ٤٥/ ٣٧٨.

(٣) وقد ورد خبر آخر، مفاده: إن الذي جعل المختار يقدم على قتل ابن سعد، إن أحد أهل الكوفة التقوا بمحمد بن الحنفية، (فجرى الحديث، إلى أن تذكروا المختار وخروجه، وما يدعو إليه من الطلب بدماء أهل البيت. فقال محمد بن الحنفية: على أهون رسله، يزعم أنه لنا شيعة، وقتلة الحسين جلساؤه على الكراسي يحدثونه..) الطبري ٣/ ٤٦٥. وقد أخبر الرجل المختار بذلك، فعمد إلى قتل عمر بن سعد وابنه، وبعث برأسيهما إلى ابن الحنفية، وكتب إليه رسالة ورد فيها: (فإن الله بعثني نقمة على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير، وطريد وشديد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته ـ رحمة الله عليهم ـ كل من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقي. ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني إن على أديم الأرض منهم أديما) الطبري ٣/ ٤٦٥.

هروب ابن سعد ورجوعه إلى الكوفة: «..إن في عنقه سلسلة سترده»

حاول ابن سعد الهرب، وخرج من داره، ثم عاد إليها، وبخروجه عن (رحله وأهله) كما ورد بوثيقة الأمان، خرق ظاهرياً بنود الأمان الذي حصل عليه من المختار.

وتفصيل الأمر: إن أحد جلساء المختار، بعث ابنه لابن سعد، محذراً إياه من عزم المختار على قتله. وعندما علم بذلك (...خرج من تحت ليلته حتى أتى حمّامه، ثم قال في نفسه: انزل داري. فرجع، فعبر الروحاء، ثم أتى داره غدوة، وقد أتى حمّامه.

فأخبر مولى له بما كان من أمانة وبما أريد به. فقال له مولاه: وأي حَدَثٍ أعظم مما صنعت؟ إنك تركت رحلك وأهلك وأقبلت إلى هاهنا. ارجع إلى رحلك، لا تجعلن للرجل عليك سبيلًا. فرجع إلى منزله.

وأتي المختار بانطلاقة، فقال: كلا، إن في عنقه سلسلة سترده. ولو جهد أن ينطلق ما استطاع..

وأصبح المختار فبعث إليه أبا عمرة، وأمره أن يأتيه به. فجاءه حتى دخل عليه، فقال: أجب الأمير. فقام عمر، فعثر في جبة له، ويضربه أبو عمرة بسيفه، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار.

فقال المختار لابنه حفص بن عمر بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده. قال له المختار: صدقت، فإنك لا تعيش بعده، فأمر به فقتل، وإذا رأسه مع رأس أبيه.

ثم إن المختار قال: هذا بحسين، وهذا بعلي بن حسين. ولا سواء. والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله..)[1].

وهكذا انتهت حياة ذلك العبد الذليل من عبيد دولة الظلم الأموية، وما كان لها أن تذكر أو تلفت نظر التاريخ إليها، لو أن صاحبها لم يكن له ذلك الدور المقيت في جريمة قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام وكان هو قائد الجيش الذي نفذ تلك الجريمة،

---

(١) المصدر السابق /٣/ ٤٦٥ وورد في البحار أنه قال: (والله لاقتلن سبعين ألفا، كما قتل يحيي بن زكريا) بحار الأنوار ٤٥/ ٣٧٩.

وقد ضاعت أمنياته هباء بعد أن لم يف له أمره بما وعده به، كما ضاعت حياته هباء، وأمامه الآن حساب عسير عليه أن يواجهه، وأنى له الخلاص منه.

ادعاء النبوة.. افتراء وكذب على المختار

وبعد أن استتم للمختار القضاء على المشاركين بقتل الحسين وأصحابه في الكوفة، ووصل خبر ذلك إلى بعض أصحابه في البصرة وكان يقودهم المثنى بن مخربة العبدي، دعا المثنى إلى البيعة للمختار بالبصرة أهلها، إلا أن القيادة الزبيرية في البصرة وأعوانها تصدّت لهم بشدة واستمالت إلى جانبها رؤساء القبائل الذين كانوا يحسبون لكل شيء حسابه ويميلون مع الكفة التي يظنون أنها ستنتصر في النهاية، إذ لم يبد لهم المختار أنه الذي سينتصر، خصوصاً وإن الدولتين المتنافستين الأموية والزبيرية تحاربانه بنفس الحماس الذي تحاربان به بعضهما البعض.

وقد فشل المثنى في محاولاته واستطاع الوصول إلى الكوفة في نفر يسير من أصحابه وأخبر المختار عن محاولاته دعوة أهل البصرة إليه ونصرة بعضهم إياه دون أن يكونوا قد استجابوا لتلك الدعوة.

ومن الطبيعي أن لا تتوقف مساعي المختار لاستمالة أهل البصرة وغيرهم إليه ليتسنى له الصمود بوجه الدولتين الزبيرية والمروانية اللتين كانتا تبذلان جهوداً جبارة للقضاء عليه.

وهنا تثار حملة من الافتراءات الظالمة ضده باعتبار أنه أحد مدّعي النبوة، وإنه قد ذكر ذلك برسالتين أرسل إحداهما لمالك بن مسمع وزياد بن عمر ـ اللذين نصرا المثنى ـ وفيها يقول لهما ـ على حد زعم ناقل الرواية: (. . .أما بعد فاسمعا وأطيعا أوتكما من الدنيا ما شئتما، وأضمن لكما الجنة . .)[1]، ويدل جوابهما الذي ننقله في الهامش أن المختار لم يعرض عليهما شيئاً محدداً، ولعله كان يعتقد أن من ينصر

(١) وهي رواية وردت عن طريق رجلين من أهل البصرة لم يكونا من أصحاب المختار أو ممن يواليه أو يميل إليه وقد ورد فيها أيضاً إن مالك قال لزياد (. . يا أبا الغيرة، قد أكثر لنا أبو إسحق إعطاءنا الدنيا والآخرة، فقال زياد لمالك مازحاً، أما أنا فلا أقاتل نسيئة، من أعطانا الدراهم قاتلنا معه) الطبري ٣/ ٣٦٨ وهو جواب لا نستدل منه إن المختار حاول رشوتهما، كما نلمس منه الميل العام للقتال تحت راية من يدفع أكثر من غيره.

قضيته التي كان يعتقد أنها قضية عادلة حقاً سينال الجنة دون شك، وهنا نتساءل ما هي الوسائل والادعاءات التي عمدت إليهما القيادتان الزبيرية والمروانية وغيرهما من القيادات غير الشرعية سوى التلويح بالدنيا ومكاسبها والآخرة التي ادّعوا ضمان الجنة فيها للناس إذا ما أطاعوهم باعتبار أنهم (أولي الأمر) الذين أمر الله باتباعهم وطاعتهم،! مستفيدين بذلك من الأحاديث الموضوعة على لسان رسول الله ﷺ كذباً وزوراً.

ولو كان المختار قد نجح حتى النهاية واستولى على مقدرات المسلمين في كافة أرجاء الوطن الإسلامي أو معظمه وأخضع الناس لقيادته، ألم يكن يجد العديدين ممن يطلبون ويزمرون له باعتبار أن قيادته هي القيادة الشرعية الوحيدة الجديرة بأن تسير وراءها الأمة، ما دام قد تغلب وأصبح وجوده أمراً واقعاً..؟

وتمضي الرواية لتأكيد ادعاء المدعين حرص المختار على ادعاء النبوة برسالته التي أرسلها للأحنف والتي جاء فيها بزعمهم: (..أما بعد، فويل أم ربيعة من مضر، فإن الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصدَد، وإني لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغني أنكم تسمونني كذاباً، وقد كُذِّب الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم)[1].

وهنا ينبغي أن لا يغيب عن البال موقف بعض الشعراء المنحازين لدولتي ابن الزبير وابن مروان، وحرصهم على تسميته بـ(الدجال) إذ لم يجدوا وقد مرّغ كرامتهم وكبرياءهم بالوحل غير هذه الوصمة يلصقونها به بعد أن أعياهم أمره وكاد أن يفضحهم بين جماهير المسلمين ويكشف أساليبهم الملتوية لنيل السلطة والاستحواذ على مقدرات المسلمين.

---

(١) الطبري ٤٦٨/٣ وقد ورد نص آخر للرسالة نفسها جاء فيه (.. فإن الأحنف مورد قومه سقر. حيث لا يقدرون على الصّدَر، وإني لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغني إنكم تكذبوني، وإن كذبت فقد كذب رسل من قبلي، ولست أنا خيراً منهم). المصدر السابق ٣/ ٤٧٩ وقد ورد إن هذا الرسالة المفتعلة قد أبرزها الأحنف بعد ان عيِّر من قبل أحد الشعراء الكوفيين الذي ذَمَّ بقصيدته أهل البصرة وذكرّهم بهزعيتهم يوم الجمل، مما أثار حفيظته وأمر بإبراز تلك الرسالة المفتعلة، التي يطبل ويزمر لها من يريد النيل من المختار، ويدلنا الاختلاف في النصفين إن الرسالة لم تكن مكتوبة وإنها قد لفقت على المختار.

إن أبيات من الشعر يقولها أحد الشعراء الموالين لدولة الزبيريين أو المروانيين ليست حجة يتخذها مدّعوا البحث والدراسة للنيل من عدوهم المختار الذي بدا أنه كان يسعى لهدف واحد وهو الإطاحة بدولتي الظلم المذكورتين والثأر للحسين عليه السلام والتمهيد لحكومة آل محمد صلى الله عليه وآله من ولد الحسين.

المختار: لا لابن الزبير لا لآل مروان

إن الوقائع التاريخية ـ حتى تلك التي وصلت إلينا من مصادر خبرية مناوئة للمختار، تؤكد حقيقة واحدة مهمة وهي عدم استعداده للسير خلف قيادة ابن الزبير، ناهيك عن القيادة المروانية، رغم ما قيل عن استعداده لقبول ابن الزبير إذا ما قبل هذا بدوره أن يشركه في الحكم.

وقد تعرضنا لهذا البحث من قبل، إلا أن الوقائع التي ترد هنا تؤكد تلك الحقيقة، كما تؤكد أن المختار كان يعرف استعدادات خصمه للمراوغة والخديعة فأعد للأمر عدته، بل إنه أرهقه بما أعدّه هو من خطط وأساليب من شأنها أن تبعد أذاه وشره.

وقد رأينا معركته مع ابن مطيع وأشراف الكوفة الذين انحازوا إليه بعد أن كانوا يقفون في صف الدولة الأموية. والذين قاموا بقتل الحسين عليه السلام استجابة لأوامرها، وشهدنا المعارك الملحمية التي خاضها ضدهم بعد أن ظلوا مصرين على مواقفهم بمناوئة أهل البيت والوقوف إلى جانب دولة الظلم مهما كان شكلها واتجاهها، وكيف أنه انتصر عليهم في النهاية وهزمهم هزيمة ساحقة وألجأ ابن مطيع وبعض أشراف الكوفة إلى الهرب إلى البصرة بعد أن لم يستطيعوا الثبات بوجهه وبعد أن قتل أعداداً كبيرة منهم في معارك طاحنة جرت في ساحات الكوفة وأزقتها.

وفي هذا الوقت الذي صفا له فيه جو الكوفة، وهو الأمر الذي سيزعج عدويه اللدودين ـ ابن الزبير وابن مروان ـ أيما إزعاج حاول القيام بعملية من شأنها الإطاحة بابن الزبير أولًا، إلا أن محاولته تلك لم تنجح بسبب مكيدة قام بها القائد الذي أرسله ابن الزبير إلى المدينة.

وتفصيل الخبر: أن ابن الزبير أرسل عمر بن عبد الرحمن بن هشام والياً من قبله على الكوفة لمعرفة نوايا المختار الحقيقية تجاهه، وقد كان من الفطنة والعلم بشؤون المختار ما ادعاه للتشكك بأمره والخوف منه رغم الرسائل التي كان يبعث بها

المختار إليه ويحاول طمأنته بها[١]. وهو يحاول مخادعته وكفه عنه حتى يستجمع له الأمر، على حد تعبير الطبري.

تكتيك في أيام الحرب

وقد استطاع المختار منع (الوالي) الجديد من دخول الكوفة. إلا أن حدثاً آخر بدأ يلوح في الأفق، فقد أُخبر المختار (أن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق، فعرف أنه به يُبدأ، فخشي أن يأتيه أهل الشام من قبل المغرب، ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة، فوادع ابن الزبير وكايده. وكان عبد الملك بن مروان قد بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى، والمختار لابن الزبير مكايد موادع.

فكتب المختار إلى ابن الزبير:

أما بعد، فقد بلغني أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً، فإن أحببت أن أمدك بمدد أمددتك)[٢].

وكان ابن الزبير من أعلم الناس بنوايا المختار تجاهه، وما كانت لتفوته مناورته

(١) ومن الرسائل التي كتبها إليه: (أما بعد، فقد عرفت مناصحتي إياك وجهدي على أهل عداوتك وما كنت أعطيتني إذا ما فعلت ذلك من نفسك، فلما وفيت لك وقضيت الذي كان لك عليّ، خستَ بي، ولم تف بما عاهدتني عليه، ورأيت مني ما قد رأيت، فإن ترد مراجعتي أراجعك وأن ترد مناصحتي أنصح لك. وهو يريد بذلك كفه عنه، حتى يستجمع له الأمر..) الطبري ٣/ ٤٧٠ وابن الأثير ٤/ ٥٠ والبلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٤٣.

(٢) الطبري ٣/ ٤٧١ والبلاذري/ أنساب الأشراف ذ ـ ٢٤٦ وذكر ابن الأثير / إن المختار كتب إلى ابن الزبير: إني قد اتخذت الكوفة داراً. فأن سوغتني ذلك وأمرت لي بألف ألف درهم سرت إلى الشام فكفيتك ابن مروان، فقال ابن الزبير: إلى متى أماكر كذاب ثقيف ويماكرني ثم تمثل شعراً:

عادي الجواعر من ثمود أصله ... عبدٌ ويزعم انه من يقدم

وكتب إليه: والله ولا درهم:

ولا افتري عبد الهوان بدرّتي ... وإني لآتي الحتف ما دمت أسمع)

ابن الأثير ٤/ ٥٠ ونرجع إلى أن يكون المختار قد كتب النص الذي ذكره الطبري الذي عني بذكر معظم التفاصيل عن المختار وحركته.

تلك بعد أن خبره وعلم حقيقته وحبّه آل البيت عليهم السلام وسعيه الحثيث للأخذ بثأر الحسين عليه السلام الذي جعله هدفه الأول والأخير.

وقد كتب إليه قائلًا: (فإن كنت على طاعتي، فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي الناس قبلك، فإذا أتتني بيعتك، صدّقت مقالتك وكففت جنودي عن بلادك، وعجّل عليّ بتسريح الجيش الذي أنت باعثه، ومرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم)[1].

ويبدو من مضمون هذه الرسالة أن ابن الزبير كانوا ينوي مقاومة المختار وإرسال جيش لاحتلال الكوفة، وهو أم لم يكن ليفوت المختار على أية حال.

مناورات ومناوشات

وقد عجل المختار بإرسال الجيش إلى المدينة لمخادعة ابن الزبير وإيهامه أنه إنما كان يستجيب لمطاليبه، غير أنه أوصى قائد الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف أن يكتب إليه متى ما وصل هناك، ليتسنى له أن يرسل أميراً من قبله عليها وليمضي هذا القائد إلى مكة لمحاصرة ابن الزبير وإجباره على الاستسلام.

وكانت مناورة بارعة لم تفت ابن الزبير أيضاً، وقد سارع فبعث بدوره جيشاً إلى المدينة في الفين وأمر قائده أن يستنفر الأعراب وقال له: (إن رأيت القوم في طاعتي فأقبل منهم، وإلا فكايدهم حتى تهلكهم..)[2].

وكان قائد ابن الزبير بمستوى المهمة التي بعثه بها سيده، إذا استطاع القضاء على الجيش الذي بعث به المختار بطريقة ماكرة وقتل معظمهم رغم أنه رفع راية أمان لهم.

وقد آلم ذلك المختار، إلا أنه تجلد، وحاول أن يعيد الكره ويبعث جيشاً آخر إلى المدينة، يؤازره في ذلك محمد بن الحنفية نفسه، إذ طلب منه أن يبعث رسلًا إليها إنه في طاعته وإنه إنما بعث الجند عن أمره[3]..

(١) الطبري ٣/ ٤٧١ وابن الأثير ٤/ ٥١ مع بعض الاختلاف اليسير في النص.

(٢) الطبري ٣/ ٤٧١ وابن الأثير ٤/ ٥١.

(٣) وكتب إليه (أني كنت بعثت جنداً ليحروا لك البلاد، ويدوخوا الأعداء، فلما صاردا بطية لعبتهم جند الملحد فخذعوهم وعزوهم، فإن رأيت أن أبعث إلى المدينة خيلاً وجنداً كثيفاً، وتبعث من قبلك البيت أراف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين) البلاذري/ أنساب الأشراف ٥/ ٢٤٧ والطبري ٣/ ٤٧٢ وابن الأثير ٤/ ٥٢ مع اختلافات يسيرة في النصوص.

غير أن ابن الحنفية الحذر والحريص على عدم استفزاز عدو آل البيت اللدود، ابن الزبير، الذي ما كان ليتورع عن استئصالهم وقتلهم والذي كان يكنّ لهم حقداً عميقاً، لم يستجب استجابة ظاهرية للمختار، مع أنه كان يتمنى أن ينشغل ابن الزبير بحروب ومشاكل تقي الناس شره وتدفع أذاه.

وقد كتب رسالة للمختار لا توحي بأنه كان يريد منعه من مواجهة ابن الزبير غر أنها تشير إلى أنه كان يريد أن يظل بمعزل من الصراعات الدائرة، وجاء في رسالته: (... إن أحبَّ الأمور كلها إليَّ ما أطيع الله فيه، فأطع الله ما استطعت فيما أعلنتَ وأسررتَ، واعلم أني لو أردت لوجدتَ الناس إليَّ سراعاً. والأعوان لي كثيراً. لكنني أعتز لهم، وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)[1].

ابن الزبير: أساليب ومواقف أموية

ورغم موقف محمد بن الحنفية الواضح، وعدم سعيه لمنافسة ابن الزبير وعرقلة مشروعه لنيل السلطة، فإن هذا الأخير لم يكتف بذلك وإنما أراد إجباره على مبايعته، وقد (حبس محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته وسبعة عشر رجلًا من وجوه أهل الكوفة بزمزم، كرهوا البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة، وهربوا إلى الحرم، وتوعدهم بالقتل والإحراق. وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلًا)[2].

وربما كان موقف ابن الزبير ذاك من محمد بن الحنفية (إنه خاف أن يتداعى الناس إلى الرضا به، فألح عليه وعلى أصحابه في البيعة له)[3] بعد أن استولى المختار على الكوفة وأفصح عن شعاراته وقتل من شاركوا بقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.

وهنا، وأمام عزم ابن الزبير تنفيذ ما وعد بتنفيذه وإصراره على تنفيذ عقوباته، لم يجد محمد بن الحنفية بداً من الاستنجاد بالمختار لإنقاذه وأصحابه مما قد يحل بهم، وقد أرسل إليه هذه الرسالة:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن علي ومن قبله من آل رسول الله إلى المختار بن أبي عبيد ومن قبله من المسلمين.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٧٢ وابن الأثير ٤/ ٥٢ مع بعض الاختلافات اليسيرة في النص.

(٢) الطبري ٣/ ٤٧٣ وابن الأثير ٤/ ٥٢.

(٣) ابن الأثير ٤/ ٥٢.

أما بعد: فإن عبد الله بن الزبير أخذنا وحبسنا في حجرة زمزم، وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لنبايعنه أو ليضرمنها علينا بالنار. فيا غوثاً)[1].

وقد سارع المختار بإرسال نجدات متتابعة لإنقاذه وتخليصه من ابن الزبير، ووصل أكثر من خمسمائة فارس إلى مكة منادين: يا لثارات الحسين حتى انتهوا إلى زمزم حيث حبس محمد بن الحنفية وأصحابه، وقد أعدَّ ابن الزبير الحطب ليحرقهم وقد خلصوهم وطلبوا من ابن الحنفية السماح لهم بمقاتلة ابن الزبير، إلا أنه رفض ذلك قائلًا: (إني لا أستحل القتال في حرم الله)[2] و(خرج محمد بن الحنفية ومن معه إلى شعب علي وهم يسبّون ابن الزبير ويستأذون ابن الحنفية فيه، فيأبى عليهم، فاجتمع مع محمد بن علي في الشعب أربعة آلاف رجل)[3].

وبهذا ينتهي فصل مهم من أحداث تاريخنا لعبه المختار بمهارة ووعي وحسم.

المعركة الحاسمة مع ابن زياد

ويبدأ هنا أهم فصول معارك المختار مع أعدائه، فصل معركته الحاسمة مع جيش الشام الكبير بقيادة عبيد الله بن زياد وكبار أقطاب النظام الأموي أمثال الحصين بن نمير السكوني وعمير بن الحباب السلمي وشرحبيل بن ذي الكلاع وغيرهم.

ومن الغريب أن هذه المعركة غير المتكافئة من حيث العدد بين جيشي المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر وجيش ابن زياد الذي كان يقوده هو بسمعته المرعبة المعروفة، قد انتهت نهاية سريعة لصالح ابن الأشتر الذي كان عدد أفراد جيشه لا يتجاوز عشرة آلاف مقاتل بينما كان عدد أفراد جيش ابن زياد يتجاوز ثمانين ألف مقاتل

---

(١) اليعقوبي ٢٦١ وذكر الطبري ان محمد بن الحنيفة (وجّه ثلاثة نفر من أهل الكوفة حين نام الحرس على باب زمزم وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفة يعلمهم حاله وحال من معه، وما توعد به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ويسألهم الا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته. فقدموا على المختار) الطبري ٣/ ٤٧٣.

(٢) الطبري ٣/ ٤٧٣ وابن الأثير ٤/ ٥٣ ومن الطريق ان هؤلاء سمّوا بـ (الخشبية) لانهم دخلوا مكة وبأيديهم الخشب كراهة اشهاد السيوف في الحرم، وقيل أنهم أخذوا الحطب الذي أعده ابن الزبير لاحراق ابن الحنفية وأصحابه.

(٣) الطبري ٣/ ٤٧٣ وابن الأثير ٤/ ٥٣.

جاء بهم من الشام هذه المرة، ولم يكن وحيداً كما كان في المرة الأولى حين قدم الكوفة للتصدي للإمام الحسين عليه السلام، وتغلب على أهل الكوفة بأهل الكوفة.

كان ابن زياد منقذ العرش الأموي للمرة الثانية، مرّة عندما كاد أن يتهاوى بخروج الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة، ومرة عندما كاد الأمويون يستسلمون لابن الزبير ويبايعونه، وكان يبدو أمام الجميع الرجل الذي لا يغلب، وقد عزز من سمعته الأسطورية تفوقه في (معركة عين الوردة) وحمام الدم الذي أعده للتوابين هناك، رغم أن هؤلاء ـ مع أن عددهم كان قليلًا جداً ولا يقاس بجيشه الجرار ـ قد ألحقوا بذلك الجيش خسائر فادحة وقتلوا منه أضعاف عددهم.

وربما كان غضب ابن زياد هذه المرة وحقده على الكوفة عنيفاً لا يخفف منه إلا مشاهدته أنهار الدم تسيل هناك، فهو ما كان ليتسامح مع من رفضوه ثانية بعد موت يزيد، وثالثة بعد تغلب المختار وأصحابه، وحتى مع أولئك الذين هادنوا المختار ولم يحاربوه، إذ أن موقفهم المائع بنظره يجعلهم موضع شكه، وقد يستهدفهم بقمعه كما يستهدف إعداءه الظاهريين أيضاً.

انشغل ابن زياد عن الكوفة نحواً من سنة بأرض الجزيرة للقضاء على قيس عيلان الذين كانوا على طاعة ابن الزبير. ثم دخل الموصل التي كانت تابعة للمختار، فانحاز عاملها إلى تكريت وكتب للمختار بذلك، فوجه المختار جيشاً صغيراً إلى الموصل قوامه ثلاثة آلاف فارس، فأرسل إليهم ابن زياد ستة آلاف، غير أن جيش المختار هزمهم هزيمة منكرة رغم مرض قائده الشديد وإشرافه على الموت، وقد مات بعد تلك المعركة فعلًا.

وقد رأى القائد الذي خلفه الأثر السلبي الذي يمكن أن تتركه مواجهة جيشه المرهق الصغير لجيش ابن زياد الجرار الذي تجاوز ثمانين ألف مقاتل. فآثر الانسحاب بعد النصر الذي حققوه على طليعة ذلك الجيش.

وقد رأينا في غضون هذا الفصل كيف أن المختار دعا إبراهيم بن الأشتر، فعقد له على سبعة آلاف رجل وأمره أن يناجز ابن زياد بهم وببقية الجيش المنسحب من الموصل.

كما رأينا كيف حاول أشراف الكوفة، بزعامة شبث بن ربعي ـ الشريف المنقلب ـ استغلال غياب حوالي عشرة آلاف مقاتل من أصحاب المختار عن الكوفة، للوثوب

عليه، والقضاء على ثورته وأجمعوا على قتاله.. وانتظروا، حتى إذا بلغ إبراهيم ساباط وثبوا بالمختار.

وقد استطاع المختار أن يشاغلهم وأرسل يستدعي إبراهيم بن الأشتر الذي عاد مسرعاً، فكانت الدائرة على أشراف الكوفة، وقد أتيحت للمختار فرصة قتل العديدين ممن اشتركوا بقتل الحسين وأصحابه عليه السلام في كربلاء.

وعاد ابن الأشتر للمهمة التي انتدبه لها المختار وهي مواجهة ابن زياد وحربه، وكان هاجس جيش الكوفة الانتقام من ابن زياد شخصياً، وقد بدا لكل فرد من أفراد ذلك الجيش أنه عدو شخصي له وأنه قد ناله شخصياً بالأذى والشر، فقضية الحسين عليه السلام ظلت ساخنة متجددة في نفوسهم وضمائرهم. ولعلها القضية الأولى الكبيرة التي كان يحملها أفراد ذلك الجيش لمواجهة الجيش المرواني الأموي الذي تزعمه ابن زياد، ولو أن غير ابن زياد كان يقود ذلك الجيش الذي تجاوز ثمانين ألف جندي، لما استطاع جيش المختار الذي لم يبلغ عُشْرَه أن يتغلب عليه ويهزمه تلك الهزيمة المنكرة.

تعليمات المختار لابن الأشتر

اتخذ خروج إبراهيم بن الأشتر من الكوفة لقتال أهل الشام مظهراً احتفالياً جميلًا (..وأخرج المختار معه من وجوه أصحابه وفرسانهم وذوي البصائر منهم: ممّن قد شهد الحرب وجرّبها... ومضى معه يشيّعه إلى قناطر رأس الجالوت)[1] وقد أوصاه حين أراد أن ينصرف قائلًا:

(خذ عني ثلاثاً: خفِ الله في سر أمرك وعلانيته،

وعجل السيرَ،

وإذا لقيت عدوك فناجزهم ساعة تلقاهم،

(١) الطبري ٣/ ٤٧٦ وابن الأثير ٤/ ٥٧ مع اختلاف يسير في نص الوصية وذكر المجلسي ان المختار عندما خرج في تشييع إبراهيم بن الأشتر قال: (اللهم انصر من نصر، واخذل من كفر ومن عصى وفجر، وبايع وغدر، وعلا وتجبّر، فصار إلى سقر، ولا تبقي ولا تذر، ليذوق العذاب الأكبر..) البحار ٤٥/ ٣٧٩ وهو اسلوب بلاغي معروف ربما كان يريد به استنهاض همم أصحابه ممن ساروا مع إبراهيم..

وإن لقيتهم ليلًا فاستطعت ألا تصبح حتى تناجزهم،

وإن لقيتهم نهاراً فلا تنتظر بهم الليل حتى تحاكمهم إلى الله)[1].

وهي وصايا التزم بها ابن الأشتر غاية الالتزام، وكانت كفيلة بتحقيق النصر على عدوه فيما بعد.

قصة الكرسي.. من نسج الخيال الأموي الخصب

وهنا تطلع علينا قصة الكرسي المزعومة، وأغلب الظن أنها من نتاج الخيال الأموي الخصب أو نتاج خيال أعداء المختار، وقد زعم رواة القصة أن أصحاب المختار رفعوا كرسياً وقد عكفوا حوله وقد رفعوا أيديهم يستنصرون وإن إبراهيم استنكر فعلهم وإنهم انصرفوا عائدين.

ولو أن أصحاب المختار كانوا يعتقدون (بكرامة) ذلك الكرسي الذي زعم أصحاب الروايات أن المختار قد حاول إيهام الناس بأنه الكرسي الذي كان يجلس عليه أمير المؤمنين عليه السلام، لأخذوه معهم إلى حيث قابلوا ابن زياد ليرفعوا معنوياتهم بوجوده، ولكنها كانت أسطورة غبيّة لفّقها أشراف الكوفة المهزومون كشبث بن ربعي، حيث روى أحد أصحابه معبد بن خالد الجدلي، قال: (انطلق بي وبإسماعيل بن طلحة بن عبيد الله وشبث بن ربعي والناس يجرون إلى المسجد، فقال المختار: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر ألا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن فينا مثل التابوت. اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم، وكبروا ثلاثاً، فقام شبث بن ربع: يا معشر مضر لا تكفرن، فنحّوه فذبّوه وصدّوه وأخرجوه)[2].

أحقيقة أن أمر الكرسي قد هال شبث ولم يكن هاله من قبل قتل الحسين والجريمة التي شارك فيها هو بنفسه؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/٤٧٦ - ٤٧٧ وابن الأثير ٤/٥٧/٥٨.

دعايات وافتراءات.. أضاليل وأباطيل

ثم ما قصة هؤلاء السبئية الذين يظهرون ويختفون في كل حين يريد راوية طموح أو قاص خص الخيال ذلك.؟

إنك إذا ما رميت رواية على لسان أحد هؤلاء في بطن كتاب من كتب التواريخ وشاءت إحدى قوى الشر أن تستغلها دون أن تدع لأحد فرصة التمحيص والتدقيق والنظر، فإن أحداً لن يستطيع أن يقف بوجهها دون أن ينال أذاها وشرّها وتشهيرها...

أحقيقة أن الإسلام وأن رسوله ﷺ بالذات لم يتعرضا لحملة التشهير والدس والأكاذيب الأموية وغيرها..؟

وهل نجا آل البيت عليهم السلام وأتباعهم من حملات الأكاذيب المغرضة التي عرضتهم كخارجين عن الإسلام، مع أنهم الحملة الحقيقيون له؟

وهل من المعقول أن يمرّ حال المختار الذي مرغ كبرياء آل أمية وآل الزبير هكذا دون أن يتعرض لحملات التشويه المغرضة كتلك التي قيلت بشأن الكرسي المزعوم؟

إننا لا نعطي الرعاية الأموية حقها ولا نقدرها حق قدرها إذا ما حسبنا أنها تغفل عن أعدائها وأنها لا تعمد معهم إلى ما عمدت إليه مع أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، فاستهدفته بأكبر حملة تشويه ودس ظالمه.

وإذا ما رأى محبذوا تلك الدعايات المغرضة أن للأمويين أن يلجأوا إلى مختلف الوسائل والأكاذيب لتثبيت عروشهم وتوهين عدوهم، فلماذا يأخذون على غيرهم أن يقوم بأمور من شأنها أن تثبت معنوياتهم وترفعها، إذا صح أن هؤلاء الأعداء قد قاموا بتلك الأمور فعلاً؟

ولم نكن نعنى بالإشارة إلى قصة هذا الكرسي لولا أن عقولاً عديدة تبدو مستعدة لقبولها.

إن الموالين لآل البيت عليهم السلام لم يشركوهم مع الله عز وجل ولم يجعلوا منهم آلهة أو أصناماف تعبد دون الله.. غير أن من أطاع فراعنة أمية وكل فراعنة الظلم على مر العصور لمجرد أنهم تغلبوا وسادوا، هو الذي جعل من هؤلاء أصناماً يعبدون دون الله العزيز الجبار.

كما أن أولئك الذين بذلوا دمائهم لنصرة آل البيت والأخذ بثأرهم لم يكن يبهرهم منظر كرسي قيل أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد جلس عليه يوماً من الأيام، ولو طلبوا أمثال هذه الأمور لوجدوها عند ورثته عليهم السلام، ولاستغنوا بها منذ البداية عن ذلك الكرسي المزعوم[١].

معركة خازر

وقد نفذ ابن الأشتر أوامر المختار، فخرج بأصحابه مسرعين يريدون ملاقاة ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق ووغلوا في أرض الموصل حتى لقوه بخازر، بينها وبين الوصل خمسة فراسخ، وجعل على مقدمته الطفيل بن لقيط، رجلًا من قومه شجاعاً بئيساً، وأخذ لا يسير إلا على تعبيه وضم أصحابه كلهم إليه بخيله ورجاله، فأخذ يسير بهم جميعاً لا يفرقهم، إلا أنه يبعث الطفيل بن لقيط في الطلائع حتى نزل بخازَر[٢].

وقد وصل إبراهيم بن الأشتر خازر ـ موقع معركته مع ابن زياد ـ في مطلع سنة سبع وستين، ووصلت قبله سمعته وسمعة أصحابه الأسطورية التي جعلت جيش الشام يمتلىء منهم رعباً قبل أن ينازلهم، على حد تعبير أحد قادة ذلك الجيش نفسه، وهو عمير بن الحباب السلمي الذي أراد الانحياز بأصحابه والانضمام للمختار.

رأي في الحرب

وهنا يتطابق رأي عمير السلمي مع رأي المختار بشأن ساعة الشروع بالقتال. فقد رأينا أن المختار أوصى إبراهيم أن يعجّل المسير وأن يناجز القوم ساعة يلقاهم وأكد عليه أن يلتزم بوصيته تلك وأن لا يحيد عنها، وعند وصوله ـ ربما حاول إبراهيم

---

(١) ثم: ألم يعمد معاوية إلى الاحتفاظ بقميص كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وقلامات من أظافره وأمر بألباس القميص إذا ما مات وسحق القلامات ووضعها في عينيه وفي فيه ليرحمه الله ببركتها على حد زعمه، الطبري ٣/ ٢٦٢ ومع ذلك فانه يعمد إلى أذى الرسول وآله عليهم السلام بتلك الطريقة المخزية متمسكاً بخزعبلاته التي يمر عليها المؤرخون مر الكرام؛ ولو ان أحد أصحاب آل البيت فعل ذلك لوجدنا من يطبل ويزمر ويثير الضجيج ويتحدث بأسف عن الاسلام المنتهك والبدع التي تقوم مقام العبادات الصحيحة!!.

(٢) الطبري ٣/ ٤٧٩ وابن الأثير ٤/ ٦٠ والبحار ٤٥/ ٣٨٠.

جس نبض عمير ومعرفة حقيقة نواياه وموقفه، فسأله إن كان يرى أن يخندق عليه ويتريث يومين أو ثلاثة، وقد بدا عمير وكأنه قد أصيب بصدمة من ذلك الرأي الذي أبداه إبراهيم، وكأنه قد فزع منه، فقال له: (لا تفعل، إنا لله، هل يريد القوم إلا هذه! إن طاولوك وماطلوك فهو خير لهم، هم كثير أضعافكم، وليس يطيق القليلُ الكثير في المطاولة، ولكن ناجز القوم فإنهم قد ملئوا منكم رعباً، فأتهم فإنهم إن شاموا أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم، ومرة بعد مرة أنسوا بهم، واحترؤوا عليهم.

قال إبراهيم: الآن علمت أنك لي مناصح. صدقت، الرأي ما رأيت، أما إن صاحبي بهذا أوصاني، وبهذا الرأي أمرني.

قال عمير: فلا تعدّون رأيه، فإن الشيخ قد ضرسته الحروب، وقاسى منها ما لم نقاس. أَصبح فناهضْ الرجل)[1].

وشهادة عمير بشأن المختار وخبرته في الحروب شهادة لها شأنها وجديرة أن تشير إلى حقيقة ذلك الرجل المكافح الذي لم يخضع للظلم ولم يتنازل عن أهدافه وشعاراته.

إبراهيم بن الأشتر: كفاءة وقوة في الحرب

وتتجلى صلابة إبراهيم بن الأشتر وكفاءته وقوته الخارقة، بتلك المعركة الحاسمة التي خاضها مع جيش ابن زياد، فبعيد المسيرة السريعة من الكوفة إلى الموصل مباشرة، وفي نفس الليلة التي وصل فيها أذكى حرسه، ولم يدخل عينه غمض، حتى إذا كان في السحر الأول عَبّى أصحابه، وكتّب كتائبه، وأمّر أمراءه، وبعد أن صلّى الغداة بأصحابه بغلس عندما انفجر الفجر، خرج بهم فصفّهم، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم، وألحق أمير الميمنة بالميمنة، وأمير الميسرة بالميسرة، وأمير الرجّالة بالرجالة، وضم الخيل إليه، ثم نزل يمشي وأمر الناس بالزحف معه على رسلهم رويداً رويداً حتى أشرف على جيش ابن زياد الذي لم يكن قد تهيأ لذلك اللقاء بعد.

---

(١) المصدر السابق.

جدل بيزنطي

ويكشف حوار بين مقاتل عراقي وآخر من أهل الشام طبيعة العقلية الشامية التي ترى ضرورة القتال مع (أمام) حتى ولو كان إمام باطل. . وعدم القتال مع غير أمام[1]، مع إن إمام أهل الشام (عبد الملك)، لم يكن يتمتع بالشرعية بعد، لوجود (الإمام الشرعي) الذي سبقه للدعوة إلى نفسه وهو ابن الزبير. (ولم تعزّز هذه المقولة إلا بعد هلاك ابن الزبير وتغلب عبد الملك واستتباب الأمور لصالحه).

قال عبد الله بن زهير السلولي، الفارس العراقي الذي ذهب يستطلع أخبار جيش ابن زياد قبيل هجوم ابن الأشتر، وكان أفراده قد فوجئوا بجيش ابن الأشتر فخرجوا على دهش وفشل. . (لقيني رجل منهم فما كان له هجيري إلا يا شيعة أبي تراب، يا شيعة المختار الكذاب!

فقلت: ما بيننا وبينكم أجلّ من الشتم.

فقال لي: يا عدو الله، إلام تدعوننا! أنتم تقاتلون مع غير إمام.

فقلت له: بل يا لثارات الحسين بن رسول الله. ادفعوا إلينا عبيد الله بن زياد، فإنه قتل ابن رسول الله وسيد شباب أهل الجنة، حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلهم مع الحسين، فإنا لا نراه لحسين نداً فنرضى أن يكون منه قوداً، وإذا دفعتموه إلينا

---

(١) ووفق المفهوم الأموي للإمام أو الخليفة، فان عبد الملك بن مروان الذي بويع بعهد من أبيه في خلافة ابن الزبير لما تصح خلافته وكان مجرد متغلب على مصر والشام ثم غلب على العراق وما والاها إلى ان قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين، فصحت خلافته من يومئذٍ واستوثق له الأمر، (السيوطي/ تاريخ الخلفاء / ٢٠٠)، وقال السيوطي أيضاً: (والأصح ما قاله الذهبي إن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين، بل هو باغ خارج على ابن الزبير، ولا عهده إلى ابنه بصحيح. وإنما صحت خلافة عبد الملك من حين قتل ابن الزبير. وأما ابن الزبير فانه استمر بمكة خليفة إلى ان تغلب عبد الملك.) تاريخ الخلفاء ١٩٧/ ١٩٨ ولو أن ابن الزبير تغلب على عبد الملك لمات عبد الملك باغياً وفق هذا المنطق الذي يجعل الحق مع الأقوى ومع من يسبق غيره لأخذ البيعة لنفسه، ولا ندري كيف صحت خلافة ابن الزبير اللهم إلا لأنه بادر عند هلاك يزيد بالدعوة لنفسه ولم يكن مروان قد فكرّ قبله بذلك، ولو انه بادر قبله بذلك لكانت خلافته قد صحت، ولا ندري كيف يكون مروان ثقة عندهم مع انه باغ خارج على إمام زمانه (ابن الزبير).

فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم، جعلنا بيننا وبينكم كتاب الله، أو أيَّ صالح من المسلمين شئتم حكماً.

فقال لي: قد جربناكم مرة أخرى في مثل هذا ـ يعني الحكمين ـ فغدرتم.

فقلت له: وما هو؟

فقال: قد جعلنا بيننا وبينكم حكمين فلم ترضوا بحكمهما.

فقلت له: ما جئت بحجة، إنما كان صلحنا على أنهما إذا اجتمعا على رجل تبعنا حكمهما، ورضينا به وبايعناه، فلم يجتمعا على واحد، وتفرقا، فكلاهما لم يوفقه الله لخير ولم يسدّده.

فقال: من أنت؟ فأخبرته، فقلت له: من أنت؟

فقال: : عَدَس ـ لبغلته ليزجرها ـ

فقلت له: ما أنصفتني، هذا أوّل غدرك)[1].

كان الشامي مكلفاً بخفض هذه الأقوال وتزويدها كما يقوم بذلك الببغاء، لا مناقشة الآخرين بها. أما العراقي فكان على وعي تام بمجريات الأمور ويعلم ما يقول ويدرك السبب الذي يقاتل من أجله.

كلام البيغاوات

كان الإعلام الأموي يؤكد على النقطة الأولى التي ذكرها الشامي وهي عدم جواز القتال مع غير إمام. أما مع (الإمام)، ولا يهم إن كان هذا إماماً شرعياً أو غير شرعي، فلا بأس بذلك، ووضعوا لذلك أطروحات تطرقنا إلى بعضها في غضون هذا الكتاب ـ لا تمت للإسلام أو لقواعد الخلافة التي أمر الله بها، بأية صلة، وراحوا ـ على أساس ذلك فيما بعد ـ يشنعون على كل خارج وثائر عليهم وينعتونه بشتى النعوت والصفات. وكان للمختار من نعوتهم وتخرصاتهم النصيب الأكبر، كما لم يسلم من ذلك كل من رفض دولة الظلم الأموية أو ما شابهها على مر العصور.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٨٠ ولم يذكر ابن الأثير سوى بداية هذه القصة ٤/ ٦١.

نداءات ابن الأشتر: يا أنصار الدين وشيعة الحق وشرطة الله، هذا عبيد الله بن مرجانة

كان ابن الأشتر يشد عزيمة أصحابه، وقد ركب فرساً له ثم مرّ بأصحاب الرايات كلها وكان يخطب فيهم بهذا الخطاب: (يا أنصار الدين، وشيعة الحق، وشرطة الله، هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه، وهم ينظرون إليه، [ومنعه أن يأتي ابن عمه فيصالحه](1)، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله، ومنعه الذهاب في الأرض العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته، فوالله ما عمل فرعون بنجباء بني إسرائيل ما عمل ابن مرجانة بأهل بيت رسول الله ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

قد جاءكم الله به، وجاءه بكم، فوالله إني لأرجو ألا يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه إلا ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم، فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيّكم)(2).

وكان ابن الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة، بل وفي الناس كلهم يرغبهم في الجهاد ويحرضهم على القتال، ثم رجع حتى نزل تحت رايته وزحف القوم إليه.

وقد جعل ابن زياد كبار قادته، الحصين بن نمير السكوني وعُمير بن الحباب السُلمي وشرحبيل بن ذي الكلاع على الميمنة والميسرة والخيل، وهو يمشي في الرجال، وبدأت معركة ضارية بين الطرفين، كانت الغلبة فيها في البداية لجيش ابن

---

(1) تحدثنا عن هذه الزيادة التي وردت في بعض الروايات والتي قيل فيها إن الحسين عليه السلام طلب أن يذهب إلى يزيد فيضع يده في يده ورفض ابن زياد ذلك، وقد فندّنا هذه الزيادة، بمبحث صغير مستقل في هذا الكتاب وبيّنا الأسباب التي تجعل مثل ذلك اللقاء مستحيلاً وعدم إمكانية صدور مثل ذلك الطلب من الحسين عليه السلام في تلك اللحظات التي وقف فيها أمام الأمة كلها رافضاً حكومة يزيد رفضاً باتاً ومستعداً للتضحية بدم لوقف الانحراف والتردي، وهو لموقف الوحيد الذي بدا ان الحسين لا بد ان يقفه، وربما وردت هذه الزيادة بسبب بعض المصحّفين والكتاب والمحررين، إذ لا يمكن ان تخفى حقيقة الحسين عليه السلام ومواقفه وأقواله عن قائد مثل ابن الأثير الذي لا بد انه كان يتابع الأحداث ويطلع عليها اطلاعاً واعياً، ولا يمكن ان يفوته افتراء عمر بن سعد/ قاتل الحسين، والمصدر الوحيد لتلك الرواية المزورّة.

(2) الطبري ٣/ ٤٨٠.

زياد الذي دحر ميسرة بن الأشتر وقتل قائدها. إلا أن ابن الأشتر ثبت في ذلك الموقف، وقد كشف عن رأسه وأخذ ينادي: (يا شرطة الله، إليّ، أنا ابن الأشتر، إن خير فرّاركم كرّاركم، ليس مسيئاً من أعتب. فثاب إليه أصحابه)[1].

وقد اتجه إبراهيم إلى قلب جيش ابن زياد الذي كان ابن زياد نفسه يقوده قائلًا: (أمّوا هذا السواد الأعظم، فوالله لو قد فناه لا نجفل من ترون منهم يمنة ويسرة انجفال طير ذعرتها فطارت)[2].

وكان الأمر كما ذكر: مشوا إليهم فاطّعنوا بالرماح قليلًا، ثم صاروا إلى السيوف والعمد فاضطربوا بها ملياً من النهار، ثم إن أهل الشام انهزموا ومنحوهم أكتافهم، فكان صاحب راية إبراهيم ينغمس برايته فيهم حتى لا يعود له متقدَّم وإبراهيم يشد بسيفه فلا يضرب به رجلًا إلا صرعه (وكرد إبراهيم الرجال من بين يديه كأنهم الحملان، وإذا حمل براية شد أصحابه شدّة رجل واحد)[3].

هزيمة جيش الشام ومقتل ابن زياد

وقد استمرت المعركة حتى الليل كانت الوقعة فيها على أصحاب ابن زياد، وقد انهزموا بعد قتال شديد وقتلى كثيرة بين الفريقين، وقتل في المعركة كبار أصحاب ابن زياد وقادته مثل الحصين بن نمير وشراحبيل بن ذي الكلاع وابن حوشب وغالب الباهلي، وكان مَن غرق من أصحاب ابن زياد - بعد الهزيمة - أكثر ممّن قتل، وأصاب

(١) الطبري ٣/ ٤٨١ وابن الأثير ٤/ ٦١ وروى المجلسي انه قال بعدها: (ألا يا شيعة الحق ألا يا أنصار الدين، قاتلوا المحلين وأولاد القاسطين. لا تطلبوا أثراً بعد عين. هذا عبيد الله بن زياد، قاتل الحسين) البحار ٤٥/ ٣٨٢ وفكر انه جرت منازلات فردية قبل المعركة دخل منها على أهل الشام من أهل العراق مدخل عظيم والذي نرجِّحه أن تلك المنازلات الفردية كانت قليلة لان ابن الأثير استخدم عنصر المباغتة والمفاجأة ولم يرد لأهل الشام ان يلتقطوا أنفاسهم.

(٢) المصادر السابقة ٣/ ٤٨١ و٤/ ٦١/ ٦٢ وقد شبه أحد أصحاب إبراهيم صوت اضطراب الرماح والسيوف والعمد ووقع الحديد على الحديد كصوت مياجن قصاري دار الوليد بن عقبة بن أبي معيط، يشير بذلك إلى بذخ وإسراف تلك الأسرة المتسلطة التي كان أفرادها أبعد الناس عن الإسلام ثم صاروا سادة وقاده ذوي ترق وجاه في ظل دولة الانحراف الأموية.

(٣) المصدر السابق.

أصحاب إبراهيم معسكرهم، فيه من كل شيء[1]. وذكر أحد أصحاب المختار ممن شهدوا المعركة مع إبراهيم أنهم عدوا القتلى بالقصب لكثرتهم قيل كانوا سبعين ألفاً.

أما ابن زياد، فقد قتل في تلك المعركة، بعد أن حسب أنه سيتغلب حتماً على من كانت له الغلبة عليهم بالأمس، كان يقاتل بضراوة مدافعاً عن الملك الطويل العريض الذي أصبح له اليوم بعد أن أبدى حرصاً واضحاً على خدمة الدولة الأموية التي ما كانت لتقوم لها قائمة لولا سيفه ورأيه، وكان يبدو أكبر شخصية في تلك الدولة بعد عبد الملك.

قال غلام له هرب إلى الشام، يصف آخر مشهد له: (لما جال الناس تقدّم فقاتل، ثم قال: ائتني بجرّة فيها ماء، فأتيته فشرب وصبَّ الماء بين درعه وجسده، وصبّ على ناصية فرسه، ثم حمل، فهذا آخر عهدي به)[2].

كان ابن زياد يقاتل بشراسة مستهيناً بمن كان يقاتلهم، وقد حاول بث العزيمة في جيشه المتخاذل عندما حاول الاستهانة بقائد الجيش المقابل.

تساءل ابن زياد: (من هذا الذي يقاتلني؟

قيل له: إبراهيم بن الأشتر.

قال: لقد تركته أمس صبياً يلعب بالحمام).

ولم يحسب أن مثل هذا الصبي يمكن أن يكبر ويذيقه الحِمام.

فالأمس غير اليوم، والصبي يمكن أن يكبر ويصبح رجلًا شديد البأس.

صرعه إبراهيم، ولم يحسب أن من صرعه كان ابن زياد نفسه.

وقد فكّر بعد انقضاء المعركة، بأن من صرعه وقدّه نصفين قد يكون هو ذلك الطاغية.

وإذ أن الأعداد التي قتلت من جيش الشام كانت كبيرة، كما أن عدد الغرقى الهاربين من القتال كان كبيراً أيضاً، فإن أحداً ما لم يعثر على جثة ابن زياد لو لم ينتبه إبراهيم نفسه إلى أنه قد يكون قد قتل ابن زياد، إذ عاد إلى ذهنه مشهد خاطف.

---

(١) وما أجمل قول عمير بن حباب السلمي في جيش ابن زياد:

وما كان جيش يجمع الخمر والزنا مُحلًا إذا لاقى العدو لينصرا

ابن الأثير ٤/ ٦٣.

(٢) البحار ٤٥/ ٣٨٤.

قال إبراهيم لأصحابه بعد انجلاء المعركة: (أقبل رجل أحمر في كبكبة يغري لاناس كأنه بغل أقمر، لا يدنو منه فارس إلا صرعه، ولا كميّ إلا قطعه، فدنا مني فضربت يده فأبنتها، وسقط على شاطىء الخازر، فشرقت يداه وغربت رجلاه فقتلته، ووجدت رائحة المسك تفوح منه، وجاء رجل نزع خفيّه.

وظنوا أنه ابن زياد من غير تحقيق، فطلبوه، فإذا هو على ما وصف إبراهيم فاحتزُّوا رأسه، واحتفظوا طول الليل بجسده، فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد، فلما رآه إبراهيم قال: الحمد لله الذي أجرى قتله علىَ يدي)[١].

وفي عاشوراء قتل ابن زياد أيضاً

ومن الغريب أن نذكر هنا أن ابن زياد قتل في عاشوراء سنة سبع وستين[٢] بعد ست سنين من إقدامه على جريمة قتل الحسين عليه السلام في عاشوراء سنة إحدى وستين. قتل بعد أن تيقّن أن كل شيء لا يمكن أن يسير دونه، وبعد أن منحته الدولة الأموية بقيادة عبد الملك ثقتها المطلقة وأباحت له التصرف في الأرض التي يمتد سلطانه عليها وفي كل شيء حملت تلك الأرض، وبعد أن جاء مغيراً على الكوفة ثانية ليستأصل من أهلها كل من يمت إلى أهل البيت عليهم السلام بود أو ولاء...

(١) البحار ٤٥/ ٣٨٣ وذكر الطبري وابن الأثير رواية مماثلة إذ نسبوا الابن الأشتر قوله: (قتلت رجلاً وجدت منه رائحة المسك، شرقت يداه وغربت رجلاه، تحت راية منفردة على شاطيء نهر خازَر. فالتمسوه فإذا هو عبيدالله بن زياد قتيلاً، ضربه فقده بنصفين..) الطبري ٣/ ٤٨١ وابن الأثير ٤/ ٦٢

وقد ذكر ان الذي قتل ابن زياد هو شريك بن جدير التغلبي أحد أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه، وكانت عينه قد أصيبت في إحد المعارك التي خاضها الإمام ضد أعدائه، وقد لحق بعد وفاته عليه السلام ببيت المقدس، وقد وصله نبأ مقتل الحسين عليه السلام. وهو هناك فقال: (أعاهد الله إن قدرت على كذا وكذا ـ يطلب بدم الحسين ـ لأقتلن ابن مرجانة أو لأموتن دونه، فلما بلغه أن المختار خرج يطلب بدم الحسين أقبل إليه، فكان وجهه مع إبراهيم بن الأشتر، وجعل على خيل ربيعة، فقال لأصحابه: إني عاهدت الله عل كذا وكذا. فبايعه ثلاثمائة على الموت. فلما التقوا حَمَل فجعل يهتكها صفّاً صفّاً مع أصحابه حتى وصلوا إليه. ونار الوهج لا يسمع إلا وقع الحديد والسيوف، فانفرجت عن الناس وهما قتيلان ليس بينهما أحد، التغلبي وعبيدالله ابن زياد) الطبري ٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢ ويضيف ابن الأثير قوله: (.. الأول أصح) ٤/ ٦٢ مشيراً إلى انه يرجح قيام إبراهيم بقتل ابن زياد وهو ما ترجّحه معظم الروايات.

(٢) أورد ذلك الشعبي/ البحار ٤٥/ ٣٨٥.

وصل رأسه إلى الكوفة مع رؤوس قواده فألقيت في القصر الذي كان مقراً لجرائمه التي استنكرها الجميع حتى أمه التي قالت له: (يا خبيث، قتلت ابن رسول الله ﷺ! لا ترى الجنة أبداً)[1].

وكان عبيد الله نتاجاً للدنس والخطيئة، ونتاجاً لولادة غير طبيعية لنظام التعسف والظلم والجور المنافي لقيم الإسلام وحدوده وأحكامه، بل لكل قيمة بشرية تحترم الإنسان وحقه في الحياة والحرية، وكان وجوده رفضاً لأي تعامل طبيعي أرساه الإسلام، وكان مثالاً مشوهاً للشر والجريمة والشك وسوء الظن والغدر أفرزته فلسفة معاوية في الحياة والحكم، ونسجته عقلية زياد الملتوية المتقلبة الحقودة، وكان نسخة منه، أشبهه من بين من وطىء الحصى، ولم ينتزعه شبه خال ولا ابن عم، كما قال هو عن نفسه، وشهد بذلك عليها[2].

أورد ابن الأثير عن الترمذي في جامعه أن إبراهيم بن الأشتر (أنفذ رأس عبيد الله بن زياد إلى المختار ومعه رؤوس قواده، فألقيت في القصر، فجاءت حية دقيقة، فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره، وخرجت من فيه، فعلت هذا مراراً. . .)[3].

---

(١) ابن الأثير ٤/ ٦٣.

(٢) ورحم الله ابن مفرغ حينما يقول فيه:

إن المنايا إذا مازرن طاغية ... هتكن أستار حجّابٍ وأبوابا
أقول بعداً وسحقاً عند مصرعه ... لابن الخبيثة وابن الكودن الكابي
لا أنت زوحمت عن ملكٍ فتمنعه ... ولا متّتت إلى قوم بأسباب
لا من نزار ولا من جذم ذي يمن ... جلمود ذا ألقيت من بين الهاب
لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا ... وكيف تقبل رجساً بين أثواب

ابن الأثير ٤/ ٦٣

وأورد الأندلسي بيتاً منسجماً مع هذه الأبيات عن لسان نفس الشاعر:

إن الذي عاش ختاراً بذمته ... ومات عبداً قتيل الله بالزاب

العقد الفريد ٥/ ١٥٣

وقد أورد المجلس الأبيات عن ابن نما بشكل مختلف قليلاً.

(٣) ابن الأثير ٤/ ٦٣ وروي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكنالي قال: (وضعت الرؤوس عند السده بالكوفة عليها ثوب أبيض، فكشفنا عنها الثوب، وحية تتغلغل في رأسي عبيدالله ونصبت الرؤوس في المرصة. قال عامر: ورأيت الحية تدخل في منافذ رأسه وهو مصلوب مراراً) البحار ٤٥/ ٣٨٥.

محمد بن الحنفية يدعو للمختار: «جزاه الله خير الجزاء»

وقد بعث المختار رأس ابن زياد ورؤوس قادة جيشه إلى مكة، إلى محمد بن الحنفية، وقد خرّ ساجداً لله عندما رآها ودعا للمختار وقال: (جزاه الله خير الجزاء فقد أدرك لنا ثأرنا، ووجب حقه على كل من ولده عبد المطلب بن هاشم. . .)[1].

الإمام زين العابدين يدعو للمختار: «..جزى الله المختار خيراً»

وبعث بدوره الرأس إلى علي بن الحسين عليه السلام، فأدخل عليه وهو يتغدى فسجد شكراً لله تعالى وقال: (الحمد لله الذي أدرك لي ثاري من عدوي. وجزى الله المختار خيراً. أدخلت على عبيد الله وهو يتغذّى ورأس أبي بين يديه، فقلت: اللهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد)[2].

وروى الأندلسي أن الإمام زين العابدين قال عندما أدخل عليه رأس ابن زياد عند انتصاف النهار وهو يتغدّى: (سبحان الله، ما اغتر بالدنيا إلا من ليس لله في عنقه نعمة، لقد أدخل أبي عبد الله على ابن زياد وهو يتغدّى)[3].

فصول جديدة من الصراع

ولم تنته فصول صراع المختار مع أعدائه إلا باستشهاده وميتته تلك الميتة الكريمة وهو يحمل على أولئك الأعداد بالنفر الذين بقوا معه رافضين الاستسلام رغم كثرة الأعداء وشراستهم.

وكان سبب مقتله أشراف الكوفة الخائنين أنفسهم، ولعلنا لا نجد في تاريخ الإسلام كله من تعرض للخيانة والدس والتشويه، مثل المختار الثقفي، الذي كان عارفاً بطبيعة مجتمع الكوفة وأشرافه، ومع ذلك فإنه لم يتراجع أمام أولئك الأشراف وطموحاتهم ورغباتهم الشرّيرة في الوقوف إلى جانب دولة الظلم مهما كان شكلها ومهما كانت شعاراتها.

فبعد انصراف إبراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وتغلبه عليه وعد خلوّ الكوفة من معظم أنصار المختار وجنوده، خرج أعداؤه الذين كان قد قاتلهم وهزمهم ملتحقين

---

(١) و(٢) البحار ٤٥/٣٨٦.

(٣) العقد الفريد ٥/١٥٢.

بمصعب ابن الزبير في البصرة الذي حاول التشبه بابن زياد عندما قدم عليها والياً من قبل يزيد، وسمّى نفسه الجزار في محاولة منه لإرهابهم.

الغدر ثم الغدر

وكان ممّن التحق بمصعب، شبث بن ربعي، أحد أبطال جريمة كربلاء وأحد الأشراف الخونة الذين كادوا للمختار فحبطت مكائدهم، وقد جاء هذا بشكل مضحك باعثاً تقليداً جاهلياً قديماً للاستجارة بمن ظن أنه يحميه[1] كما قدم عليه محمد بن قيس بن الأشعث وغيره وبيّنوا له حالهم مع المختار وبما اجتمعوا له وما أصيبوا به وتغيّر حالهم مع عبيدهم ومواليهم وسألوه النصر لهم والمسير لمقاتلة المختار معهم.

وقد اشترط مصعب أن لا يسير لقتال المختار حتى يأتيه المهلب بن أبي صفرة، والذي حاول أن يعتذر في بداية الأمر إلا أن مصعب ألمح عليه وبعث محمد بن الأشعث يستحثه على القدوم، ويبدو أن الكفة قد مالت إلى جانب مصعب بعد التحاق المهلب به والذي أقبل (بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة)[2].

وإذ أن الأعداد التي التحقت بمصعب كانت كبيرة، فإنه أمر الناس أن يعسكروا عند الجسر الأكبر ودعا عبد الرحمن بن مخنف، وهو شريف كوفي متمرد على المختار، للذهاب إلى الكوفة لإخراج من يقدر على إخراجه للالتحاق به ودعوتهم إلى بيعته سراً وإلى تخذيل أصحاب المختار، وهو أسلوب بدا ناجحاً مثلما نجح أسلوب سلفه ابن زياد الذي دعا أشراف الكوفة لتخذيل الناس عن مسلم ـ كما رأينا في هذا الكتاب.

وجعل مصعب على قيادة جيشه أناساً مجربين معروفين مثل المهلب بن أبي صفرة وعمر بن عبيد الله بن معمر ومالك بن مسمع ومالك بن المنذر والأحنف بن قيس وزياد بن عمر الأزدي وقيس بن الهيثم، ومعظم هؤلاء من رؤساء أخماس أهل البصرة ولهم نفوذ كبير في قبائلهم.

---

(١) ذكر الطبري (. . قدم شبث على مصعب بن الزبير البصرة وتحته بغلة له قد قطع ذنبها، وقطع طرف أذنها وشق قباءه وهو ينادي يا غوثاه يا غوثاه) ٣/ ٤٨٣ وابن الأثير ٤/ ٦٤.

(٢) الطبري ٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤ وابن الأثير ٤/ ٦٥/ ٦٦.

مصعب ابن الزبير يحارب المختار

وإذ بلغ المختار أمر الاستعدادات القائمة ضده في البصرة، فإنه استعد بدوره وقام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(يا أهل الكوفة، يا أهل الدين وأعوان الحق، وأنصار الضعيف، وشيعةَ الرسول وآل الرسول. إن فُرّاركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين، فاستغووهم عليكم ليمصحَ الحق، وينتعش الباطل، ويقتل أولياء الله، والله لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالفري على الله واللعن لأهل بيت نبيه. انتدبوا مع أحمد بن شميط فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عادٍ وآدم)[1].

وهي خطبة لا تشبه خطب المختار السابقة ـ التي ربما نسب إليه بعضها ولم يقلها فعلًا ـ وقد خلت من السجع الذي عرفت به تلك الخطب.. كما أنها خطبة جدير أن يُنتبه إليها فعلًا، وجديرة أن تكون صادرة عن المختار فعلًا.

فحملة الافتراء على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ قد بلغت ذروتهاد وقد ضاع الحق وانتعش الباطل وقتل أولياء الله في ظل حكام الجود والانحراف.

كان المختار يدرك أنه شوكة تقذي أعين طلاب الحكم الجدد الذين يحاولون الانتزاء على منبر رسول الله ﷺ والسيطرة على مقدرات المسلمين، ويعلم أن من يقاتلون معه كانوا آخر عصبة منظمة معبأة تقوم بوجوه هؤلاء، وإنهم إذا ما قتلوا فإن قيادات الانحراف ستشعر بالمزيد من الحرية لإعلان انحرافها الذي تكون قد تسترت عليه حتى ذلك الحين، وستقوم بتزوير الإسلام، بل وإعداد إسلام منها هي يقوم بالعزي على الله واللعن لأهل بيت نبيّه.

وهو ما كان فعلًا بعد ذلك، عندما قتل المختار وسيطرت قيادات الانحراف مقتسمة السلطة فيما بينها، لحين تسوية الحسابات النهائية في آخر المطاف.

مستشار خائن

بعث المختار أحد قوّاده المعروفين ـ أحمر بن شميط ـ لملاقاة مصعب وجيشه، فعسكر بحمام أعين، ثم سار إلى (المزار) وعسكر قريباً من معسكر مصعب.

---

(١) المصدر السابق.

وقد سبّبت (نصيحة) مغرضة تقدم لها قائد ميسرة ابن شميط، هزيمة جيشه هزيمة منكرة.

وضع ابن شميط عبد الله بن وهب بن أنس الجشمي، مُقدّم هذه (النصيحة) على ميسرته، وجعل كيسان أبا عمرة على الموالي، وكان معهم رجال كثير على الخيل، وكان ابن شميط سينتصر على مصعب لو أنه ظل على تعبئته غير أن ابن وهب حسد الموالي على ذلك النصر الذي حسب أنه سيتحقق في النهاية، فطلب من ابن شميط أن يدعوهم لكي ينزلوا للقتال معه ويتركوا خيولهم.

وقد استجاب ابن شميط وطلب منهم ذلك، واستجابوا له، كانت مطاليب جيش مصعب (ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى بيعة الأمير عبد الله بن الزبير)[1].

أما مطاليب جيش ابن شميط: (... ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله وإلى بيعة الأمير المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول، فمن زعم من الناس أن أحداً ينبغي له أن يتولى عليهم برئنا منه وجاهدناه)[2].

وقد صمد أصحاب ابن شميط أمام جند مصعب في البداية ولم يزل منهم أحد، إلا أن المهلب حمل عليهم حملة منكرة بعد ذلك فولّوا إلا جماعة منهم مثل ابن كامل في رجال من همدان وابن شميط نفسه الذي قاتل حتى قتل، وكان المهلب يثبط عزائم أصحاب المختار ويدعوهم للفرار، ومالت الخيل على رجالة ابن شميط فافترقت فانهزمت وأخذت الصحراء، فبعث مصعب عباد بن الحصين على الخيل، وسرّح محمد بن الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة ممن كان المختار طردهم وممن هربوا منه وطلب منهم القضاء على كل من يلقونه من الأسرى، فكان أهل الكوفة أشد عليهم من أهل البصرة ولم ينجح من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل، وأما رجّالتهم فأبيدوا إلا قليلًا.

انهزام جيش المختار أمام مصعب

وكان لذلك الحدث صداه المحزن في الكوفة وخصوصاً لدى الموالي الذين علموا أنهم سيُستهدفون بحملة قمع كبيرة إذا ما نجح مصعب في تلك الحرب ضد

(١) و(٢) الطبري ٣/ ٤٨٥ وابن الأثير ٤/ ٦٥.

المختار ولا بد أن معنوياتهم قد أصيبت بانهيار كبير إثر سماعهم أخبار هزيمة جيش ابن شميط وانكساره.

المختار: سأمضي إلى نهاية الشوط

أما المختار فقد وطن نفسه على المضي إلى النهاية في الشوط الذي اختاره وفي سبيل تحقيق الشعارات التي رفعها منذ البداية[١].

وقد حاول إعاقة الجيش الزاحف إليه من البصرة والحيلولة دون وصوله الكوفة، ونزل بحرُوراء وقد استعمل على الكوفة عبد الله بن شداد.

كما يقود جيشه بنفسه ويعيد ترتيب ذلك الجيش الذي كان يقل بكثير عن جيش مصعب، وكانت الهزيمة التي ألحقت بمن واجهوا مصعباً في المعركة الأولى قد جعلت الأغلبية تصاب بالإحباط وتتوقع هزيمة مماثلة رغم وجود عدد كبير من الرجال الأشداء من أهل الحفاظ معه.

وقد وضع مصعب أهل الكوفة المناوئين للمختار بقيادة محمد بن الأشعث بين جيشه وجيش المختار، وقد واجه المختار الموقف بحزم وثبات وتقدم أصحابه للمعركة بحماس منقطع النظير جعل مصعباً يستنجد بالمهلب ويأمره أن يحمل بأصحابه وانتهى أصحاب المختار إلى مصعب الذي صمد لهم وتداعى له أصحابه، ولم ينقذه من أصحاب المختار سوى أصحاب المهلب الذين كانوا كثيري العدد والفرسان، وقد حملوا عليهم حملة منكرة فكشفوهم (وانقصف أصحاب المختار انقصافة شديدة كأنهم أجمة فيها حريق)[٢].

وقد استطاع مالك بن مسمع البكري، أحد قادة جيش المختار بمساعدة خمسين من أصحابه أن يقتلوا محمد بن الأشعث وعامة أصحابه من أهل الكوفة. غير أن الغلبة كانت في النهاية لجيش مصعب الذي كان يتفوق عليهم كثيراً.

---

(١) روي من نقل للمختار خبر موت ابن شميط وابن كامل وغيرهما إن المختار قال: (ما من الموت بُدّ، وما من ميتة أموتها أحبّ إليّ من مثل ميتة ابن شميط/ حبذا مصارع الكرام.
قال: فعلمت إن الرجل قد حدّث نفسه إن لم يصب حاجته أن يقاتل حتى يموت..) الطبري ٣/ ٤٨٦ وابن الأثير ٤/ ٦٦.

(٢) الطبري ٣/ ٤٨٧ وابن الأثير ٤/ ٦٧.

وصمد قادة جيش المختار في جمع من أصحابهم إلا أنهم قتلوا في تلك المعركة.

وقد (قاتل المختار على فم سكة شبث، ونزل وهو يريد ألا يبرح، فقاتل عامة ليلته حتى انصرف عنه القوم، وقتل معه ليلتئذٍ رجال من أصحابه من أهل الحفاظ)[١].

حصار القصر

وانصرف إلى قصره في الكوفة عندما تفرق عنه أصحابه وقتلوا، وقد زحف إليه مصعب بمن معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة فنزل السبخة وحاصر المختار وأصحابه في القصر والمناطق المجاورة له وقطع عنهم الماء والمادة.

وقد استغل المغامر المشهور عبيد الله بن الحر الذي عرف بعدم انضباطه والتزامه بأي مبدأ في ظل ظروف الانفلات والتنافس التي شهدتها تلك الفترة، استغل الفرصة بعد أن رأى أن الرياح لا تجري لصالح المختار هذه المرة، فألحق أذى كبيراً بأصحاب المختار بعد أن كان قد انضم إليه في فترة من الفترات، ولم تكن دوافعه دوافع عقائدية بحتة وإنما كان يتحرى النفع في كل فترات حياته، شارك ابن الحر في حصار المختار ومنع الماء والغذاء عنه.

الكوفة تنقلب ثانية

لقد انقلبت الكوفة تحت الإرهاب الزبيري ومعونة الأشراف السابقين لهذا النظام وأصبحت ضد المختار ثانية (وكان المختار ربما خرج هو وأصحابه فقاتلوا قتالًا ضعيفاً، ولا نكاية لهم، وكانت لا تخرج له خيل إلا رميت بالحجارة من فوق البيوت ويصب عليهم الماء القذر، واجترأ عليهم الناس، فكانت معايشهم أفضلها من نسائهم...)[٢].

شجاعة المختار

وقد بلغ مصعب قيام النساء بالدخول على أزواجهن وأخوانهنّ بالطعام فمنعهنّ من ذلك ـ وأحكم الحصار إحكاماً تاماً ـ حتى اضطر المختار وأصحابه للاستقاء من ماء

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدران السابقان ٣/ ٤٩٠ و٤/ ٦٨.

البئر المالح الموجود في القصر، ومع ذلك فإن المختار خرج إلى المحاصرين في أكثر من مرة وهزم طائفة منهم، ركب بعضهم بعضاً بعد أن كرَّ عليهم وشدخ نحواً من مائة، ثم قتل رجلًا منهم، شديد البأس كانت له وطأة شديدة على أصحابه وكان قد قتل بعضهم، وقد (حمل عليه فضربه ضربةً على جبهته، فأطار جبهته وقحف رأسه وخرّ ميتاً)[1].

المختار: لا للحصار، انزلوا بنا فلنقاتل

وعندما اشتد الحصار أكثر من ذي قبل، قال المختار لأصحابه: (ويحكم، إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نقتل كراماً إن نحن قتلنا، والله ما أنا بآيس إن صدقتموه أن ينصركم الله، فضعفوا وعجزوا، فقال لهم المختار: أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في نفسي..).

وقد كان قال لأصحابه حين أبوا أن يتابعوه على الخروج معه: (إذا أنا خرج إليهم فقتلت لم تزدادوا إلا ضعفاً وذلًا فإن نزلتم على حكمهم وثب أعداؤكم الذي قد وترتموهم، فقال كل رجل منهم لبعضكم: هذا عنده تأدي فيقتل وبعضكم ينظر إلى مصارع بعض فيقولون: يا ليتنا أطعنا المختار وعملنا برأيه، ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفر متّم كراما، وإن هرب منكم هارب فدخل في عشيرته اشتعلت عليه عشيرته. أنتم غداف هذه الساعة أذل من على ظهر الأرض فكان كما قال.)[2].

الشيخ البطل يضارب بسيفه حتى الموت

وقد تخلى بعض أصحابه عنه عندما رأوا إصراره على المقاومة والقتال حتى آخر نفس. وأزمع الخروج إلى أعدائه، وقد اغتسل وتحنط ووضع طيباً على رأسه ولحيته وخرج في تسعة عشر رجلًا رافضاً أن يحكّمهم في نفسه فضارب بسيفه حتى قتل وهو ابن سبع وستين سنة، لأربع عشرة خلت من شهر رمضان في سنة سبع وستين، إذ أنه في السنة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة.

---

(١) الطبري ٣/ ٤٩١.

(٢) نفس المصدر ٣/ ٣٩١ ابن الأثير ٤/ ٦٨.

وكان أمر أصحابه كما كان، أمكنوا أعداءهم من أنفسهم ونزلوا على الحكم، فكانوا يُخرجون مكتفّين فيُقتلون، وقد كاد مصعب أن يعفو عن كثير منهم إلا أن أشراف الكوفة وأهلها الذين وترهم المختار قد احتجوا على ذلك، فقتل بقيتهم وكانت مجزرة دامية ذهب ضحيتها آلاف الناس دون مبرر قيل إن عددهم بلغ سبعة آلاف(١).

وأمر مصعب بكف المختار فقطعت ثم سمرت بمسمار من حديد إلى جنب المسجد، وتظل الحكايات تدور، ويحاول أصحابها دسّ جملة أو جملتين في كل واحدة منها للتشنيع والطعن على تلك الشخصية الفذة التي دوخت قريش المنطلق للزعامة على العرب والأمة كلها، ولا يهم من يكون الزعيم، ابن الزبير أو ابن مروان، ما دامت منطقة النفوذ محصورة فيها.

عودة للحكايات الأموية

وتقول إحدى تلك الحكايات إن المختار، لما خرج من القصر بالقلة القليلة من أصحابه، قال للسائب بن مالك الأشعري، زوج عمرة بنت أبي موسى الأشعري، وكان من أقرب أصحابه: (ماذا ترى؟ قال: الرأي لك فماذا ترى؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى.

قال: ويحك، أحمق أنت! إنما أنا رجل من العرب، رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم.. إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب، فقتلت من شرك في دمائهم، وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية)(٢).

فالمختار هنا لم يكن إلا طالب زعامة كالآخرين، هذا ما أرادت هذه الحكاية أن

---

(١) روى الطبري ان مصعبا لقي عبدالله بن عمر فسلم عليه وقال له: أنا ابن أخيك مصعب، فقال له ابن عمر أنت القاتل سبعة الآف من أهل القبلة في غداة واحدة! عش ما استطعت. فقال مصعب: إنهم كفرة سحره فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنماً من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً) ٣/ ٤٩٤

(٢) الطبري ٣/ ٤٩٠ وابن الأثير ٤/ ٦٨.

ترينا، وإن قتاله كان في سبيل الحفاظ على تلك الزعامة أو الكرامة الشخصية أو الحسب. أما النيّة في مواجهة الظلم والانحراف والعدوان على بيت رسول الله ﷺ فربما كانت آخر شيء يفكر فيه، مع أن سيرة حياته ترينا أنه قد كرس كل تلك الحياة لرد العدوان ومعاقبة المعتدين الذين ما كان لهم أن يتجاوزوا ذلك التجاوز الكبير على رسول الله ﷺ نفسه بقتل ولده الحسين وآل بيته وأصحابه، تلك القتلة الفاضحة وإعداد حمام الدم لهم في كربلاء على رؤوس الأشهاد من المسلمين في كل أقطار الإسلام، وكان مرور تلك الجريمة، بلا عقاب ـ سيفتح الباب على مصراعيه للتنكيل ببقية آل الرسالة، بل وكل شخصية تتصدى للانحراف والظلم ولاشرك، وسيكون بداية النهاية للإسلام كله.

فلم يكن من المعقول أن يترك المختار الذي نجح بإنزال أشد العقوبات بمرتكبي جريمة الطف، دون أن يمس ودون أن تثار حول شخصيته الأكاذيب والأقاويل والمزاعم، ويزحم الضجيج الآذان إلى يومنا هذا، فعمله قد عرقل كل مشاريع التسلط وأرغم المنزعجين الآخرين على التظاهر بما كان يتظاهر به معاوية على الأقل من حرص على الإسلام وتمسك ببعض طقوسه الظاهرية، ولم يتح لهم فرصة التمادي باستهتارهم وخروجهم العلني عن الدين كما هو يفعل يزيد.

وإن كان عبد الملك قد فعل ذلك بعد أن صفت له الأمور وسارت الرياح إلى جانبه.

محاولات زبيرية ومروانية لاستمالة ابن الأشتر

وقد حاول الطرفان المتنافسان الباقيان بعد موت المختار أن يستميلا ابن الأشتر إلى جانبيهما، ولعلهما فعلا ذلك بعد معركة نهر الخازر التي قُتل فيها ابن زياد ومعظم جيش أهل الشام، إذ بدا ابن الأشتر بعد تلك المعركة (كالمتهاون بأمر المختار)، حتى إن بعض أصحابه تركوه إثر ذلك.

وكانت الرشوة التي قدمها كلاهما باهظة عظيمة، فمصعب وعده بالشام وأعنّة الخيل وما غلب عليه من أرض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان، وعبد الملك وعده بالعراق كله. أما هو فقد آثر أن ينضم لابن الزبير إذ أنه قد وتر كل قبائل أهل الشام، وكانوا بالتأكيد يكنّون عداوة شديدة له، وهكذا انضم إلى مصعب مع من انضم إليه من أهل الكوفة الآخرين، بعد أن استتب له أمر العراق.

وفي المواجهة الأخيرة بين مصعب وعبد الملك بعد أن خذل أهل الكوفة مصعباً وانحاز عنه المروانية من أهلها وأضمروا الشر والخيانة وراسلوا عبد الملك، كان ابن الأشتر ممن صمد مع ابن الزبير، وكان له موقف فريد معه إذ أتاه بكتاب كتبه إليه عبد الملك يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق وقال لمصعب: إذا كان عبد الملك كتب إليَّ أنا يدعوني إليه مع أنه أشد الناس يأساً مني، فلا بد أنه كتب إلى الآخرين يدعوهم كذلك، فلماذا لم يخرجوا رسائلهم وأخفوها لو لم يكونوا قد أضمروا الخيانة! واقترح عليه أن يضرب أعناقهم أو يوقرهم حديداً ويحبسهم ريثما تنجلي المعركة ويأمر تقبلهم إذا ما غُلب والعفو عنهم وإعادتهم إذا ما غَلب.

مقتل مصعب وإبراهيم بن الأشتر

ولم يستجب مصعب، إذ كان في شغل شاغل عن ذلك على حد قوله، وفي تلك المعركة قُتل إبراهيم بن الأشتر مع مصعب الذي قتله زائدة بن قُدامة ثأراً للمختار، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين، بعد حوالي أربع سنوات من مقتل المختار، وقيل إن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين[1].

وطويت صفحة أخرى لثائر استجاب للمختار ثم بقي في مهبّ الريح بعد أن قتل ولم يجد بداً من وضع يده بيد ابن الزبير، وقد وجد أنها أهون شراً من يد عبد الملك.

وفاء زوجة المختار

لم تنج امرأة المختار عَمرة بنت النعمان بن بشير من سطوة أعداء المختار بعد أن قتلوه لمجرد أنها ترحمت عليه وقالت إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين، وادعى مصعب أنها كانت تزعم أنه نبي. وهي نفس التهمة القديمة الجديدة التي يرمى بها المختار دائماً بعد أن لم يجد أعدائه تهماً أخرى يرمونه بها.

المختار: تصدى لدول الظلم بنفس أساليبها

وهكذا انطوت صفحة الحوادث التي كان المختار بطلها وقتل فيها وهو يشهر سيفه بهمة شاب شديد مع أنه كاد يقارب السبعين من عمره، ولا بد أن يكون خروج

(١) الطبري ٣/ ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣.

المختار وتصديه للقوتين المتنافستين اللتين أقامتا دولتين لا تمتان للإسلام بصلة، وأسلوبه في العمل وسلوكه مدعاة لتأمل عميق ودراسات جادة من قبل الباحثين والدارسين لا تنساق فيها مع العواطف والأوهام والأكاذيب التي قيلت بشأنه.

وإن أصح ما يمكن أن يقال فيه أنه تصدى لدولتي الظلم المتنافستين بنفس أساليبهما، وإذا ما أخذ أحد عليه خروجاً عن المألوف في حربه وعقوبة المجرمين الذين شاركوا بمجزرة كربلاء وقتاله من اعتبرهم أعداء له فأولى بهذا أن يؤاخذ الآخرين الذين لجأوا إلى أبشع الأساليب الشريرة في حربهم معه.

إن حركة المختار أظهرت حال الأمة المضطرب وانقسامها الشديد وظهور النزعات العرقية الحادة وبيّنت كيف أنه حاول الالتفاف للمسلمين غير العرب من الآخرين الذين رفعوا شعارات العروبية وتمسكوا بالعصبية القبلية التي أبادها الإسلام ثم ظهرت بشكل حاد ونمت وقويت مع ظهور الدولة الأموية، وأبانت كيف أن هذه الأمة أصبحت رهن أطماع قوى سياسية شريرة لا ترى إلا مصالحها وامتيازاتها، ولا نكاد نلمح في لجة الصراع طيفاً لتطلع إسلامي حقيقي يعيد للأمة كيانها القائم على الإسلام والإسلام وحده، كما كشفت عن انحدار الأمة وضعفها ووقوعها فريسة لمفاهيم وآراء وقوى غريبة عنها وعن عقيدتها الإسلامية التي كادت أن تختفي خلف الركام الهائل لتلك المفاهيم والآراء والقوى.

المجرمون يخافون من قصاص مرتقب.. لا بد لهم من «مختار» يقتص منهم..

لقد جعل المختار كل من يحاول الإقدام على جريمة جديدة وكل أعوان الظلمة يحسبون ألف حساب لقصاص متوقع في هذه الدنيا وآخر في دار الحساب، وإذا كان لم يستطع إيقاف الجرائم إلى الأبد، فإنه جعل من عقوبته لقتلة الحسين وأصحابه درساً يتأمله الجميع حتى القتلة الحاليون ليعلموا أنه من الحماقة حقاً أن ينساقوا خلف الظلم وينفذوا مشاريعه بينما لا يجنون هم سوى العار واحتمال القصاص منهم في هذه الدنيا وقصاص أكيد في الآخرة، ويعلموا أن جرائمهم لا يتحمل وزرها أحد غيرهم.

حركة المختار امتداد لواقعة كربلاء

حركة المختار لم تكن مجرد رد فعل سريع على واقعة كربلاء، بل يمكن القول إن بعض فصولها كانت امتداداً لها، فقد رأينا كيف اندفع عشرات الرجال الذين لم تتح

لهم المشاركة بتلك الواقعة وأولئك الذين منعوا أو كان بعيدين عن موقع المعركة أو كانوا صبياناً صغاراً، بنفس حماسة أصحاب الحسين الذين فدوه بأرواحهم وتقدموا يواجهون الجيش الضخم الذي أعدته الدولة لقمعهم، وكان من بين أصحاب المختار مَن اعتبر الموت بمواجهة الظلم سعادة حقيقية، وهكذا أقدموا على مواجهته بفرح وبهجة، وقد أيقنوا أن طريق كربلاء هو الطريق الوحيد الموصل لها حتى وإن لم تتح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في الحال، فالمسيرة تتطلع إليها كل الأجيال ويكمل مشوارها أنصار جدد يرعف بهم الزمان ما دامت على هذه الأرض حياة.